ك. ماتفيف
أ. سازونوف

حضارة ما بين النهرين العريقة

ܫܘܡܪ . ܐܟܕ. ܒܒܠ . ܐܬܘܪ

ترجمة الدكتور حنا آدم

※ حضارة ما بين النهرين العريقة
ك . ما تغييف و آ . سازونوف
(موسكو ١٩٨٦ ـ الحرس الفني)
※ ترجمة الدكتور حنا آدم .
※ ٢٠٠٠ نسخـة .
※ تنفيذ مطبعة دار المجـد .
(دمشق ـ ١٩٩١)
※ صمم الغلاف : الفنان أخيفر بارو


N
W
E
S
الخليج الفارسي
современные названия подчеркнуты
0 60 120 180 KM

ترجمة الدكتور حنا آدم

حضارة ما بين النهرين العريقة

ك . ماتثيف - أ . سازونوف

١٩٩١

الفهرس



دار المجد
طباعة نشر توزيع
دمشق ص ب ١١٠٣٣

تمهيد :

إن الشعوب العريقة تبقى شجرة وارفة متأصلة في الأرض ضاربة جذورها في أعماق الزمن، تخبىء البسيطة كل ماضيها حتى لو لم يبق منها سوى وريقات معدودة على أغصان فريدة .

إن مثالنا في هذا الكتاب هو ذلك الشعب الذي أشاد دولة عظيمة وأسس عدة ممالك ودويلات في بلاد ما بين النهرين وبنى حضارة عريقة قدمت للبشرية جمعاء خدمات جليلة في مختلف مجالات العلوم كالفلك والرياضيات والعمارة والطب والقانون والأدب وغيرها. ولا زالت البشرية مدينة له بكثير من الاختراعات والاكتشافات في المجالات النظرية والتطبيقية للعلوم الطبيعية والانسانية . وفي هذا السياق يعتبر هذا الكتاب محاولة علمية جادة في كشف النقاب عن الأثر الفعّال لهذه الحضارة الشرق أوسطية على مجمل التطور العلمي ـ التقني الحاصل في الغرب وكذلك في لجم كل التخرصات والافتراءات الاستعمارية التي تحاول تجريد هذا الشعب من ماضيه الحضاري وجعله من الأمم الملحقة التي ما زالت « ... حتى الآن موضع السياسة العالمية للامبريالية ... والتي مابرحت أن تكون بالنسبة الثقافة والحضارة الرأسماليتين إ بمثابة مادة سمادية فقط » .

إننا بمحاولتنا السابقة في ترجمة مؤلف تـاريخ هذا الشعب في العصر الحديث نقـدم الآن لقراء العربية في هـذا الكتاب لفتة علمية لأصول هذا الشعب ومنابع تاريخه في عصور مـا قبل الميلاد ، حيث يحدد هذا المؤلف بوضوح وبساطة أصول حضارة ما بين النهرين ومضامينها ومـدى تأثيرها وتأثرها بالحضارات الانسانيـة الأخرى وعليها • ويسوق مؤلفاه براهيناً علمية لا تقبل الجدل لما قامت وتقوم به الدوائر الصهيونية في سبيـل تشويه تاريخ هذه المنطقة واللعب بمصائر شعوبهـا •

لذلك يعتبر هذا الكتاب وحدة متكاملة ، تستعرض حضـارة شعب ما بين النهرين في دويلاته المتعددة ، ذلك الشـعب الذي لم يكن يتصف ــ كما صوروه ــ بالقسوة والعنف والخطيئة ، بل امتـاز بالعقل المتفتق الخلاق والمبدع والوعي الذي جعله يحافظ على ذاته حتى يومنا الحاضر •

وفي الختام لا يسعنا إلا أن نقدم الشكر لكل من ساهم فيأخراج هذا العمل الى النور ، ونأمل أن نكون قد وفقنا في ترجمته •وشكراً •

آب ١٩٩٠

المترجم

د•ح•آ•



مقدمة

قارئنا العزيز :

ندعوك لترافقنا برحلة في متابعة الحضارات القديمة التي قطنت المساحة الممتدة ما بين نهري دجلة والفرات والتي أذهلت العالم المعاصر بعظمتها وجمالها وغناها • وسمى السكان القدامى هذه البلاد ببلاد ما بين النهرين « بيت نهرين » وسماها الأغريق ميزو باطامي أما الروس فسموها ببلاد الرافدين • وظهرت في بلاد ما بين النهرين ثم زالت من وجه الأرض كلياً دولاً مثل سومر وآكاد وبابل وآشور • وقد قدمت هذه الدول حضارة عريقة كان لها إلى جانب الحضارات المصرية والهندية والصينية أثراً كبيراً على الثقافة العالمية أجمع •

كما كان لحضارة ما بين النهرين تأثير كبير ومباشر على بلاد القفقاس وآسيا الوسطى وعلى بلاد اليونان ومن خلال الأخيرة على الشعوب الأوروبية • ومن وجهة النظر هذه تهمنا معرفة هذا التأثير، وأين وكيفه يبحث في حياتنا المعاصرة ، وما هي الاتجاهات التي سار بها وما هو الدور الذي لعبه • وانطلاقاً من فهمنا لأهمية هذه المسألة فقد خصصنا باباً كاملاً عن الإرث الحضاري الذي خلفته بلاد آشور وبابل • كما كان لثقافة بلاد ما بين النهرين أثر كبير على واضعي التوراة • والآن يحاول المتمسكون بها تقديم البراهين بأن التوراة هي « روح الله » ومن « خلق الله » وبأن الإله الأسمى أنزلها من السماء الى البشر • ويورد مؤلفو هذا الكتاب مجموعة من الأساطير السومرية والبابلو ـ آشورية وكذلك وقائع تاريخية تساعد القارىء في إدراك حقيقة أن نصوص التوراة ذات مصدر دنيوي وهي تتناغم

مع أساطير وحكايا الشعوب القاطنة ـ بالأخص ـ في بلاد ما بين النهرين وفي سومر . إذ أن بلاد سومر كانت تقع حينذاك إلى الجنوب من عاصمة العراق الحالية « بغداد » وتمتد حتى البحر الجنوبي «كما سمي الخليج الفارسي آنذاك» .

ففي الألف الرابع قبل الميلاد أخذت تتوافد الى هذا الجزء من بلاد الرافدين شعوب سميت بالسومريين ، وراحت تقطنه مع شعوب أخرى دعيت بأوائل السومريين « أو ما قبل السومريين ـ المترجم » نتيجة لعدم وجود تسمية خاصة بهم . وفي مرحلة الألف الثالث قبل الميلاد تقريباً أخذت تنشأ هنا تدريجياً المدن ـ الدول « الدويلات » .

من بينها نشير قبل كل شيء الى دويلات مثل : إريدا ،لاكاش أور ، كيش وغيرها . وكانت تلك المدن تشكل الدول الطبقية لمالكي العبيد ، إذ أنها خاضت حروباً فيما بينها من أجل السيطرة على بلاد سومر وتدعى مرحلة استقرار هذه الدويلات والممالك الأصغر منها في بلاد سومر علمياً بمرحلة السلالة السومرية المبكرة. وإلى الشمال من سومر كانت تعيش شعوب سامية ، اختلفت بمظهرها الخارجي وبلغتها عن السومريين ، وإذا كان السومريون دون لحى وشوارب فإن لهؤلاء الساميين لحىً طويلة وممتدة وشعوراً مسترسلة حتى الاكتاف .

كما اختلفت لغتهم عن لغة السومريين جذرياً . فلقد كانت تشبه اللغة الآشورية المعاصرة والعربية والعبرية القديمة . أما اللغة السومرية فلم يكن لها ـ بتأكيد جملة من الباحثين ـ أية علاقة أصولية باللغات العالمية الأخرى .

لم يكن السلام موجود بين السومريين والساميين أبداً ؛ فكانوا يتحاربون دائماً من أجل السيطرة على ما بين النهرين وتدلل حروب الملك السامي سرغون الأول « الأكادي» ، والذي استمر حكمه ٥٥ عاماً على ذلك ، إذ أننا سنتكلم عنه بالتفصيل في الباب المخصص لذلك من هذا الكتاب ، حيث ننوه عن أن سرغون الأول بدأ حربه أولاً ضد مملكة كيش « تل أحيمر ــ حالياً » شمالي مدينة سومر • التي دمرها وأصبح بذلك عملياً حاكماً لشمالي ما بين النهرين ، وفيما بعد استولى على مجمل بلاد سومر • وخلافاً لكل الحكام أسس سرغون الأول عاصمة جديدة له في مكان خال وسماها أكاد • ومن هنا أخذت دولة الأكاديين تسميتها •

وقد تاخمت مدينة أكاد سومر الشمالية ، وكانت عظمتها مبنية على الجيش ، الذي شكلت نخبة المشاة العمود الفقري فيه ، تلك النخبة التي تسلحت : بالنبال والرماح والبلطات واحتمت بالخوذ والدروع المصنوعة من الجلود السميكة أو الخيش المتين • وقد امتدت مساحة المملكة في عهد سرغون الأول من البحر الأبيض المتوسط حتى الخليج الفارسي •

وبعد صراع عنيف تمكن سرغون الأول من إقامة دولة موحدة ممركزة سياسياً واقتصادياً ذات نظام حكم استبدادي • ولقد حكمت سلالة سرغون الأول ما يقارب ١٨٠ سنة حتى سقطت من ذاتها بفعل ضربات قبائل الكوتيين الجبلية الذين قدموا من المرتفعات الجبلية الإيرانية •

لم يستسلم السومريون لانتصارات سرغون الأول والكوتيين والعيلاميين بل نهضوا غير مرة بانتفاضات مسلحة ضد المحتلين •

وقد قاد المنتفضين حكام المدن السومرية أوروك وأور الواقعة

في جنوب البلاد . وأخيراً طرد السومريون المحتلين الأجانب وأنشأوا دولتهم المستقلة . واستمر الحكم السومري من عام ٢١١٢ وحتى ١٩٩٧ ق.م . حيث عرفت هذه المرحلة بمرحلة حكم سلالة أور الثالثة . وكان للكادحين ــ العبيد والحرفيين والبنائين والصاغة ، والحدادين والفلاحين المقيمين والعاملين في هذه المرحلة ــ الدور الكبير في تمجيد بلاد سومر بما قدموه للحضارة العالمية . وبغض النظر عن ذلك فقد استغلهم حكام سومر أبشع استغلال واستملكوا ما أنتجته أيديهم من ثمار وأجبروهم بالقسر على العمل في مد الأقنية والطرق وإقامة شبكات الري وبناء المدن .

لا شك أن ذلك أدى الى إثارة نقمة سكان سومر والى إضعاف البلاد أمام الأعداء الخارجيين المتعددين ومن أهم هؤلاء في ذلك الوقت كانت القبائل العمورية الهاجمة من الجنوب الغربي من السهوب السورية وكذلك القبائل العيلامية من الجنوب الشرقي في القسم الايراني ، أولئك الذين حطموا الدولة السومرية ذات السلالة الثالثة . وفي النتيجة أسس العموريون الدولة البابلية ذات العاصمة بابل .

ومنذ ذلك الوقت لم تنبعث سومر أبداً . فلقد زالت عن وجه الأرض كلياً . وأخذ السومريون يمتزجون بالبابليين « العموريين والأكاديين » وتحولوا تدريجياً الى شعب واحد ، إلا أن الثقافة السومرية لم تمت بل أصبحت جزءاً من ثقافة البابليين والآشوريين ومن خلالهم دخلت الى الحضارة العالمية . واستمرت الدولة البابلية التي جاءت بدلاً من سومر بالوجود حتى احتلت من قبل سلالة الأخمينيين الفارسية . لقد احتل الملك الفارسي كير بابل عام ٥٣٩ ق.م وحولها الى عاصمة لإحدى توابع دولته .

والدولة الرابعة التي سنتحدث عنها في كتابنا هذا هي آشور حيث كانت تقع إلى الشمال من مدينة بابل وعلى نهر الدجلة ورافديه الزاب الأكبر والزاب الأصغر • وقد بلغت مساحة آشور دون الأراضي التي احتلتها ما يقارب ١٦٠ الف كيلو متراً مربعاً وإن لم تكن هذه المساحة الآن لعالمنا المعاصر كبيرة إلا أنها كانت تشكل بالنسبة للعالم القديم دولة شاسعة المساحة •

عاش كما في بابل كذلك في بلاد آشور شعب واحد ذو ثقافة واحدة وعادات وتقاليد واحدة ، وله لغة واحدة ذات لهجة آشورية وأخرى بابلية • لذلك سمى العلماء هذه اللغة باللغة البابلو ــ آشورية لقد صنعت الشعوب الأشورية والبابلية كنوز الثقافة الانسانية الرفيعة في ذلك الوقت وقدموها لشعوب أخرى في القفقاس والهند وآسيا الوسطى والدنيا وكذلك في اليونان ومن خلالها إلى شعوب أوروبا ، كما أنها تشبعت بأفضل ما توصلت إليه الدول الأخرى من الثقافة العالمية •

ولا نرى في المخطوطات المسمارية المتعددة أية كلمة عن الشعب ــ عن الكادحين والأحرار والعبيد وذوي المهن المختلفة ، الذين بنوا القصور والجسور والقناطر والطرق والتماثيل • كذلك لا توجد ولا كلمة واحدة عن الفلاحين الذين قدمت ثمار عملهم على موائد الملوك والمسؤولين الآخرين • وفي كل مكان يسود الملوك فيه يضعون أنفسهم دائماً في مقدمة الرتل لابراز عظمتهم بالدرجة الأولى •

إن المخطوطات الأثرية مليئة بمثل هذه الكتابات • لذلك [illegible] سنتطرق الى مخطوطات الملوك الآشوريين والبابليين [illegible] السومريين والتي تروي مآثرهم ، على القارىء أن [illegible] موضوع [illegible]

خلف كل كلمة من تلك الكلمات يقف صانعو كنوز الثقافة هذه وهم الشعب العامل الأحرار والعبيد ، الفلاحون والحرفيون ، الصاغة والبناؤون ، الرسامون والنحاتون وليس الملوك والآلهة . لقد أبعد الزمن عنا لآلاف السنين كل ما صنعته يدا هؤلاء الناس وكست الرمال والغبار بطبقات سميكة المدن التي بنوها ، وبدا وكأن كل ما بقي من ذلك بعض التلال التي يتصور البعض بأنها طبيعية ولاتحوي في جوفها أي شيء ثمين وهام .

إلا أنه كان للعلماء وعلماء الآثار رأي آخر وكانت صعبة وخطرة وطويلة طريقهم الى اكتشاف الدول العظيمة العريقة ـ سومر ـ أكاد ـ بابل وأشور .

إن مكتشفات علماء الآثار وتفسير اللوحات الغضارية «الكتب» ذات النصوص المسمارية والتي تعتبر من أثمن المحفوظات المكتبية وكذلك حفريات المعابد والقصور المهدمة والمطمورة في التراب منذ آلاف السنين جعلت السر حقيقة . لقد ساعدتنا هذه التلال على اكتشاف حضارات جديدة ومقارنة ثقافات الشعوب القديمة والمعاصرة وعلى التعرف بما قدمه السومريون والآشوريون والبابليون في التاريخ الثقافة الانسانية واستخدام هذه الكنوز في الحاضر والمستقبل . إلا أنها لم تزين أعظم المتاحف العالمية فحسب بل وأصبحت مفيدة وضرورية للحياة الحاضرة على الأرض وبالدرجة الأولى للشباب ولكل من يهتم بتاريخ الشرق القديم .

وخلال عملنا بهذا الكتاب تذكرنا ما قاله ف . إ . لينين عما قدمته شعوب الشرق للثقافة الانسانية وبأنه هنا « ... ستنهض الجماهير الشعبية في الشرق كمساهم مستقل ، كخالق حياة جديدة،

إذ أن مئـات الملايين من سكان هذه المنطقة ينتمون إلى أمم ملحقة وهي ما زالت حتى الآن موضع السياسة العالميـة للامبريالية تلك الأمم التي ما برحت أن تكون بالنسبة للثقافة والحضارة الرأسماليتين إلا بمثابة مادة سمادية فقط » .

إن فكرة ف . إ. لينين عن أن شـعوب الشرق ستنهض لتخلق حياة جديدة ، هي فكرة هامة جداً وخصوصاً في أيامنا هذه حيث يجري صراع إيديولوجي حاد بين قوى الاشتراكية والتقـدم من جهة وبين قـوى الرجعيـة والرأسمالية من جهـة أخرى . يحاول الأيديولوجيون البرجوازيون البرهان على أنـه لم توجد لدى شعوب الشرق في القدم أي حضـارة أو ثقافة أو أن الحضارة والثقافـة الشرقيتين هزيلة وشكليـة وليس لها جذوراً عميقة . إنـهم يريدون تجريد شعوب الشرق من قوتهم محاولين بذلـك البرهان على تفوق المركزية الأوروبية « أوروسنتريزم » ، وهذا الكتاب يبين مساهمة شعوب الشرق القديم في تكوين كنوز الثقافة الانسانية .

ومن خلال الكتاب تعبر فكرة هامـة أخرى وهي أن العلماء الباحثين يحصلون على الاكتشافات ويصلون إلى النجاحات في العلم نتيجة المواظبـة ونكران الذات والأهم من ذلك العمل المضني.

إن العمل الدؤوب والمنظم هـو الضمانة الوحيـدة لكـل الاكتشافات والمعلومات الجديدة . وكل ذلك كان عادة من صفـات أبطال كتابنا هذا سواء علماء الآثار الأجانب مثل : ب . باتتا ،ج.ريج غ.ليبيارد ،ح.رسام وكذلك العلماء الروس مثل : ف.ديتيل،ي.بريوزين ن. ليخاتشوف ،م. نيكولسكي ، ف . غالينيشيف ، ف . ستاسوف

وغيرهم • إنهم جميعاً كدحوا طويلاً باســم العلم والحفاظ في ذاكرة الأجيال القادمة على ما توصلت إليه الحضارات الغابرة •

كتابنا هذا هو جهد عالمين باحثين شاهدا الكثير مما اكتشفه علماء الآثار •

أردنا أن نقتســم معلوماتنا معك أيها القارىء الشاب ، لذلك ندعوك لتتلمس الكنوز المادية والروحية ــ لأرض مابيــن النهرين القديمة ــ تاريخها ومكتشفاتها في الرياضيات والفلك ،أساطيرها ، وإبداعات مهندسيها المعماريين التي ما زال علماء الآثار يواصلون اكتشافاتهم لها في نطاق دول الشرق الأدنى • وهكذا فلنمض معاً •

★ ★ ★

الفصـــل الأول

مهد الحضارات القديمة

لتدخل الى بيتنا تحت ظلال الأرز
وعندما تدخل الى بيتنا
سيقبل الفرات قدميك
ويخر الملوك ،والواجهاء ،والأمراء لـك راكعين .
وسيقدمون لك الجبال والسهول هدية .

ذكرى الحياة على اللوحات الفضارية ((الفخارية)).

إن الأسطر المقتبسة من « ملحمة غلغاميش » واردة في إحدى اللوحات الفخارية الاثني عشرة التي أنبأت العالم عن حياة ومآثر غلغاميش الأسطورية هذه وغيرها من « الكتب الفخاريـة » مكثت في التراب آلافاً عديدة من السنين • حيث ضمت مكتبـة الملك الآشوري أشور بانيبعل قسماً منها قبل أن تمسها يد علماء الآثار الانكليز الأوائل مثل « غ•ليبارد» و « ح•رسام» • لقد أرسل مـن أماكن التنقيبات ما يقارب ٣٠ ألف كتاب فخاري الى لندن إلا أنـه وبعد ثلاثين سنة خلت ذلك أصدر المستشرق الألماني المختص بالشؤون الأشورية « ك•بتسولد » كتابه المؤلف من خمسة أجزاء « كتلوج» اللوحـات الفخاريـة للمجموعـة الكونيوجيكية في المتحف البريطاني وقد كتب المستشرق السوفياتي المختص بالشؤون الآشورية البروفسور « ي• دياكونوف» عن الاهميـة الحضارية للكتابة في مقدمته لكتاب الأحرف الأبجدية جاء فيهاما يلي :

« الكتابة هي إحـدى وأهم المنجزات الجوهرية والثقافيـة للانسان بالرغم من أنها تبدو للوهلة الأولى بأنها تلعب دوراً تقنياً في تاريخ الثقافـة فقط إلا أنه بدونها لم يكن لتتوفر إمكانية ذلك التطور العظيم للانسانية من العصر الحجري الى العصر الذري الذي جعل العالم يبدو كما هو عليه الآن وتتفق نحن معذلك كلياً إذ يعتبر المختصون أن من أوجد أقدم منظومة للكتابة المسمارية هم سـكان ما بين النهرين حيث يعتقد البعض أنهم كانوا سومريون أما البعض الآخر فينسب هذا الاكتشاف لشعوب أخرى » .

وعلـى أيـة حـال إن عمـر الكتابـة المسماريـة كبـير . ويرجـع ظهورهـا إلى أواسط الألف الرابـع قبـل الميلاد إن تسمية هذه الكتابة بالمسمارية ترجـع الى العالم الانكليزي البروفسـور في جامعة أكسفور «ت.هايد» عام ١٧٠٠م . لقدلعبت الكتابة المسماريـة دوراً عظيماً في تاريخ الحضارة الانسانية لذلك ندرج باباً خاصاً عن هذه الكتابة .

طويلـة وشاقة كانت الطريق أمام المختصين بفك رموز الكتابة المسمارية لدى الآشوريين ـ البابليين من حيث قراءتها وكتابتها غير انـه عندما تكلمت المسمارية علمت الانسانية بوجود حضارة مابين النهرين التي تعتبر إحدى أقدم الحضارات على الأرض لقد حذرت بعض السطور المسماريـة في إحدى « الكتب الفخارية » التـي فك المختصون رموزها بخبرة « إن كل من يجرؤ على أخذ هذه اللوحات فليلعنه أشـور وبيلليت أما اسمـه وسلالتـه فليطوهـا النسيان في هذا البلد » لم يرهب هذا التهديد الصارم الموجه من قبـل الملك الأشوري أشور بنيبال الباحثين أمثال وتيكس.ف.ميوتتر.غ.غروتيفيند غ.راؤلينسون إ.هينكس وغيرهم .

ولذلك نحن مدينون لهم من حيث فك رموز الكتابة المسمارية والتعرف على الحكمة الموجودة في هذه « الكتب الفخارية » • لقد حققوا إنجازاً حقيقياً باهراً في العلم إذ أن هذه الكتابة حتى بالنسبة لمعاصرها كان من الصعب جداً تعلم القراءة والكتابة بها ولهذا كتب بكل فخر واعتزاز الملك الآشوري أشور بنيبال بحد ذاته عن تمكنه إياها « أنا أشور بنيبال لقد حصلت على حكمة نابو (نابو هو إله العلم والكتابة) وكل فنون الكتابة واستوعبت معارف كل الحرفيين بكل تعدادهم ••• وكما حصلت على كل الأسرار المخبأة لفن الكتابة ••• » •

في تلك الأزمنة الغابرة لم يكتبوا على الورق كما هي الحال الآن بل على الفخار ومنذ القدم فكر سكان بلاد ما بين النهرين « السومريون » بما سيستعملونه كمواد للكتابة عليها وقد وقع اختيارهم على الفخار إذ أصبح لهم بمثابة مادة للكتابة عليها على مر آلاف السنين لم يستطيع الزمن القضاء على هذه « الكتب الفخارية » ومن أجل جعل الفخار ينطق بالكتابة كان يجب القيام بما يلي: في البداية كانوا يجمعون الغضار من شواطىء النهر ويخلطونه بالماء جيداً وكل ذلك كي تطفوا المواد العالقة فيه مثل القش وقطع القصب والأعشاب أما الأحجار فبالعكس كانت ترسو في الأسفل ثم يفرغون الماء فيبقى الغضار النظيف المغسول على القاع تلك كانت إحدى طرق الحصول على الغضار المستعمل للكتابة لكن في الأغلب كانوا يجمعون مثل هذا الغضار على امتداد ضفاف الأنهار حيث كانت تنظفه المياه ذاتها •

لقد بينت التجربة لسكان بلاد ما بين النهرين القدامى على امتداد

قرون عديدة بأنــه تبقى آثار قدم الانسان وبصمات أصابعه على الغضار الرطب زمناً طويلاً جداً أوليس من الممكن استعمال الغضار في التسجيل عليه كل ما تخزنــه ذاكرة الانسان كالعقود ونصوص القوانين والحياة الاقتصادية والانتاجية والحسابات والاحصاء وهكذا أخذ الانسان يتعلم كتابة ما ابتكره من رموز للكتابة على اللوحات الغضارية الرطبة لقد كتب في البداية بعصا من القصب وبعد اكتشاف المعادن أخذ يكتب بواسطة مسامير معدنية فان كانت اللوحة لا تلزمه لفترة طويلة كان يجففها في الشمس فقط أما إذا كان استعمالها ليس لمدة واحدة،أو كان يراد وضعها في الأرشيف أو الديوان أو المكتبة فقد كانت تحرق في أفران خاصة ثم تفرز حســب اللزوم فبعض « الكتب الفخارية » حفرت في نهاية الألف الرابع وبدايــة الألف الثالث قبل الميلاد واليوم كثير من هذه اللوحات يبدو كما لو أنها قد حفرت من زمن ليس بالبعيد أبداً ومن الجميل أن يتعرف كيف تبدو هذه اللوحات فقد تميزت أشكالها ومقاييسها بتنوع كبير فمن الممكن العثور على لوحات مستوية وغيرها محدبة وكذلك مربعــة ذات زوايا قائمة أومكورة ، بعضها ذو مقاييس كبيرة حتى ٤٥ سم وبعضها الآخر شكلي صغير حتى ٢ ــ ٦ سم وأصغر وعلى اللوحات الشكلية دمغ توقيع محضر لهذا الغرض بالذات على صورة خاتم أو إسطوانة والأكثر تعقيداً كانت عملية تحضير الغضار ذاته لهذه الرسالة فقد كان هناك إنسان مختص يجمع الغضار ويرطبه بالماء ويتركه حتى يصل قوامه الى حد معين فيفركه ويعجنه بيديه ثــم يصنع اللوحــة بالشكل الذي يريده الكاتب ، عادةً كان الكاتب يمسك اللوحة بيده اليسرى ويكتب عليها الأحرف المسمارية بواسطة القصب أو مسمار معدني أو

أنه كان يضعهما فوق الطاولة ثم يكتب عليها وتبدو الأحرف المسمارية سميكة من الأعلى ورفيعة من الأسفل وفي بداية تشكل الكتابة السومرية كانت الكتابة من الأعلى إلى الأسفل ومن اليمين إلى اليسار .

وعندما تحطمت دولة سومر على يد قبائل عمورية تحولت الكتابة المسمارية تدريجياً من اليسار إلى اليمين وبشكل أفقي ومن المعقول جداً أن الاتجاه الأول للكتابة المسمارية أثر على اتجاه الكتابة لدى الشعوب السامية المعاصرة والاتجاه الثاني على اتجـاه الكتابة في الأبجديات الأوروبية . لم يكن من السهل تعلم الكتابة المسمارية فقد لزم ذلك عدد كبير من السنين إذ بدؤوا يتعلمون الكتابة المسمارية تدريجياً مثلما يتعلم الأطفال في عصرنا الحاضر فبعضهم يتلقن ذلك في البيت قبل السن المدرسية وبعضهم الآخر في المدرسة . لقد تعلموا في تلك الأزمنة الغابرة كما هو الحال الآن بواسطة الكتب حيث وضعت أمام التلاميذ نسخة من النص وبعد أن يستعرض المعلم كيفية الكتابة يبدأ التلميذ بنسخ النص النص . وكانت تتم إعادة ذلك عدة مرات حتى يصبح التلميذ يكتب بشكل جيد ومقبول لدى المعلم . كانت تستمر مثل هذه التمارين عدة ساعات يومياً في المدرسة وفي البيت . وكان أسهل للتليمذ القيام بذلك في المدرسة حيث تقدم مساعدة له من قبل المعلم .

وإليكم ما كتبه عالم الآثار الأمريكي إ . كييرا عن ذلك :

« ويشار هنا الى رموز كثيرة ثم تصحح فمثلاً : بعضها كان دون أحرف مسمارية وبعضها ينقصها حرف مسماري واحـد وفي بعض الأحيان تنزلق الرموز عن الأسطر أو يكون الواحد منها متلاصق بالآخر بحيث تتعذر قراءتها مثل التي تكون متباعدةً أجزاؤها عن بعض بحيث تبدو وكأنها منفصلة . نحن نشاهد هذه الأخطاء وكان باستطاعتنا

تصحيحها مثلما عمل ذلك المعلم القديم .. إذ كان يأخذ بيده اللوحة وينادي التلميذ ويبدأ معه باستعراض ما كتب، وإذا لزم الأمر صحح ، وعندما يقتنع المعلم بأن التلميذ تعلم درسه جيداً كان يدعو تلميذاً آخراً مع لوحة جديدة ، وغالباً ما تمسح القديمة ويبدأ بالكتابة عليها من نسخة جديدة وهكذا حتى تتلف اللوحة أو تجف حيث تتعذر الكتابة عليها . وعندما كان التلميذ يتعلم كتابة النصوص البسيطة كانت تعطى له بعد ذلك نصوصاً أكثر تعقيداً بما فيها الملاحم الشعبية والأساطير والخرافات « القصص الشعبية » والوقائع التاريخية والأمثال والخ. وبعد أن يتعلم التلميذ نسخ النصوص والكتابة الاملائية ، يتقدم للامتحان الأخير ويتخرج للعمل .

لقد كان الأناس المتعلمون يلزمون في كل مكان . وكانوا يعملون عادة في المعابد والأراشيف والمكتبات ودواوين القادة والملوك .

أما الكتب التي كانوا ينتجونها فقد كانت تحفظ في المكتبات والأراشيف . إذ كان كهنة المعابد يجمعونها من ذاتهم أو بإيعازات صادرة من الملوك لهذا الغرض فجمع « الكتب الفخارية » كان يجري كما في بلاد سومر كذلك في بابل وآشور .

ومن أشهر الذين مارس جمع الكتب الملك الآشوري الشهير والمثقف آشور بانيبال . فلنتعرف على إحدى رسائله حيث يعطي إيعازاته لجمع الكتب ويورد إكيبيرا هذه الرسالة في كتابه إذ كتب آشور بانيبال فيها :

« خطاب الملك إلى شادوم : أنا بخير ، فلتكن سعيداً . عندما تتسلم رسالتي هذه خذ هؤلاء الرجال الثلاثة (ترد أسماءهم في

الرسالة) والعلماء من مدينة بارصيبيا وتفقد جميع اللوحات كما هي لديهم وكذلك تلك التي تحفظ في معبد إيزيد . ابحث عن اللوحات الثمينة التي توجد في أراشيفكم والتي لا يوجد منها في مدينة آشور وأرسلها لي . فلقد كتبت لجميع الموظفين والحفظة ولا أحد يحجب عنك أية لوحة أو مجموعة اللوحات التي كتبت لك عنها ، وكل لوحة تعتبرها هامة للقصر ابحث عنها وخذها وأرسلها لي » .

لقد جلبت جميع هذه اللوحات إلى نينوى عاصمة بلاد آشور حيث أسست لهذا الغرض مكتبة خاصة تضم بضع عشرات الألوف من « الكتب الفخارية » . وقد تابع إ. كييرا مصير بعضها الذي دخل المكاتب فقد كتب عنه يقول : « .. لم يكتف الملوك الأشوريون الآخرون بجمع ونسخ المؤلفات المكتشفة في المكاتب القديمة فقط بل عملوا أكثر من ذلك . إذ أنهم بعد نسخ النصوص المكتوبة بالسومرية انكبوا على ترجمة كل تلك المواد الضخمة إلى اللغة الحية المحكية . لقد صدرت القصص السومرية القديمة في إصدار أولي جديد وترجمت حرفياً إلى اللغة الآشورية . ولتحقيق مثل هذا العمل لزمت فترة زمنية طويلة وعدد كبير من العلماء . وكانت القصور الملكية في تلك العهود أشبه بالمراكز الثقافية المتقدمة والقصور الراعية للعلم في عصر النهضة .

ورغم المعرفة الواسعة صادفت الترجمة أثناء العمل بالنصوص القديمة كثيراً من المتاعب ، إذ أن اللغة السومرية كانت ميتة منذ ألف سنة خلت . وخير دليل على تطور مستوى العلوم المعاصرة أنه يمكننا اليوم في بعض الأحوال تصحيح النصوص المترجمة آنذاك » .

لقد كانت مكتبة آشور بانيبال في نينوى من أضخم المكتبات حينذاك • ففيها حفظت « الكتب المسمارية » بلغتين مزدوجتين معاً ، مما ساعد على سرعة فك رموز الكتابة المسمارية السومرية وفهم اللغة السومريـــة •

ويعتقد العلماء بأنه من الممكن جداً العثور على مثل هذه المكتبات أو ما يشابهها على الأرض القديمة لبلاد ما بين النهرين ، مما سيمنح إمكانية إجراء تحليل أوســع و أعمق لحياة ونشاط سكان تلك البلاد •

لكن ما تمّ اكتشافه حتى الآن له أهمية غير منقطعة ، إذ أن اللوحات المكتشفة والتي طمرت آلاف السنين في التراب حافظت على نفسها بشكل مدهش واستطاعت أن تنقل إلينا ذكرى حياة العهود الغابرة • لقد نقلت لنا الحكمـــة والتجربة والمعارف والأخلاق والعادات والتقاليد والمقالات عن الحب والموت والنماذج الأدبية والأساطير ، والخرافات المختلفة • وبترجمتها إلى لغات عالمية عديدة أصبحت في متناول الانسان المعاصر • وفي هذا الباب نورد لـــكم إحدى هذه الأساطير التي كتبت في الحقيقة على الجلد •

قصة ((اخيقار الحكيم))

يتسم الصراع الأيديولوجي في المرحلة الراهنة بطابع حاد، ويمس عملياً جميع جوانب حيـــاة المجتمع السوفياتي • ويشن المختصون البراجوزيون بالشؤون السياسية « والسوفيتية » هجوماً شرساً على ثقافات شعوب الاتحاد السوفياتي وبالدرجـــة الأولى على الشعب الروسي • فهم يحاولون بدأب البرهان على أن الثقافة الروسية هي فتية ومحدودة ولم يكن لها علاقات وروابط مع الثقافات الأخرى لذلك تعتبر ظاهرة روسية صرفة • كما أنها غير قادرة على التأثير ومساعدة

الشعوب الأخرى إذ لا يمكن لغير الروسي فهمها والتأثر بها • ومن هنا تستجر الاستنتاجات التي مفادها بأن الثقافة الاشتراكية أيضاً والنموذج السوفييتي للحياة هي غريبة للشعوب الأخرى وتعتبر ظاهرة روسية بحتة يتصف بها الاتحاد السوفييتي فقط ولا يمكن تطبيقها على شعوب أوروبا وأمريكا وكذلك شعوب الدول النامية •

وفي حقيقة الأمر استوعبت شعوب روسيا كل ماهو جديد ومتقدم من الثقافات الأخرى وأغنت بدورها ثقافات شعوب الدول الأخرى ، وتعتبر العلاقات بين الأشوريين والأسقوثيين (★) مثالا على الصلات الحضارية بين روسيا وبلاد أشور •ففي أثناء حكم الملك الآشوري أسرخدون (٦٨١ ـ ٦٦٨ ق•م) تزوجت الملكة الآشورية من القائد الأسقوثي بارتاتو وتشهد على ذلك المكتشفات التي عثر عليها علماء الآثار السوفييت في إحدى التلال الواقعة في مناطق القفقاس السوفييتية حيث ضمت الهدايا المرسلة مع الملكةالعروس سيفاً أشوري الصنع •

وفي عام ١٨٧٥ م تم في روسيا نشر معجم الكلمات الأشورية ، والذي يؤكد استعمال الأسماء الآشورية في روسيا بشكل واسع منذ القرن الرابع الميلادي •

وكتب الشاعر أ•ك•تولستوي قصيدة مطولة عن الشاعر ، والكاتب والفيلسوف الأشوري يوانا داماسكين « يوحنا الدمشقي»

★ الأسقوثيون : قبائل مختلفة عاشت في القفقاس على شواطىء البحر الأسود ما بين القرن السابع والثالث قبل الميلاد . (المترجم)

مسمياً إياها باسمه . كما عرف الكاتب الروائي ل . ن . تولستوي الثقافة الأشورية وكتب رواية بعنوان « الملك الأشوري أسرخدون» .

لقد استمرت العلاقات الثقافية بين روسيا والآشوريين على مدى مئات من السنين . ففي القرن الحادي عشر الميلادي زار الطبيب الأشوري بيوتر سريانين « بطرس سورايا » روسيا . وفي عهد أواكوم في القرن السادس عشر الميلادي وصل الى روسيا باقل الحلبي (بولص د ـ حلب) قادماً من مدينة انطاكية ، لقد كتب عن الفنانين الروس ما يلي : « لا يملك الرسامون الروس مثيلاً لهم على وجه الأرض بفنهم من حيث الدقة والمهارة الحرفية » .

كل ذلك يدحض تكهنات خصومنا الفكريين عن محدودية الثقافة الروسية وعدم امتلاكها جذوراً عميقة في التاريخ ولتأكيد هذه الفكرة سنقوم بسرد تاريخ إحدى القصص الآشورية القديمة والتي وصلت الى روسيا واستمرت في الحياة كحكاية روسية إنها « قصة أخيقار الحكيم ».

بعد الأبحاث الطويلة الأمد والنقاشات العلمية المديدة توصل العلماء الى استنتاج مفاده أن موطن هذه « الحكاية » هو بلاد آشور . ولكن حتى قيلت الكلمة الأخيرة بهذه المسألة مرت فترة زمنية طويلة . إذ أنه في مشارف القرن العشرين فقط وبعد أن درس العلماء المصطلحات الجغرافية والتسميات الخاصة والعادات والتقاليد والأعراف والدين والتاريخ والأدب والفلوكلور لشعوب عديدة من العالم أجمعوا بأن هذه القصة قد ولدت في مرحلة حكم الملك الأشوري سنحريب « ٧٠٥ ــ ٦٨١ ق.م» أو في فترة حكم أسرخدون .

لقد درس وأغنى بحث هـذه القصة علماء كثيرون من دول مختلفة من العالم مثال فرنسا وألمانيا وإيطاليا وانكلترا والولايات المتحدة الأمريكية ورومانيا ويوغسلافيا وغيرها .

ونذكر أعمال العلماء الروس الذين سنتكلم عنهم بتفصيل أكبر فيما بعد ويحتل مركز الصدارة بين هؤلاء الأديب المعروف والمختص بالفن الشعبي (فولوكلورست) أ. غريغوريف الـذي عمل سنين طويلة في بحث هذه القصة وعلاقتها بالأدب الملحمي الشعبي الروسي.

ففي القصـة يحكى بأنه أثناء ظهورها سادت بين بلاد آشور وعيلام ومصر علاقات متوترة وأن الملك سنحريب لم يحارب مصر إلا أن الملك أسرخدون احتلهـا في عام ٦٧٣ ق.م . فلقـد أرسل نادان « ابن اخيقار بالتبني » رسالة الى أكي ابن خمسليم « ملك عيـلام» يدعوه فيها الى زيارة بلاد آشور التي أراد أن يقدمها لـه دون حرب .

ويرد في القصة أربعـة أسماء مركبة يشكل الجزء الأول منها اسم الإله الآشوري ــ البابلي نابو . فهي نابوساماخ وهـو منقذ اخيقار ، ونابوزاردان وهو شقيق نادان ونابوإيل وهو حرس نادان ونابو خايل أحد الأطفال الذين طاروا على ظهر النسر . لقد كان نابو في البداية إله الغلال « الحبوب » وإله الصراحة وفيمـا بعد أصبح إلهاً للحكمة والكتابة .

وفي عام ٨٠٧ق.م . حـازت شخصية الإله نابو على شعبية واسعة في بلاد آشور كراع للعلم هنالك .

ونصادف غيرها من الأسماء اسم طبشليم حيث يعني بتحويـر لفظي بسيط له بـ « السلام الطيب ».

واسم اخيقار يعني « الأخ الحسن » وهو من مصدر عربي إلا أن مثل هذا التشكيل للاسم يصادف كثيراً في الأسماء الأشورية البابلية مثال اسم اويقام ويعني « أبي قام » هذه الأسماء وغيرها ترد في الوثائق العملية الآشوريةفي القرن السابع قبل الميلاد • وأخيراً يذكر في القصة أيضا اسم مانسيفار وكذلك اسم إشفاغني « زوجة أخيقار » وهذه اسماء أشورية ـ بابلية متحورة كثيراً•

كما نرى أن أغلب الأسماء المذكورة أعلاه هيمن أصل آشوري ـ بابلي وما تبقى منها من أصل آرامي حيث كان استخدامها ممكن في بلاد أشور وبابل • فاسم نادان تعني باللغة الاشورية ـ البابلية « عطاء » •وعلى أسس تحليل هذه الأسماء توصل أ• غريغوريف، الى الاستنتاج الذي يقول :

« بما أن الأسماء مثبتة في الروايات وهي مدحضة من التحوير الظاهر بجلاء فقط لذا يجب اعتماد الأصل الآشوري ـ البابلي لها • ولا يمكن أن يستعمل أسماءً اشورية ـ بابلية في مؤلفاته وأن يعظم الملوك الاشوريين إلا المواطن الاشوري ـ البابلي الذي لا يجتنب دمج اسم الآلهة الوثنية في أسماء ابطاله الحقيقيين ، والقيام بذلك من قبل أناس ينتمون لدول أخرى يكون فعل لامعنى له على الاطلاق » •

إن التسميات الجغرافية عيلام ومصر ووادي النسور وجبل سيس تساعدنا أيضاً على التحديد • فقد كانت دولة عيلام تقع في الجنوب الغربي من إيران الحالية • أما مصرفكانت هناك حيث هي الآن في القارة الافريقية • ووادي النسور كان يقع ـ وفقاً للرواية ـ الى

الجنوب من نينوى عاصمة بلاد آشور ، ولقد كتب عنه نادان في رسالته المزورة الى فرعون مصر :

« عندما تتسلم هذه الإرسالية ، قف واخرج لملاقاتي في وادي النسور الواقع الى الجنوب ...» ، « وأنا سأقتادك الى نينوى دون حرب وستملكها أنت » .

وكان لمثل هذا الوادي أن يقع على الطريق بين آشور ومصر . فعلى هذه الطريق كانت تقع مدينة « عش النسور » أي « قنة دنيشرى» .ووجدمنذ القرن السادس الميلادي هنا دير مسيحي للاشوريين .

وجبل سيس ــ هو ذلك الجبل الذي كان على أخيقار أن يجمع الجيوش الأشورية عليه وفقاً لرسالة نادان المزورة . ويقع هذا الجبل على مدى ثلاثة أيام سفر من نينوى عاصمة الآشوريين . وفي أيامنا الآن لا يوجد مثل هذا الجبل بل توجد بهذه التسمية مدينة الى الشمال الشرقي من مدينة أضنة في تركيا .

ويذكر في القصة أنه كان لاخيقار زوجة تدعى اشفاغني وكذلك ستون زوجة أخرى ، وان هذه الظاهرة (تعدد الزوجات ــ المترجم) لم تكن لتتعارض مع العادات والتقاليد في بلاد أشور وبابل القديمة ويكتب أ.غريغوريف بالرغم من أن « بوليغاميه أي تعدد الزوجات كان مسموحاً به في بابل إلا أنه لم يكن الشكل السائد في ذلك إذ أن الأم احتلت مركزاً محترماً جدا في العائلة . والدليل أن اسم الأم في كثير من الوثائق يرد قبل اسم الأب . كما نال الابن العاصي لأوامر أمه وفقاً للقوانين الاشورية عقاباً أشد صرامة من عصيانه لأوامر أبيه ، ومن وجهة النظر هذه يكون نادان قد ارتكب جريمة أشنع بمخالفته لأوامر أمه المربية » . ويحتمل أن العدد ٦٠ هو من المنظومة

قبل ١٥٠٠ سنة من ظهور هـذه القصة • وكذلك قبل ظهور خرافة إيكار (*) بفترة طويلة •

أثناء زيارة أخيقار لمصر طلب فرعون منـه أن يفسر لغزاً عن الأحصنة والأفراس : « وضح لي يا أخيقارما يلي ـ قال فرعون ـ : صهل حصان سيدك في آشور فأجهضت أفراسنا التي تهاوى الـى سماعها هذا الصهيل هنا » •

ولهذا اللغز الآشوري الأصل عـدة نماذج موازية له لـدى الشعوب الأخرى ، ويذكر أ• غريغوريف أحـد هذه النماذج الموازية له في الأدب الشعبي الروسـي عن إيليـا موروميتس والعندليب الوغد •

وحينذاك أوصى إيليا موروميتس
باخراج الزوجات المكرشة والخيول المهر
لمسافة خمس فرستات (**)
وحنيها أنجب العندليب وهو يصفر •

وحين لقاء فرعون باخيقار طلب من الأخير أن يجدل له من الرمل خمس حبال • ولعبارة « يجدل من الرمل خمس حبال »

---

* ايكـار Ikaros في الأسطورة اليونانية القديمة يرد ذكر ايكار ـ الشاب ، ابن ديدال الذي أراد الفرار من السجن بمحاولة التحليق فوق البحر بواسطة أجنحة صنعها له ابوه من الريش والشمع ، ولما اقترب ايكار من الشمس كثيرا ذاب الشمع وسقط ايكار في البحر وغرق ـ المترجم .

(**) فرستا : وحدة قياس مسافات وتساوي ١٠٦٠ م ـ المترجم •

أشباه موازية أيضاً إلا أن أقدمها هي تلك التي تعود لقصة أخيقار الحكيم . ونشاهد مثل هذه الأشباه في المعتقدات الروسية .

« ووفق المعتقدات الروسية الشعبية ، لم تكن هذه المسألة قابلة للتحقيق حتى من قبل العفاريت ، إلا أن ذوي الكتب السوداء « المشعوذين ـ المترجم » ولكي يخلصونهم من العفاريت يأمرونهم بضفر حبال من الرمال أو الماء أو من أشعة الشمس وبجر الحيتان بها من البحر أو أي أحمال أخرى » .

وعندما أمر الملك الآشوري صديق أخيقار بإعدام الأخير ، لم ينصاع الصديق للملك بل خبأ أخيقار في سرداب البيت .

وكذلك لهذه الحادثة مكان في الحكاية الشعبية الروسية عن إيليا موروميتس : « عندما كان إيليا موروميتس حاضراً لمأدبة لدى الأمير فلاديمير ، أخذ يرفل أرضاً الفروة المهداة له من الأمير فلاديمير ويتبجح وكأنه بذلك يرفل القيصر كودريفانيش . حينها أخذ الخدم أو الحشم بوشايته للامير فلاديمير قائلين له بأن إيليا موروميتس يتبجح برفل الأمير ذاته على الأرض . وقتئذ أمر الأمير بطمر إيليا موروميتس واقفاً في حفرة حتى الرقبة . تقوم زوجة الأمير (أو ابنته) ـ أوبراكسيا بتقديم الطعام والماء سراً لايليا موروميتس وخلال عدة سنوات . وعندما يشن الملك كودريفانيش (وبعض الروايات تقول بعد علمه بموت إيليا موروميتس) الحرب على الأمير فلاديمير ، يبقى الأخير في حيرة من أمره ، إذ أنه ليس لديه مدافع عنه فتقوم الأميرة إما بالاعتراف مباشرة بأنها حافظت على حياة إيليا موروميتس أو بتقديم النصيحة للامير فلاديمير للتحقق من حياة

إيليا موروميتس فيتوجهان الى المكان الذي طمر فيه إيليا ويخرجانه من الحفرة ويترجيانه ليعمل على إنقاذهما » •

ويحكى في الفاوكلور القديم بقدر ماكان نادان ابن اخيقار شريراً ومخادعاً مثلما يتصورون الذئب ، هكذا يقارنه أخيقار في تعاليمه بهذا الحيوان الذي اقتادوه الى المدرسة ليتعلم •

ونصادف في الملاحم الألمانية وقصائد القرن الثالث عشر الميلادي في فرنسا عند الشاعرة ماري دوفرانس حكايا وأمثال عن تعليم الذئب •

مثل هذه الحكاية موجودة حتى في الأدب الروسي القديم وسميت « بقصة كيف علموا الذئب القواعد » حيث يقال :

أنت تهمس للذئب : ألف باء ، نعم ؟

والذئب يردد الماعز والغنم

وأنت تهمس له : صرف الفعل

والذئب يقول : رأيت الماعز عند الجبل •

لقد نحا تاريخ انتشار هذه القصة عدة مناح • فالنص الأصلي كتب باللغة الآشورية ـ البابلية التي لم تعد موجودة الآن • فالقصة كتبت لها الحياة باللغة الآرامية القديمة ، التي تم اكتشاف مقتطفات منها من قبل أو • روبنسون عام ١٩٠٦ في جزيرة سيناء بمصر ، حيث سارت ضمن أرشيف الفرق العسكرية ويعود تاريخها تقريبا الى عام ٥١٥ ق•م •

وتحفظ بقايا ورق البردي التي هي بشكل لفائف بطول ٣٢ـ٣٣ سم في مكتبة برلين بالرقمين ٦٣و٦٤ • وتتألف اللفافة ذات الرقم ٦٣ من ٣٣ عموداً أما اللفافة ٦٤ فتضم بقايا عمود واحد فقط • في كل سطر فيها يوجد من ٥٥ الى ٥٨ حرفاً •

ويمكن للقارىء الذي يريد المزيدمن التفاصيل أن يتعرف على أوراق البردي هذه في عمل العالم الألماني المشهور إ• زاخاو الصادر عام ١٩٠٨ •

وما يلفت النظر في مصير هذه القصة ، أنه في القرن الرابع الميلادي قام الكاتب والفيلسوف الآشوري أفريم سيرين (أبريم أنورايا) بتنقيح أحد نماذج هذه القصة ونشره ، وهذا التنقيح بالذات أصبح أساساً لكل النماذج الأخرى للقصة : كالنموذج السلافي والعربي والأرمني واليوناني والروماني والأثيوبي واليوغسلافي والجيورجي • أما ما يخص النموذج اليوناني فهناك مجموعة كبيرة من الاحتمالات • وقبل كل ذلك كان العلماء اليونانيون القدماء ذاتهم يعتبرون أن الأسطورة هي فن ابتدعه الآشوريون والبابليون وبأنه كان لأساطيرهم أثر كبير على تكون الأسطورة اليونانية إيزوب (★)

ويعتبر العالم الفرنسي ف • نوو بأن الفيلسوف الاغريقي ديمقراطيس (٤٦٠ ـ ٣٧٠ ق•م) أثناء رحلته الى بلاد بابل جلب معه الأساطير الاشورية ـ البابلية أمثال أخيقار الحكيم • ويلاحظ فيما بعد بأن ميناندر استخدم حكم ديمقراطيس هذه الذي كان بدوره قد استقاها من أمثال اخيقار هكذا رغم انه كان بإمكان هذا المؤلف وواضع سيرة حياة إيزوب أن يتخذ ميناندر من جانبه مثالا لهذا النموذج •

(★) إيزوب Aisopos وهو اسم كاتب الأساطير اليوناني القديم (قرن ٦ ق.م) والذي وضع اسلوب التعبير عن الراي بطريقة الاشارات والهمس والألغاز وذلك ما يدعى بالعربية لغة لقمان ـ المترجم ـ راجع معجم الكلمات الأجنبية ـ موسكو ١٩٨١ ـ •

أما الموضوعة العربية فهي مؤسسة وفقاً للمخطوطات الآشورية القروسطية ٠

وكما يفترض بأن نقل القصة الى اللغة الأرمنية قد تم كذلك بترجمتها من الآشورية إلا أن زمن الترجمة غير معروف ٠ ونصادف في مرافعة العالم الأرمني إزنيك (القرن الخامس الميلادي) بعض أمثال أخيقار وحكمه ٠ ولا يعتقد ف ٠ نوو أن ترجمة القصة الى الأرمنية قد تمت في مرحلة مبكرة كهذه ،إذ أنه يعتبر أنه من الممكن جداً وصول حكم أخيقار الى أرمينيا أو وفيما بعد ذلك القصة ٠

وقدم العالم الأرمني داشيان والذي عاش في القرن التاسع عشر في فيينا بحثاً مفيداً عن تاريخ ظهور قصة أخيقار بين الأرمن ٠ وقد طبع هذا البحث في النمسا عام ١٨٩٩ ٠ فهو يكتب في عمله هذا عن النصوص المكتوبة الأولى عن القصة وتاريخ ترجمتها الى اللغة الأرمنية وتأثيرها على الأدب الأرمني ٠ وقبل عامين من ظهور هذا المنشور خرجت الى النور مقالة باللغة الأرمنية في مدينة فينيسيا « البندقية ــ المترجم » ، حيث يكشف فيها التشابه بين القصص والأمثال التوراتية وبين أخيقار ٠

وفي عام ١٨٩٤ تمت كتابة قصة عن أخيقار من قبل بونياتوف ناظر معهد بابالدور في أرمينيا في دارم ٠ كيفوركوفا إحدى أهالي مدينة إجميادزين وهي بعنوان « قصة أخيقار الحكيم » ٠

وقد حال ف٠ميللر الروسي المختص بشؤون القفقاس ما كتبه بونياتوف وتوصل الى استنتاج مفاده أنه كان للسرد الشفهي عن أخيقار في أرمينيا مصادر أدبية وصلت الى أرمينيا عن طريق سورية ٠

وفي عام ١٨٩٧ صاغ العالم ذاته (ميللر ــ المترجم) مقارنة بين قصة أخيقار والحكاية الشعبية الجيورجية « عن ملوك الشرق والغرب» وقد رآهما قريبتين جداً من بعضيهما • كمـا كان للباحث أ•خاخانوف المختص بشؤون القفقاس دورا كبيرا في دراسـة هذه القصة حيث وجد الجزء الأول للنموذج الجيورجي لقصة أخيقار الحكيم ونشره في عام ١٩٠٤ • إن نص هذا النموذج تنقطع أحداثه عندما يكذب فادان ابن أخيقار بالتبني على أبيه • فقد قارن أ• خاخانوف هـذا النص بالنموذج الأرمني ووجدهما متشابهين بالأسماء وبالتحويرات والاضافات •• الخ•

أما الصياغة الأثيوبية للقصة فتدعى « بكتاب الفلاسفة الحكماء» وتضم خمسـة عشر موضوعة من القصة ، مترجمة في القرنين التاسع والعاشر الميلاديين من المخطوطات الآشورية بواسطـة العالم إسحق بارخنانيا •

وتعتبر المخطوطات الرومانية لهـذه القصة الكنز الأغنى والذي صيغ ــ كما يعتقـد العلماء ــ من النصوص السلافية أو اليونانية والتي ترجع أصولها الى صياغة أفريم سيرين لها •

وسنحاول إعطاء لمحـة مبسطة عن بعض أعمال العلماء الروس والمكرسـة لهذه القصة والتي ظهرت في روسيا القديمـة وأبدت تأثيراً كبيراً على مجموعة من الحكايا والملاحم الشعبية • وترجع أبكر دراسة لهذه القصـة في روسيا الى عام ١٨٠٠ م • في هذه السنة قال الباحث المشهور وصاحب مخطوطات أ• موسين ــ بوشكين بالاشتراك مع ف • مالينوفسكي في الطبعة الأولى لكتاب « كلمـة عن فوج إغريف » فكرة عن وجود نموذج روسي قديم لقصة عن أخيقار الحكيم •

وفي عام ١٨١٦ • أجرى المؤرخ الروسي الكبير ن• كارامزين مقارنة للترجمة الفرنسية لكازوت المعمولة سنة ١٧٨٨ م مع النموذج الروسي للقصة الموضوعة وفق مخطوطات أ• موسين ـ بوشكين• وتوصل ن • كارامزين في النهاية الى أنه لا يمكن اعتبار قصة أخيقار الحكيم نموذجاً قديماً لمؤلف روسي ولم يستطع هذا المؤرخ الاجابة عن كيفية وصول هذه القصة الى روسيا ، إذ أنه آنذاك لم تكن توجد المواد الكافية لذلك ، ومع مرور الزمن وصلت معطيات جديدة وأضحت اللوحة واضحة بالتدريج•

وفي عام ١٨٢٥ ترجم الباحث الروسي ن • باليفوي القصة بتصرف ثم قارن بعض أبوابها بالطبعة الفرنسية لكازوت والتي صيغت منها الترجمة الروسية • أما في عام ١٨٤٣ قام بطبع هذه القصة باسم «كلمة عن أكير الحكيم »•

وقد درس القصة في روسيا علماء اللسانيات أمثال : أ• فوستوكوف ف• بوصلايف ، م• سوكولوف وغيرهم • فقد قارن أ• فوستوكوف نموذجين للقصة موجودين في متحف روميانتسيف بالرقمين ٣٦٣ و ٠٢٧• وبحث البروفيسور م•سوكولوف مطولاً المصائر التاريخية لهذه القصة ونسبها للقرن الخامس عشر الميلادي ، وطبع القصة بعنوان « سيناغريب الملك أدور » • ويكتب ف•بوصلايف في عمله (المختارة التاريخية) بأن هذه القصة « تحمل آثاراً مترجمة ضاربة بالقدم إذ انها كما يمكن أن تكون من اليونانية كذلك يمكن أن تكون من مزامير سليمان أو من كتاب حكمة عيسى ابن سيراخوف وأقوال ميناندر المأثورة أيضاً » • ويضطلع فيما بعد بفكرة مفادها أنه باستطاعة التعاليم الموجود في القصة أن تكون أساساً لترجمتها الى اللغة الروسية •

وقد أصدر البروفيسور ن • تيخونرافوف محاضراته بين عامي ١٨٧٨ ـ ١٨٧٩ في كتاب « تاريخ الأدب الروسي القديم » وبحث فيه مسألة ظهور هذه القصة في روسيا ، وأبدى بهذا الصدد رأياً ،مفاده أن هذه القصة هي ترجمة لاحدى أساطير « ألف ليلة وليلة » وكان للقصة تأثيراً على الأساطير الروسية مثل : « كلمة معيشة مشابهة لكاسيان » و « النحلة » و « كلمة دانييل المعتقل » و « مصيبة سوء الحظ» •

وقد وقعت هذه القصة لمدة طويلة في ساحة نظر الأكاديمي فسيلوفسكي الذي كتب عنها يقول : « إن الأمثال الشرقية القديمة عن الملك وعن واعظه (★) الحكيم قد انتقلت الى المؤلف الأسطوري عن سيرة حياة إيزوب من جهة ، والى المجموعة العربية « الف ليلة وليلة » من جهة أخرى » •• •وفي التنقيح يرد ما يشبه الأخيرة ، إذ أن القصة الشرقية انتقلت الى الكتابة البيزنطية وهذه بدورها عرفت السلاف الجنوبيين عليها (أي القصة ـ المترجم) •

وفي ١٨٨٦ أصدر ي• بارصوف النموذج السيبيري لقصة أخيقار الحكيم (القرن السادس عشر الميلادي) وبعضاً من حكم أخيقار • ويبني ي• بارصوف استنتاجاً هاماً جدا عن وجود مجموعة كبيرة من أمثال أخيقار الحكيم في وصايا فلاديمير موناخوف وكذلك في « كلمة دانييل المعتقل » •

ويعود الأكاديمي أ• فيسيلوفسكي عام ١٨٩٠ مرة أخرى الى دراسة قصة أخيقار وينطق بفكرة أنه من الممكن للقصة أنها قد

(★) الرجل الذي يستشيره الملك وليأخذ النصائح منه .

وصلت الى الأدب اليوغسلافي من خلال الأدب البيزنطي منذ القرن الثالث عشر وإنها دخلت الى مجموعة المآثر الروسية بعنوان « سيناغريب الملك آداروف وبلاد النضوج » كما دخلت الى هذه المجموعة قصة « كلمة عن قوح إغريبف » •

وكتب البروفيسور م• سوكولوف في عام ١٨٩٢ مقدمة للكوميديا « المجـد الروسي » حيث يلاحظ بأن قسماً من مواد (المجدالروسي) هو « قريب جداً من تعاليم أخيقار الحكيم في الطبعة الروسية للقصة في أواخر القرن السابع عشر الميلادي وكذلك لما طبعه الأديبالروسي أ• بيكيني عن تعاليم أب لابنه » وفيما بعد طبع «التعاليم»ذاتها •

كما كتب خ• لا باريف في عام ١٨٩٣ بحثاً عـن البطريرك فيوستيريكت ، حيث تطرق لتاريخ ظهور قصة أخيقار • وقـد اعتبر أن القصة وصلت عن طريق بيزنطة الى روسيا كأصل عربي لها • وفيما بعد صيغت منها القصةالمسيحية •

ويفترض الأكاديمي ساباليفسكي بأن ترجمة القصـة الى اللغة السلافية قد تمت في روسيا القديمة (روســي) •

إن المعلومات المكدسة خلال سنين طويلة من العمل على هذهالقصة مكنت العلماء من صياغة استنتاج واضح مفاده أن أصول هذهالقصة تعود الى بلاد آشور الغابرة •

إن « قصة اخيقار الحكيم » ــ هي أحد أشكال الاحتكاك الثقافي الذي كان موجوداً بين روسيا وبلاد مابين النهرين •إن الثقافة الروسية لم تكن لتتشبع بأفضل ثقافات الشعوب الأخرى فحسب، بل وكذلك أثرت على ثقافات بلاد الشرق القديم •

والآن وبعد أن تعرفنا على تاريخ قصة أخيقار الحكيم وطرق

انتشارها وترجماتها الى اللغات المختلفة واستخدامها في آداب الشعوب المختلفة بما في ذلك في الأدب الروسي . نود يارفاقنا العزيز أن نقترح عليك متابعة التعرف على مجموعة من أمثال هذا الحكيم القديم والإحساس بسحرها وعمقها وكذلك أهميتها للذين عاشوا في زمانه ولمعاصرينا أيضاً .

١ ـ اذا سمعت سراً ، فليمت في قلبك . ولاتبح به لأحد ، كي لا يصبح جمرة متقدة في فمك ولئلا يحرق لسانك كي لا يجلب الهموم لروحك ولا يجعلك تتمرد ضد الرب .

٢ ـ يابني لا تذع ما تسمع ولا تتكلم بما ترى .

٣ ـ لا تحل الحبل المعقود ، ولا تشبك عقداً جديدةدون لزوم لذلك .

٤ ـ لا تزن بزوجة قريبك لئلا يزنون بزوجتك .

٥ ـ لا تكن كشجرة البندق التي تستعجل في الإزهار ولكن تنضج ثمارها بعد كل الثمار . ومن الأفضل أن تكون كشجرةالتوت فهي تزهر متأخرة وتعطي ثماراً قبل غيرها من الأشجار .

٦ ـ اخفض عينيك للوادي أو لا ترفع صوتك عالياً ،إذ انه ليس بالكلمات الكبيرة تبنى المنازل . لو كانت البيوت تشاد بالصراخ لكان بامكان الحمار أن يشيد كل يوم منزلين . لو تحرك المحراث بالقوة فقط ، لما نزوعوا السكة عن ظهر الجمل أبداً .

٧ ـ نقل الحجارة مع العالم أفضل من شرب الخمر مع الغبي .

٨ ـ اسكب خمرتك على ضريح الأتقياء ولكن لا تشربها برفقة الأشرار .

٩ ـ مع الانسان العاقل لن تضيع ومع الغبي لن تتعقل .

١٠ ـ صاحب الرجل العاقل كي تجمع لنفسك العقل • ولا تقترب من الثرثار لئلا تصبح مثله •

١١ ـ مادامت قدماك في حذاء متين فتابع السير وحك ونظف الطريق لأبنائك وأحفادك •

١٢ ـ كل مما هو لك ولا تمد يدك للآخرين •

١٣ ـ مع الانسان التافه لا تتذوق حتى الخبز •

١٤ ـ لا تغضب عندما يزدهر خصمك ، ولا تفرح عندما يقع في مصيبة •

١٥ ـ لا تقترب من المرأة غير المتزنة في حديثها وكذلك من المرأة ذات الصوت الصارخ •

١٦ ـ لا تبدي لجمال المرأة أي اهتمام ولا تكن له في قلبك أي اشتياق • إذ أن الجمال الحقيقي للمرأة يكمن في جمال سلوكها ، وبهاؤها يتجلى في جمال حديثها •

١٧ ـ إذا بيت لك عدوك الشر، حين يصادفك ، فجرده من سلاحه بقوة عقلك •

١٨ ـ إردع ابنك مادام صغيراً ، وقبل أن يصبح أقوى منك فينهض ضدك ويخجلك بتصرفاته الغبية •

١٩ ـ كلمات الانسان الكاذب تشبه الطيور الجارحة فهو يتقبلها بلا مناقشة ذلك الذي بدون عقل •

٢٠ ـ لا تلحق بنفسك لعنة أبيك وأمك • إذ في الوجهة المقابلة لن تستطيع الفرح بسعادة أبنائك •

٢١ ـ لا تتوجه في طريق دون أن تحمل السلاح ، لأنك لاتعرف متى وأين ستصادف عدوك •

٢٢ ــ كما تزين الأغصان والثمار الشجرة ، والغابــة الكثيفة الجبل هكذا يزين الزوج أطفاله وزوجته •

٢٣ ــ لا تقل « سيدي غبي ، أنا أكثر فهماً منه » •

٢٤ ــ لا تقل « أنا ذكي » ، عندما لا يعتقد الآخرون أنــك هكذا •

٢٥ ــ الكلب الذي يترك صاحبه ويتبعك ، ارجمه بالحجر •

٢٦ ــ الغنم التي تشرد بعدة اتجاهات ، تصبح صيداً محققاً للذئاب •

٢٧ ــ لا تسمح لقريبك أن يدوس قدميك ، كي لا يركب فيما بعد على رقبتك •

٢٨ ــ اضرب الانسان العاقل بكلمات عاقلة ، كي تلهب قلبه ، كما تلهب الحمى الانسان المريض في يوم صيفي ، أما الأحمق مهما انهلت عليه بالعصي فلن تجعل منه إنساناً خيّراً •

٢٩ ــ اعط أوامرك للفارس الذكي ، ولا تلح عليه للقيام بها • أما إذا كان الفارس غبياً فانطلق بنفسك بدلا عنه •

٣٠ ــ جرب ابنك بالخبز والماء أولا وفيما بعد اجعله قيماً على أموالك وأملاكك •

٣١ ــ لقد قمت بعتل الحديد وكسر الحجر ولكن كل ذلك تبين أنه عمل سهل بالمقارنة مع الدخول الى بيت حمي أنا •

٣٢ ــ أن يكون للانسان عينان ضريرتان أفضل من قلب أعمى •

٣٣ ــ صديق قريب أفضل من أخ بعيد • السمعة الطيبة أفضل من الجمال إذ أنها تبقى خالدة الى الأبد أما الجمال فيذبل ويزول •

٣٤ ــ عظمة وزة في يد الانسان أحسن من وزة كاملة في إنـــاء

غيره • وعصفور في اليد خير من ألف عصفور طائر في الهواء •

٣٥ ــ لاتنبس ببنت شفة بالكلمات التي لم تفكر بهافي قلبك ، لأنه من الأفضل أن يتلعثم الانسان بأفكاره مما لو تلعثم في كلامه •

٣٦ ــ لا تفترق عن أصدقاء أبيك لئلا يبعد أصدقاؤك عنك •

٣٧ ــ لا تدخل حدائق السلاطين ولا تقترب من بنات عظماء العالم •

٣٨ ــ عندما تصادف إنساناً أكبر منك سناً ، قم له وفاء بالاحترام •

٣٩ ــ عندما تتعلق البحرة في الهواء وتطير الطيور دون أجنحة ويصبح الغراب أبيضاً كالثلج والعلقم حلوا كالعسل حينذاك فقط سيعقل الأحمق •

٤٠ ــ عين الانسان تشبه الغدير ، وهذي وذاك لا يمكن إشباعهما مالم يملأ بالتراب •

٤١ ــ من غير المحبب الافراط في زيارة صديقك دائماً كي لا يتجنبك ويبدأ بكرهك •

٤٢ ــ من يرفض الاستماع بأذنيه سيضطر للاستماع برقبته •

٤٣ ــ الخير يُرد بالخير والشر يرد بالشر ، ومن يحفر حفرة لغيره سيقع فيها •

الباب الثاني

المكتشفات السومرية

غلغاميش رأى كل شيء وجرب كل شيء
وحتى أنه توصل لادراك السر الغامض للحكمة
ولمجمل تاريخ ما جرى قبل الطوفان ..
(من اللوح الأول « لملحمة غلغاميش »)

حفريات التلال السومرية

مرت عهود ، وكل عهد منها ترك آثاراً خلاقة على أرض ما بين النهرين ، تلك الآثار التي نشاهدها في الألواح الغضارية « الكتب الفخارية » وفي القصور المتهدمة ، وفي أطلال جدران القلاع والمدن والمعابد الدينية .

مرت عصور ـ والارض ـ الأم تحتضن بأمان في جوف تلالها آثار الحضارات القديمة لبلاد ما بين النهرين . تلك التلال التي تمثل بالنسبة لأجيال عديدة من الباحثين المستشرقين تلافيف ذاكرة التاريخ ، ومن هذه التلال التي صانت ذاكرة آلاف السنين نذكر تل مكيبر والأحيمر وورقة وكثيراً غيرها . وراحت الأسرار المخبأة فيها تتكشف تدريجياً وأصبحت معلومة في البداية للعلماء الباحثين ومن ثم على نطاق واسع من القراء . لقد رأى فيها العلماء منقبوا الآثار شواهد دامغة للحضارات العريقة ومن خلال اللوحات الفخارية تعرفوا على معيشة أهل بلاد ما بين النهرين، واهتماماتهم وعلى أحزانهم وأفراحهم وعلى عملهم وعنائهم اليومي من أجل لقمة الخبز وعلى كيفية القيام بالاحتفالات وقضاء أوقات الفراغ إن وجدت . تلال عظيمة حفظت في « أجوافها » أدلة عن ذكرى أساطير ومثل

وملاحم السومريين وعن أدبهم الـذي كان له تأثيراً كبيراً جداً على واضعي التوراة التي يحاول بعضهم تصويرها بأنها من ابداع الشعب اليهودي وحده ، والبعض الآخر يعتبرها منزلـة من السماء أبدعها الخالق العظيم .

لقد بدأت التنقيبات في هذه التلال في جنوب ما بين النهرين منذ القرن الثاني عشر الميلادي ، وتابع الأوروبيون في القرن السابع عشر هذه الأعمال .

ففي بداية القرن السابع عشر وصل الرحالـة الايطالي بيترو ديلا فالي الى القسم الجنوبي من ميزوبوتامي (★) . فقد برز امامه تل مجهول ، وفيما بعد سماه العرب مكيبر . لم يدر حينذاك بيترو ديلا فالي أن تحت هذا التل ترقد مدينة التوراة أور وهكذا يمضي القرن السابع عشر ويلحق بـه الثامن عشر .

وفي عام ١٨١٨ م قام الفنان الانكليزي برسـم تل الأحيمر وعليه أطلال قديمة ، ولم يتوقع الفنان بأن لوحتـه هذه تضم بقايا المدينة السومرية كيش .

وفي عام ١٨٨٥ قام العالم الرحالـة الانكليزي ج. فريزر برفقة مواطنه الطبيب ج. روسس بتنقيب تل ورقـه وجوفي وتل مكيبر .

كانت أنباء الرحالـة والعلماء عن التلال الحاضنة لأسرار الأزمنة الغابرة تلهب اهتمام الأوروبيين بذلك .

وفي النصف الثاني من القرن التاسـع عشر اكتشف عالم الآثار الفرنسي إ. دي سيرزيك المدينة السومريـة ،القديمة لاغاش في محلة

(★) اللفظ اليوناني لبلاد ما بين النهرين وهي مشتقـة مـن Mesos وسط اوبين وكلمة Potamos أي النهر ـ المترجم .

التل ، حيث وجد هناك بقايا الثقافة المادية لهذه المدينة السومرية ، ومن بين هذه المكتشافات يميزون أدوات الفن وعديدا من اللوحات الفخارية ذات النصوص المسمارية •

وفي بداية القرن العشرين وجد العلماء على أثر التنقياب مدينة سومرية ضخمة قديمة وهي أور • حيث اكتشف العلماء في هذه المدينة مقبرتين هما ــ كما اتضح ذلك فيما بعد ــ للملك اورميسكلامدوك والملكة شوباد ، اللذين عاشا في الألف الثاني ق•م ، وقد كتب المستشرق السوفياتي الكبير البروفيسور ف • أفديف بأنه في هاتين المقبرتين : « •• تم العثور على كمية كبيرة من مصنوعات الصياغة ذات الفن الرفيع وخصوصاً قيثارة مصنوعة من الخشب ومطرزة بالذهب والفضة والزمرد ، وكذلك رأس ثور ذهبي ولوحة غنية بالنقوش مخصصة للعبة ماتشبه الشطرنج « المترجم » • وميدالية فضية لقارب مع مجاذيف وحلي عديدة للزينة وأوان وأسلحة ومجموعة كبيرة لأدوات أخرى مصنوعة ومطرزة من الذهب والفضة • وقد تم بشكل جيد حفر ودراسة القسم الأكبر من المدينة والذي يعود لزمن حكم الملك ريميسين (القرن السابع عشر ق•م) • وقد تم العثور هنا على مجموعة من الشوارع والأزقة والساحات وكذلك على بقايا أبنية عديدة قدمت صورة واضحة عن حياة المدينة السومرية القديمة • كما تم العثور في الجزء الجنوبي الشرقي من المدينة على وثائق مسمارية تنسب بصورة رئيسة الى عهد « الملك ريميسين »•

وفي عام ١٩١٢ م بدأت البعثة الألمانية للتنقيب عن الآثار عملها في المدينة السومرية القديمة أوروك ، وقد ترأس هذه البعثة العالم يو • يوردان واستمرت أعمالها المتواصلة والكاملة مدة ستة أشهر ، حيث دنت الحرب العالمية الأولى فتوترت العلاقات الدولية بين

الحكومات مما اضطر علماء الآثار توقيف أبحاثهم التي تكللت بالنجاح منذ بدايتها ، إذ عثروا في هـذه المدينة على عدة معابد وأدوات للاستخدام المنزلي والفني والثقافي خلال فترة لا تزيـد عن نصف سـنة •

ولم يعاودوا أعمالهم إلا في عام ١٩٢٨ م أي بعد إحدى عشر خريفاً • ومرة أخرى تقترب حرب عالميـة ثانية تلك الحرب التي لم تتيح الفرصة لانهاء التنقيبات الأثرية •

وفي هذه المرة تجسـد النجاح الكبير بالعثور على المعبدالعظيم المخصص لمدفن الاله السومري الأكبر آلهة السماء آنو • وفيما بعد عثر على « المعبد الأبيض » الـذي يعود لعام ٢٨٠٠ ق•م • ومعبد الالهة نانه الذي كانموجوداً قبل الميلاد وهاكم ماكتبه عن هذه التنقيبات المستشرق البولوني المختص بالحضـارة السومرية م• بيليتسكي في كتابه « عالم السومريين المنسـى » : « كشفت الأرض للعلماء عـن سر الأسوار الدفاعية الضخمة لمدن النصف الثاني من الألف الثالث لماقبل الميلاد وهنا في أورك تم العثور على أقدم اللوحات المعروفة لنا ذات الكتابة المصورة والأختام المسطحة والاسطوانية وفي الطبقـات الأقل عمقاً لوحات من العهود المتأخرة بأختام ومساند مدورة مكتوبة برموز منوعة وغير ذلك الكثير • وحدثت حجارة الجدران الجانبية السليمة العلماء عن الكميـة الهائلة لأعمال البناء في عهـد قادة سلالة أور الثالثة ومن بين الأدوات المنزلية العديـدة عثر على مزهرية من الرخـام الشفاف ذات ثلاث حزم من النقوش البارزة وقد تحطمت الى خمسة عشر قطعة نتيجة لثقل البناء الذي تم اكتشافه •

ويعتبر الباحثون بأن هذه المزهرية تكسرت في الأزمنة الغابرة

وبأن الحرفيين السومريين منذ آلاف السنين الفائتة قد جمعوا حطامها وربطوها بحلقة معدنية. لم يوجد تقصير حتى في تصوير الأدوات البسيطة كأشكال الحيوانات والطيور والمصنوعات الفخارية والحجرية وكذلك المعدنية ، إلا أنه يبدو أن أثمن المكتشفات هـذه وحتى بالمقارنة مع المزهرية الرخامية والأختام القديمة هو رأس امرأة منحوت من المرمر ذو جمال أخاذ .

وفي ١٨٨٩ واصلت التنقيبات في المكان المقترح عن توضع المدينة السومرية القديمة نيبور بعثة أمريكية برئاسة ج. بيترس وغ. غلبريخت بالاضافة الى هؤلاء فقد ضمت البعثة خ. هنس بصفـة مصور ومدير وكذلك ثلاثة منقبين آخرين . وفي منطقة التنقيبات عن مدينة نيبور توضعت مجموعة من التلال فرقمها المنقبون وبدأوا العمل في التـل رقم (١) وعثروا فيه على أطلال قصر ملكي ، أما في التل رقم (٥) فقد وجدوا مكتبة كاملة « للكتب الفخارية ». لكـن اضطر علمـاء الآثار الى مغادرة أماكن التنقيبات بسبب الاندلاع المفاجيء للصراعات الأهلية بين القبائل العربية في ذلك المكان .

وبعد سنة كاملة فقط قرر إثنان من البعثة السابقة وهما ج. بيترس وخ. هنس العودة الى بلاد ما بين النهرين . وفي هذه المرة اكتشف المنقبون زيقورات (وهي مئذنة مدرجة مبنية لأغراض روحية) أما في التل رقم (١٠) فقد عثروا على معبد وألف « كتاب فخاري ».

لقد وصل هؤلاء الأمريكيون الى هذا المكان عدة مرات وفي كل مرة منها كانوا يكتشفون شيئاً جديداً آخر ومن هذه المكتشفات كانت عشرين ألف « كتاباً فخارياً » ، وقـد اتضح أنه في هذا المكان كانت تقع المدينة السومرية نيبور قديماً .

وفي عام ١٩٤٨ وبعد انقطاع طويل عاد المنقبون الأمريكيون مرة أخرى الى نيبور . وفي هذه المرة استطاعوا أن يعثروا على أصنام دينية وقرارات قضائية والوحات لحسابات اقتصادية . وفيما بعد أي في عام ١٩٦١ عثرت البعثة الأمريكية في مكان سمي « بالمستودع » على أكثر من خمسين شكلا يمكن بواسطتها تحديد التقاليد الدينية للسكان المحليين ــ السومريين .

ولم يغب عن بال المنقبين الأمريكيين البلدان المختلفة والأماكن الأخرى لبلاد مابين النهرين . ومنها تل الأحيمر الذي زاره في عام ١٨١٩ الكاهن الانكليزي ج. بوكينغم . فقد قدم حينذاك للفنان ر . يورتر اقتراحاً بأنه في هذا المكان كانت تقع مدينة بابل قديماً عاصمة الدولة البابلية . فتوجه ر . يورتر الى المكان المشار اليه ودون جهد عثر على « كتب فخارية » وقطع من ألواح رخامية مملوءة بالكتابة المسمارية . وعلى قسم من عرش الملك البابلي حمورابي.

لقد كان ر . يورتر رساماً موهوباً ولريشته فضل علينا لما تركته لنا من لوحات ورسومات لهذه التلال القديمة والمشاهد التي تعود لذلك الزمن البعيد . لقد حفظت رسوماته في عدة متاحف بريطانية بمجموعات خاصة عرفت الأوروبيين على بلاد ما بين النهرين القديمة. ومهدت الطريق لتنقيبات أثرية لاحقة عن مدينة كيش ، ذلك الكنز الذي خبأه تل الأحيمر قروناً طويلة ، لقد مضت سنون قبل أن يبدأ علماء الآثار تنقيباتهم المنتظمة .

لقد بدأ المنقبان الفرنسيان ف . فرنسيل وج. أوبيرت وعملوا هنا سبعة أيام فقط لأنهم عثروا خلالها على عبّارة مبنية من القرميد تعود لعهد نبوخذنصر الثاني وعلى العديد من الأدوات

المنزليـة والثقافية والفنية • لأن البعثة تعرضت لغارات البدو العرب مما اضطرها لايقاف التنقيبات •

وكانت أطول بعثـة استمرت عشرة فصول هي بعثة عام ١٩٢٣ لمنقبين من الولايات المتحدة الأمريكية برئاسة لينغدن وماكيه •

فقد كتب م• بيليتسكي بأنه :« كان مركز اهتمام البعثات العشرة المنظمة من قبل هذه المجموعة موجهاً نحو التل الشرقي والأطلال العائدة للعصور الغابرة • ففي مجرى أعمال الحفريات في التـل (A) تـم العثور على القصر الشهير المبنى من القرميد المقعر والذي يعود بنائه في الأغلب الى عهـد الملك ميسليم • لقد حافظ القصر على وضعه بشكل لا بأس به ، وقد تمكن علماء الآثار من إعادة وضع مخططـه ثانية بكل دقـة • فقد تحددت معالم السلالم والصالات العديدة ، والغرف المختلفـة الأغراض وكذلك اللوحات الجدارية والنقوش ، كما عثر بين هـذه الأطلال على لوحـة ذات كتابة صورية • لاشك أن القصر قد تعرض لتهديم أو أنه هجر من قبل ساكنيه منذمرحلة السلالات القديمة ولم يرمم ثانية أبداً • كما تعود لذلك الزمن أيضاً المدافن وربما أطلال (أو قصر مهجور) استعملت كمقابر فقد عثر في هذه المدافن على مجموعة كبيرة من الأدوات المختلفة : مثل الأدوات النحاسية وأدوات الزينة ، مصنوعة من العقيق والذهب والفضة وأختام من الجص والحجر الفلوري واللازودي ومن الحديد الأحمر •

كما عثر المنقبون في إحدى المدافن على هيكل فخاري لعربة ذو عجلتين وفي مدافن أخرى على بيوض النعامة • أما المادة الأكثر أهمية فقد تم الحصول عليها من تنقيبات التل الغربي حيث عثر على مقبرة وتوابيت شبيهة من حيث الشكل بتوابيت أور ، ووجد في بعضها آثاراً

لمدفن جماعي • أما في الطبقات الأعمق فقد وجدت مصنوعات فخارية تمتاز بصفات عهد جمدت نصر » •

لقد كان النجاح الكبير من نصيب المنقب الانكليزي د • تيللور الذي بدأ الحفريات في مدينة المخير التي تحدثنا عنها ، لقد لاحقت هذا المنقب وكذلك المنقبين الآخرين عواصف رملية حارة وجافة • إن هذه الرياح الصحراوية القوية ساعدت المنقبين أحياناً فمثلا هبت مثل هذه الرياح على جانب من التل وعرته من الرمال المتراكمة على تلك الصفحة مما مكن د • تيللور من رؤية جدران البناء المهدم • وكتب م• بيايتسكي بهذا الشأن قائلا : « لم يكن هناك مكان للشك فتقع أمامه مدينة كبيرة غائرة في نوم عميق ودائم إنها المدينة التي كان عليه إيقاظها • مما تبدأ التحريات ؟ وتختار العين المجربة تلاً من مجموعة تلال يقع في الشطر الشمالي من هذه المنطقة وتشبه آثار بناية من ثلاثة طوابق ، أضف أن الطابق الثالث يمكن ملاحظته بسهولة وهو مزاح لـ ٥ـ ٦ أمتار بالنسبة للطابق الثاني كما تبدو الأعمدة والسلالم الصاعدة على المقطع الطولي للانحدار واضحة جداً • وخلال الحفريات التي قادها تيللور وقام بها السكان المحليون أخذت تظهر تدريجياً بقايا الجدران والأعمدة والسلالم • من المتوقع أنه ارتفع فوق الطابق الثالث في وقت ما « بهو » ضخم وأخذ تيللور يبحث قبل كل شيء عن كتابة تدله على باني هذا المعبد • كان البابليون يضعون مثل هذه الكتابات على الزوايا الخارجية للجدران فإذ به يكشف الزوايا الأربعة كلياً وينتصب أمامه معبد الالهة نانه لمدينة أور • وكان الخبر الذي جاب العالم بأكمله هو : العثور على مدينة التوراة أور تلك كانت سنوات الاكتشافات الأثرية

العظيمة عندما ـ كما بدا ـ أن الناس قد اعتادوا على المفاجآت المثيرة إلا أنه كان من الصعب تصديق مثل هذا الخبر • واتضح من الكتابة المدونة على جدران هذا البناء بأن هذا المعبد قد أعيد بناؤه من قبل الملك البابلي نابونيد لتمجيد آلهة القمر نانه ، وبأن من بدأ بنائه هو ملك أورتانا وابنه الملك شولغا ، وكذلك في السنوات التي سبقت حكم الملك نابونيد كثير من الملوك بنوا بيت « نانه ـ سين » •

وبعد أن تم حفر جدران زيقورات اتخذ تيللور قراراً بحفر بئر عميق حتى الأساس • وقد ساعدت هذه الحفريات حتى « القاع » على لقية مجموعة من الجرار و « الكتب الفخارية » • وكل «كتاب» حفظ في غلاف فخاري لوقايته من الصدمات وعرفت محتويات هذه الكتب المنقبين على الماضي المجيد لهذه المدينة وتاريخها وبنائها ، ومراسلات ملوكها مع الحكام الآخرين •

كل ذلك كان هاماً ، إلا أن الاهتمام بمدينة أورغاب بشكل مفاجيء مثلما كان الاهتمام بظهورها ، ولم يرجع علماء الآثار الى هنا إلا في عام ١٩١٨ حيث ترأس المجموعة ر • كيمبيل ـ تومبسون • وقد ناب عنه في ١٩١٩ الانكليزي غ• هول • وقبل أن ينتهي من تحرياته وصل الى أور القديمة مع بعثة الباحث ل• ويللي الذي امضى هنا ١٢ فصلا • ولم يرغب الانكليز باعطاء المبادرة لأحد • إذ أنه في القرن الماضي وفي بداية القرن العشرين توجهت كل متاحف العالم للحصول على آثار سومر وبابل وآشور الفريدة بنوعها وقيمتها وقدمها •ويعود ذلك بالأخص الى القرن التاسع عشر ،إذ لاحظ م• بيليتسكي بأن في هذه المتاحف « الحكومات والمتاحف الحكومية القائمة بالأبحاث

العالمية قدمت القروض بكل صدر رحب للبعثات الأثريــة • فقد جرى خلف هذه الكنوز الدبلوماسيون والعسكريون والعاملون في الشركات وقد تمكنوا من جمع عدد من الهياكل والوثائق التاريخية ؛ لكن هذه المضاربة ألحقت بالعلم ضرراً غير قليل لذلك كان أعضـــاء البعثة مشغولين بشكل رئيسي بالبحث عن المواد التي تعطي للجمهور انطباعات مدهشـــة •

وقد امتازت التحريات في تلك المرحلة بطابع بربري للتعامل مـــع المواد الأثرية النفيسة ، وبضعف علم الآثار وبغياب المختصين وبعدم وجود الطرق المجربـــة للابحاث • كل ذلك يمكن أن يوضح لنا أماكن النقص الموجودة في معارفنا عن السومريين)) •

لكن كل ذلك كان مجرد مقدمة بسيطة لاكتشافات المدن الأخرى وللتنقيب عن تـــاريخ السومريين الذي لا مثيل له • لقـــد ساعدت هذه الاكتشافات التي قام بهـــا منقبون اخصائيون ودبلوماسيون ، وبناؤون وحتى الرحالة على الأطلال بوضوح في القرون الماضية لتاريخ الانسانية وعلى توسيع تصوراتنا عن العالم القـــديم لبلاد ما بين النهريـــن •

من أين أتت تسمية ((ذوي الرؤوس السود))

هكذا سمى السومريون أنفسهم وكذلك سمتهم الشعوب القاطنة في بلاد ما بين النهرين •

لقد ظهرت مسألة تحديد الموطن الأصلي للسومريين في بداية القرن العشرين ، وقبل ذلك اعتبروا عادة سكاناً محليين واعتبر موطنهم الأصلي بلاد ما بين النهرين •

ولكن هذا الرأي تغير تدريجياً ،وراحوا يحولون الموطن الأصلي

للسومريين الى خارج حدود بلاد مابين النهرين • وأول من أخذ يشك بذلك هو العالم الأمريكي إ• سبايزر وأيده في ذلك العالم الروسي م• ميكولسكي والأمريكي س • كامير وغيرهما • ووجد لهؤلاء العلماء خلفاء رأوا في هذه الفرضية أساساً متيناً للاستنتاجات الواقعية • حيث يؤكد ش •أوتين بالاستناد الى الدراسات المجراة على المدافن بأن السومريين خرجوا بالأساس من القفقاس وأيده بذلك ف•خريستنيان ، فقد كتب بأنه هناك تشابه معين بين اللغتين السومرية والقفقاسية • ويذهب ف • خريستنيان بفرضيته الى أبعد من ذلك حيث يعتبر أنه « قد يمكن أن السومريين قدموا من التبت أو من منطقة اساما في الهند »•

وقد قارن ف • خريستنيان بين عادات وتقاليد البورميين — التبتيين من جهة والسومريين من جهة أخرى • واطلع على ثقافتهما وعلى حقيقة أن البورميين ــ التبتيين قد قدموا الى آسيا في العصر الحجري الحديث من شواطىء البحار الجنوبية • كما قدم العالم الانكليزي س • غيد فرضية أخرى عن منشأ السومريين ، فقد بين بأنه في القرون الأولى للألف الثالث قبل الميلاد ظهرت بوقت واحد في مصر وسومر مجموعة من العادات والمقومات الثقافية الواحدة • واستناداً لذلك فهو يؤكد وجود روابط بين هذين البلدين بنوها السومريون الذين كما قطنوا بلاد ما بين النهرين كذلك قطنوا مصر في وقت واحد • ويعتقد س • غيد بأن السومريين قد انحدروا من الهند أو من أي منطقة أخرى في جنوب شرقي آسيا •

ويعتبر بعض العلماء بأن اللغة السومرية لغة أغاوتينية أي أن تغيير الشكل في الكلام لا يجري بالحاق ضمائر على نهاية الكلمات

بل باضافة زوائد على بداية الكلمات • وانطلاقاً من ذلك فهم ينسبونها الى مجموعة اللغات التركية •

والبعض الآخر يشير الى قرابة اللغة السومرية باللغة الدراويدية في جنوب الهند ، حيث يكتب العالم التشيكوسلوفاكي ي• كليما : « إن التشابه الواضح بين مكتشفات محنجو وارو وخرّاب الواقعة في سفلي نهر الهند وبين المكتشفات السومرية في جنوب بلاد ما بين النهرين تدعم هذه الافتراضات بقوة »•

وفي نهاية المطاف طرح رأي يقول : بأنه من الممكن اعتبار المقاطعة الغربية من الهند الصينية الموطن الأصلي للسومريين •

كما يبرز سؤال آخر عن كيفية وصول السومريين الى بلاد ما بين النهرين • هل وصلوها ـ بحراً أم براً من خلال المناطق الجنوبية لايران الحالية ؟ ويمكن أن تدعم الافتراض الثاني القرابة المعينة بين ثقافتي سومر وعيلام الواقعة الى الجنوب الغربي من المرتفعات الايرانية والمتاخمة لبلاد الرافدين • إلا أنه لا توجد لدينا براهين حقيقية على أن الموطن الأصلي للسومريين هو الهند •

ويطابق بعض الباحثين بين الملوحّة وأثيوبيا وبعضهم الآخر يبحثون عن الموطن الأصلي للسومريين في ما وراء القفقاس على شواطىء بحر قزوين • ويبقى السؤال حتى الآن عن البلاد التي يقصد بها من استعمال مصطلح ديلمون الذي غالباً ما يرد ذكره في المراجع السومرية مفتوحاً • وكما سنرى فيما بعد أن السومريون يطلقون تسمية ديلمون في أساطيرهم على جنة الأناس الأوائل • وكما قدم العالم الأمريكي س• كرامير في الفترة الأخيرة اقتراحاً بالبحث عن بلاد الديلمون في حوض نهر الهند (وليس بمطابقتها بجزيرة البحرين كما جرت العادة على

ذلك حتى الآن) • وللبرهان على مثل هذه الفرضيــة يستند س • كرامير على الوثائق الادارية والتجارية السومرية ، التي تطلــق فيها تسمية ديلمون على البلاد التي كان يستورد منها العاج الى سومر ؛ وكذلك يستند على الملحمة السومرية التي تسمى بالديلمون تلك البلاد حيث « تبزغ الشمس منها » وهي أقرب ما تكون الى حوض نهر الهند منها الى جزيرة البحرين • كما ليس من السهل تحديد تاريــخ وصول السومريين الى الجزء الجنوبي من بلاد ما بين النهرين •وتتحدث المكتشفات الأثريــة عن وجود قفزة ثقافية حادة في النصف الثاني من الألف الرابع قبل الميلاد • ويفسرون ذلك بوصول شعب الى هناك ، حيوي ذو مستوى رفيع من التطور من المتوقع أنه السومريون •

وقد عثر على الدلائل الأولى لوجودهم عند التنقيب في أبعــد المدن الى الجنوب وهي مدينة إريدو • ومن هنــا انطلقت الثقافة السومرية بالانتشار في الاتجاه المعاكس لجريان الفرات ودجلــة ،وقد وضعت بصماتها على مساحات شاسعة بين هذين النهرين ولمدة ثلاثة آلاف سنة تقريباً • ويبدأ طريق الثقافة السومرية تغلغله من جنوب مابين النهرين عبر المدن القديمة إربو ،أوروك،أور ،لاغاش،شوروباك أداب ، نيبور وكيش ، ويلاحظ تأثيرها الى الشمال أبعد من ذلــك في ماري وحتى في أشور • وعندما قدم السومريون الى جنوب مابين النهرين لاقوا مقاومة عنيفــة من السكان المحليين الذين عاشوا هنا منذ أقدم العصور • فأخذ السومريون يقطنون هذه البقعــة من الأرض تدريجياً وبموجات ابتدأت من نهاية الألف الرابع وحتى بدايــة الألف الثالث قبل الميلاد ، وبذلك أزاحوا السكان المحليين الذين ــ حسب رأي س • كرامير ــ هجروا ما بين النهرين متوجهين الــى حوض

نهر الهند • حيث قطنوه حوالي عام ٢٨٠٠ قبل الميلاد • لقد خلف هؤلاء السكان وراءهم ثقافة عاليــة انتقلت فيما بعد الى السومريين• وبهذا الشكل ترتسم معالم إحــدى أهم التوجهات التي لـم يشك العلماء فيهـا أبداً •

وبكلمة أخرى يعتبر العبيديون (نسبة الى تل عبيد في جنوب ما بين النهرين) أسلاف السومريين أو السومريين القدامى المزاحين من مواطنهم الأصلية الى بلاد المخنجو دارو أي الى بلاد الهنــد • فهم لم يبقوا وينقلوا للسومريين جزءاً هاماً من ثقافتهم في مابين النهرين فحسب ، بل ونقلوا جزءاً هاماً منها الى موطنهم الجديـد أيضــاً ، ومن هنا التشابه الكبير بين ثقافتي السومريين وموخنجو دارو •

أخذت الثقافة العبيدية بالانتشــار في حوالي أعوام ٤٤٠٠ ـــ ٤٣٠٠ ق•م ويقترحون أنهــا ظهرت في جنوب ما بين النهرين أي أنها تلك الثقافــة المحلية التي تعتبر فاتحة الحضارة السومرية ومحركها الأساسي •أما هي بالذات (أي الثقافة المحلية) فيفترض العلماء أنهــا نشأت في المناطق الجنوبية لايران الحالية • فقــد امتد تأثيرها من الأقسام الجنوبية لبلاد ما بين النهرين حتى مدينة كيش في بغــداد الحالية • فقــد عرف السومريون القدامى بالذات الري جيداً ، إذ أنه بدون هذه الطرق في الزراعة لم يكن هنالك إمكانية بنــاء حضارة كهذه الحضارة التي تلقاها وطورها السومريون • ومن هنا الامكانية التامة لتصديق الافتراض باعتبار الهند المنشــأ الأصلي للسومريين •

وعلى أية حال ، أثبت العالم الانكليزي ويللي العلاقة الوثيقة بين الثقافات العبيدية والهنديــة والسومرية ، فلقد عثر في تل عبيد على الشيء الذي يهمنا في مسألة استقصاء الموطن الأصلي للسومريين •

لقد كان ذلك خاتم وشم يحمل صورة ثور أحـدب على طراز موخنجو دارو • كما نقشت عليه مخطوطة تشبه كتابة سكان وادي نهر الهند • وتقع مدينة موخنجو دارو ـ كماهومعلوم ـ في منخفضات نهر الهند ، حيث اكتشف علماء الآثار هناك رقيمات أثرية تبين الثقافة الهندية القديمة العائدة للالف الثالث قبل الميلاد • إن هذه الرقيمات تشهد ـ في الوقت ذاته ـ على قرابة ثقافة هذه المنطقة وبلاد النهرين القديمة •

وكتب ي• كليما عن العلاقات الثقافية المتبادلة والتماثل بين السومريين وسكان الهند القدامى ، يقول : « وفي المقبرة الملكية عثر على خرزات من العقيق مرسوم عليها أشكالا هندسية مصبوغة بنفس الطرق الكيميائية التي استعملت في معاملة المواد الأخرى في موخيجو دارو • ومن غير المعقول أن تكون هذه الطريقة قد اكتشف في بلدين متباعدين احدهما عن الآخر في وقت واحد تقريباً ، ولا نشاهد في وقت متأخر عن ذلك في أور مثل هذه المعاملة للخرز ، أما في الهند فيتطور هذا الفن ويزدهر تباعاً حتى يومنا الحاضر » •

ويؤيد البعض الآخر من العلماء وفي مقدمتهم العالم الروسي الكبير « الأب الروسي لعلم السيريولوجيا(★)» ن • نيكولسكي وجهة النظر القائلة بأن المنشأ الأصلي للسومريين هو إيران أو تلك الأرض القريبة منها مثل المناطق المتاخمة لعاصمة تركمانية السوفييتية (أشخباد) •

(★) السيريولوجيا ـ احد فروع علم الاستشراق ويدرس تاريخ الحضارات الأشورية من جميع النواحي (السياسية والاقتصادية والاجتماعية . . . الخ) ـ المترجم •

فقد عثر المنقبون في تلال هذه المناطق على أدوات حجرية وبرونزية وفخارية شبيهة جداً بتلك التي وجدوها في التلال السومريـة في جنوب ما بين النهرين • وكل ذلك قاد الى فكرة مفادهـا بأن السومريين فعلا قد قدموا الى ما بين النهرين من تركمانيـا الحالية • كما بين التحليل اللاحق لكلتا الثقافتين وجود ماهو مشترك بينهما •

وكان يقع موضع أو مكان إقامـة الإله إنليل ـ الإله الرئيسي لدى السومريين ـ في الجبال وليس في الوهاد كما هو الحال في القسم الجنوبي من بلاد ما بين النهرين • لذا يمكن لمنحدرات جبال كوبيتداغ أن تكون منشأهم الأصلي •

لقد كـانت الحياة الرعوية وكذلك يمكن اعتبار عوامل أخرى مثل النكبات وغيرها السبب في تحريك السومريين من أماكن إقامتهم الأصلية • وأخذوا يهاجرون بما في ذلك الى بلاد ما بين النهرين (حوالي الألف ٦ ـ ٥ قبل الميلاد) • وهنا في المنخفض جمعوا تلا ركامياً عالياً لإلههم الرئيسي إنليل بقصد شكرهم لـه للرعاية الدائمة ولأنه قادهم الى واد خصب ذو أنهار غزيرة • فقد سموا هذا التل الاصطناعي الذي جمعوه بأيديهم « بيت على الجبل » أو « بيت الجبل » وبالسومرية (إيكور) •

وكان السومريون في مرحلـة تنقلاتهم شعباً دون أبجدية ، إذ لم يعثر المنقبون في مواطن إقامتهم الأصلية على أية آثار للكتابة • كما لم يكن في مستطاعهم العيش في الوقت ذاته دون أقنيـة اصطناعية للري ودون المياه المتجهـة من الأنهار الجبلية الى الأراضي الجافة • أما في بلاد ما بين النهرين حيث تتوفر المياه بكثرة كانت الأقنية ضرورية لهم لجر هذه المياه الفائضـة لري الأراضي وهكذا ظهرت لـدى هذا الشعب

بلاد شاسعة ذات أراض خصبة ، تعطيهم مواسماً ثمينة بالمحاصيل وفي مسار ذلك أخـذت تتشـكل العلاقات الاقتصادية المعقدة التي بات من الضروري رصدها وتسجيلها في الوثائق حينذاك .

وهكذا برزت الحاجة الى وجود الكتابة . وضعت الخطـوة الأولى حيث أخذ الناس يفكرون بكيفية تسجيل الأعمال الانتاجية ، والأوامر والتعليمات والتعهدات وبعض القوانين الأخرى .

كما قدمت آراء أخرى بالنسبة للغـة السومرية وموطنهم الأصلي فيعتبر كثير من العلماء بأن لغـة السومريين وقواعدها المدهشة لا قرابة لها بأية لغة من اللغـات التي احتفظت بنفسها ليومنا الحاضر هذا .

فيقدم باحث هذه المسألـة ف . أفاناسيف رأياً مفاده أن السومريين سموا جزر الديلمون (جزيرة البحرين) الواقعـة في الخليج الفارسـي مهداً لحضاراتهم ، وإحدى أقدم مدنهم هي اريدو . كانت تقع هذه المدينة في مصب نهر الفرات في الخليج الفارسي حالياً حيث لم يتحد وقتئذ مع نهر دجلة في مجراه السفلي .

كيف بدا السومريون آنذاك ؟ نشاهد على الألواح الفخارية رسوماً لأناس حليقي الرأس ، لم يكن لهم شوارب ولحى . وجـوه السومريين ورؤوسهم مستديرة الشكل ، عيون واسعة كبيرة وأنف مستقيم كبير . كان وجهاؤهم أيضاً حليقي الرأس ، دون قبعات وبعضهم الآخر يضع قبعات مستديرة تدعى بالسومريات .

ويعتبر السومريون بذاتهم أن أول مدينة بنوهـا في بلاد مابين النهرين هي مدينة نيبور على مشـارف بغداد الحالية ، وكان يعتبر الإله إنليل الإله الرئيسي لمجموعة من الآلهة الموجودة في المدن الأخرى . ومن هنا يعتقد العلماء بأن مدينة نيبور هي أول مدينة شيـدت لديهم .

فقد كـــانت تقع بالقرب من منطقة المرتفعات الايرانية ومن هناك مرت وتمر الطريق بين الوهاد الجبلية • وبهذه الطريق انهالت الموجات السكانية الأخرى •

لقد جمع العالم التشيكوسلوفاكي المختص بالشؤون الآشورية ب• غروز في وقته أيضاً أبحاثاً عن مسألة الموطن الأصلي للسومريين • وقد دلت دراسة المواد التي جمعها على أن السومريين وصلوا الى بلاد ما بين النهرين في مرحلتين اثنتين ، كانت المرحلـــة الأولى في النصف الأول تقريباً من الألف الخامس قبل الميلاد ، أما الثانية فكانت في النصف الثاني منه • وقـــد وصلوا الى هذه المناطق قادمين إما من أعماق آسيا وإما من الشرق الأدنى •

وخلاصة لمجمل الفرضيات المطروحة عن الموطن الأصلي للسومريين كتب م• بيليتسكي يقول : « تقع البلاد التي قدم منها السومريون وفق مجمل المعطيات في مكان ما في آسيا وعلى الأرجح في منطقـــة جبلية لكنها واقعة بشكل يسمح لساكنيها تعلم فن الإبحار • ويتفق رأي أغلب الباحثين ــ قليلا أو كثيراً ــ حول ذلك • والشاهد على أن السومريين قـــد قدموا من الجبال هو طريقة بنائهم للمعابد التي شيدت فوق دعائم اصطناعية أو على قوالب من الغضار أو الطوب فوق التلال أو المصاطب المرتفعة • وبالكاد يمكن أن تظهر مثل هذه العـــادة لدى ســـكان السهول • وكان على سكان الجبال أن يجلبوا معهم من منشئهم الأصلي الى جانب هـــذه العادة معتقداتهم المبنية لتمجيد الآلهة على قمم الجبال • كما أن هناك برهان آخر على ذلك ، بأن كلمة « البلاد » وكلمة « الجبل » في اللغة السومرية تكتب بنفس الشكل •

كما تتفق ــ بشكل عام ــ آراء مجمل الباحثين عن كيفية وصول

السومريين الى بلاد ما بين النهرين • فإذا كان ذلك فعلا كما يفترض بعض الباحثين ، بأنهم نزلوا من أعالي المرتفعات الايرانية أو أنهم جاؤوا من مناطق جبليــة أبعد من ذلك ، فإن طريقهم مرت من خلال الهند نحو البحر ومن هناك الى الغرب • ومن الممكن أنه قد وصلت الى أسماعهم أخبار عن بلاد واقعة على شواطىء البحر بين مصبي نهرين أو أنهم أبحروا بكل بساطة للعيش بحثاً عن الأراضي التي يمكن العيش فيهــا •

وهكذا يتحدث الكثيرون عن وصول السومريين الى بلاد مابين النهرين بحراً وذلك لأنهم أولا ظهروا قبل كل شــيء في مصبات الأنهار • وثانياً ، لعب الدور الرئيسي في معتقداتهم الإله أنكي ، ذلك الإله الحكيم الطيب الذي كان «بيته» ــ أبزو ــ يقــع بيــن المحيطين •

وأخيراً ماكاد السومريون يقطنون ما بين النهرين حتى أخذوا يمارسون الري في الزراعة والإبحار وركب السفن في الأنهار والمحيطات •

ملحمة غلغاميش وعلاقتها بالتوراة

أكد واضعوا التوراة ومؤيدوها بأنها لم تكتب من قبل أي إنسان بل قدمها الله للبشر ، فلقد نزلت علينا من السماء •

ويبين تحليل النصوص التوراتية بأن قسم منها يرجع الى العادات والتقاليد العبريــة والقسم الآخر لشعوب أخرى • إن معرفة ذلك ضروري لكشف ألاعيب الصهيونية حول تفوق شعبها وعلى ماتنطوي عليه هذه الألاعيب من خداع وتشويش لأفكار المؤمنين والسذج • وأحد دلائلنا على ذلك هو ملحمة غلغاميش • وتقــدم لنا هذه الملحمة إمكانية البرهان على صحة المقولة التي تؤكد المنشأ الدنيوي للتوراة

وتبين بطلان الإدعاء القائل بأن العهـد القديم هو من المؤلفات الروحية الإلهيـة .

ففي القرن التاسـع عشر عمل في الشرق الأدنى والأوسط ، الدبلوماسي الانكليزي راؤولينسون . فقد مارس الى جانب عملـه الدبلوماسي البحث عن الآثار وإحصاء المخطوطات المسمارية وتفسيرها وهكذا نقل عن صخرة بيخيستون الواقعـة على الطريق بين بغداد ، وطهران مخطوطة ذات لغات ثلاث . ولذلك كان يدعى بألبينيست(★) بيخيستون ، إذ انه لم يقم بنقل الكتابة فحسب بل وبقراءتها وترجمتها وتقديرا لجهوده في فك هـذه الرموز وفي اكتشافاته الأخرى في التاريخ الأشوري سموه بـ « أبي الأسيريولوجيا » .

عندما انتهى راؤولينسون من أعماله الدبلوماسية التـي قضاها في منصب القنصل الانكليزي العـام في بغداد . عاد مباشرة الى انكلترا وعكف على اعداد سلسلة « النصوص المسماريـة في آسيا الغربية » وقد قام بدعوة ج. سميث ليساعده في تصنيف وتجميع وترميم وطباعة الرقيمات على صفائح نحاسية لتحضيرها للنشر بعد طبعها ج. سميث لم يقم بتنفيذ ما أوكل اليه بدقة فحسب بل وأخذ يدرس اللغة الآشورية ـ البابلية التي كتبت هـذه اللوحات بها . راح يتمعن في معاني الكلمات المكتوبة ويدرس تاريخ العالم القديم في كتب أستاذه غ. راؤولينسون. بدأ تدريجياً يفهم النصوص المنقوشـة وفي إحدى المرات انتقى من بين ركام اللوحات المجمعة في مستودع المتحف البريطاني لوحة مجدته في

(★) متسلق جبال الالب وفيما بعد اصبحت تطلق على جميع متسلقي الجبال ـ والمترجم .

العالم أجمع • فقـد دار الحديث فيها عن مغامرات أحد أبطال العصور الغابرة والطوفان الذي تعتبر قصته معروفة لكل انكليزي من التورات منذ نعومـة أظفاره •ج• سميث أدهشه هذا الاكتشاف لذا راح يترجم هذا الجزء الهـام من السلسلة ، فقد سماه « تصورات الكلدانيين عن الطوفان » • وفي كانون الأول عام ١٨٧٢ تم نـشر صوراً منسوخة من الرقيمات الفخارية عن غلغاميش وبما في ذلك كتاباً عـن الطوفان •

لقد آثار ج• سميث بنشره هـذا اهتماماً واسعاً كما في انكلترا كذلك في العالم أجمع ، ليس اهتماماً فحسب بل وذعراً أيضاً لدى الأوسـاط الدينية أمام ما تم العثور عليه من مواد تؤكد بطلان الخلق الإلهي لأحد الكتب المقدسـة ألا وهو العهد القديم •

والحقيقة أن العلماء منذ القدم وقفوا ضد مقولـة التكوين الإلهي للتوراة وانتقدوا فكرة منشئها السماوي • ومن هؤلاء الناقدين نذكر تسيباي ، بورفيري ، لوكيان • وفي مرحلة متأخرة مارس انتقادالتورات كل من سبينوزا ، استريوك ، باوير ، كولباخ وغيرهم • إلا أنـه لم يكن بمقدور أحد منهم أن يقـدم بهذا القدر من المواد الذي قدمه ج• سميث • لذلك بمجرد نشره لهذه الأبحاث أخذ الناشرون مـن مختلف الاتجاهات يقترحون عليه جل الخدمات وتعويض تكاليف الرحلة الى بلادمابين النهرين حيث كان بإمكانه العثورعلى الجزءالمتبقي من هذه الملحمة • وأصحـاب جريدة « ديلي تيلغراف » لم يوافقوا على دفع تكاليف الرحلة لسميث الى نينوى وبالعكس بل وأخذوا على عاتقهم كل نفقات الاقامة والعمل هناك بالاضافة لذلك تلقى ج• سميث ألف جنيه استيرليني ثمناً لإجراء التحريات في موقع العمل •

كلف مجلس الاشراف على المتحف البريطاني ج• سميث بمهمة

لمدة ستة اشهر • وفي كانون الثاني من عام ١٨٧٣ سافر الى نينوى ـ العاصمة السابقة للدولة الآشورية والواقعة في شمال ما بين النهرين وفي أيار من العام ذاته عثر ج• سميث على ١٧ سطراً من المقتطفات الناقصة لأسطورة الطوفان العالمي • عملياً تم العثور على كل أجزاء الملحمة عن غلغاميش (١٢ رقيمة) • وبعد خروج البحث الأول عن الطوفان العالمي الى النور نشر ج• سميث كثيرا من المقالات ، وأصدر بعض الكتب عن تاريخ آشور تلك الكتب التي أصبحت فيما بعد نصباً تذكارياً لباحث عبقري •

والى جانب الاستنتاجات المفيدة والهامة الأخرى افترض ج• سميث في أعماله بأن اللغة الأصلية لملحمة غلغاميش لم تكن اللغة الآشورية ـ البابلية ، بل السومرية ، وبالتالي كانت الملحمة قد كتبت أولا في المدينة السومرية أوروك • مما دفع العلماء لبدء مرحلة من البحث المضني عن رقيمات عن الملحمة باللغة السومرية وقد عثر عليها ، وهكذا تم البرهان بأن الكتاب الأول من التوراة والمسمى بالوجود هو نسخة كاملة عن الملحمة السومرية القديمة العائدة لنهاية النصف الأول من الألف الثالث قبل الميلاد •

ويدور الحديث كما في التوراة كذلك في الملحمة عن الطوفان والفلك والله (في الملحمة ـ عن عدد من الالهة) • الذي حذر نوح ـ في التوراة وأوتنايشيتم ـ في الملحمة عن حدوث الطوفان وعن بناء السفينة ـ الفلك • انهالت دفعات الأمطار على الأرض وأغرقتها قضت على كل ماهو حي باستثناء أولئك الأناس والحيوانات والطيور الذين تمكن نوح « اوتنابيشتيم » أخذهم معه • وبعد إبحار طويل ترسي الفلك عند جبال أرارات « وفق التوراة » أما في الملحمة فعند

جبال ينسير • وفي كل من التوراة والملحمة يطلقون الطيوركي تعثر على اليابسة وبعدهذا الانقاذ يبدأون حياة جديدة • ويتضح كثير من النصوص التوراتية من خلال مراجعة الأدب السومري (فالملاحم والأساطير والخرافات في التوراة مرتبطة بحياة سومر القديمة وبالأخص الباب الأول « الوجود » من التوراة ، الذي يعود الى الأسطورة القديمة عن غلغاميش • لقد كانت هذه الملحمة منذ الألف الثالث قبل الميلاد ، أما التوراة فقد بدأوا كتابتها في القرن الثالث عشر قبل الميلاد وانتهوا من كتابتها في القرن الثاني بعد الميلاد •

ولم يصل العلماء حتى الآن الى رأي موحد عن الطريق التي وصلت بها هذه الملحمة الى واضعي العهد القديم (القسم الأقدم من التوراة) • فبعضهم يعتقد أن هذه الملحمة يمكن أنها قد وصلت الى العبريين القادمين من شبه الجزيرة العربية بحثاً عن المراعي في بلاد بابل وآشور • وآخرون يؤكدون أنها قد وقعت بين أيديهم في زمن الأسر الأشوري في عهد الملك سرغون الثاني (٧٢٢ — ٧٠٥ ق•م) • أو في زمن السبي البابلي • فقد كتب العالم السوفييتي المشهور والمختص بالتوراة م• بيلينسكي : « تعتبر التوراة في وضعها الحالي مجموعة من المؤلفات القديمة المنوعة من حيث الشكل والمضمون والتي يغلب عليها الطابع الديني والمكتوبة على امتداد مرحلة زمنية طويلة جداً تمتد من القرن الثالث عشر قبل الميلاد وحتى القرن الثاني الميلاد • وتتألف التوراة من جزأين (العهد القديم الذي وضع قبل العصر المسيحي باللغة العبرية القديمة والعهد الجديد المكتوب من قبل أيديولوجي المسيحية المبكرة باللغة اليونانية القديمة » • ومع كل ذلك يشير واضعوا العهد القديم بجرأة الى المصادر العبرية

القديمة التي استقوا منها مواد نصوصه ، إلا أنهم لا ينبسون ببنت شفة إطلاقاً الى الاستنساخ عن الشعوب الأخرى كالأساطير والخرافات والعادات والتقاليد والقواعد العامة الموضوعة من قبل غير العبريين . كما يلاحظ فيما بعد أن : « الانتقاد العلمي للتوراة هدم التركيب الدوغمائي للديانة اليهودية ... فقد تم البرهان على اعتبار التوراة مجموعة من المؤلفات الأدبية المتنوعة الشكل والموضوع والتي تتصف بغالبيتها بطابع ديني . كما أن نصوص العهد القديم تشبه كثيرا النصوص السومرية القديمة ـ الآشورية ـ البابلية والمصرية والحيثية» .

كما كتب مؤيد هذه النظرية العالم السوفييتي البارع يه . ياروسلافسكي بأنه : « كما احتلت الامبراطورية الآشورية في وقت ما « نحو ٢٦٥٠ سنة خلت » الدولة العبرية ،كذلك اتخذ العبريون كثيراً من العادات الأشورية ومعتقداتهم . كما اعتنق العبريون كثيراً من المعتقدات التي دخلت الى التورات عن البابليين عندما كانوا واقعين تحت احتلالهم . فمثلا : إن قصة مردوخي واسفيري هي بدون شك ترداد للقصة البابلية عن مردوك وعشتار . بالاضافة لذلك فإنهم اعتمدوا قصة الطوفان عن الآشوريين والبابليين أيضاً . فقد كتبت هذه القصص من قبل الكتاب العبريين المتأخرين ونسخوها بأشكال متعددة ، ثم جمعت معاً وأخرجت في التوراة كقصة عن سفينة نوح، هذه القصة التي سنرى فيما بعد أنها تتألف ـ في واقع الأمر ـ من قصتين موضوعتين من قبل أشخاص مختلفين وحتى قبائل مختلفة» .

ويعتقد الباحث الثالث في التوراة العالم البولوني ز . كوسيدوفسكي بأن هذه الملحمة تنقلت من بلاد ما بين النهرين القديمة

الى بلدان أخرى والى شعوب أخرى وخصوصاً الى العبريين القدماء والى فلسطين .

ومن جهة أخرى يبرهن علماء الآثار أن الفيضانات الكبيرة (الطوفانات) كانت غير ممكنة الحدوث فيأرض فلسطين المجردة من الأنهار . مثل هذا الطوفان كان ممكن الحدوث فقط في بلاد غنية بالموارد المائية . ولا يمكن أن تكون هذه البلاد في آسيا الأمامية غير بلاد مابين النهرين (ميسوبوطامي) بلاد السومريين والبابليين والآشوريين .

لقد قام عالم الآثار الانكليزي ل. ويللي بتنقيبات في جنوب ميسوبوطامي ، وتمكن بذلك من الاجابة عن التساؤل عن موقع الطوفان العالمي . وكتب ز. كوسيدوفسكي : « حفر ل. ويللي في جدار مدينة أوروك نفقاً .. وعثر على عمق ١٤ متراً على مدفن للملوك السومريين يرجع للالف الثالث قبل الميلاد ، ويحوي على كنوز ضخمة وبقايا بشرية . لكن ل. ويللي اتخذ قراراً بأنه يجب الكشف عما يوجد تحت هذا المدفن . حينها اخترق العمال بتوجيه منه الطبقة التالية من الأرض حتى وصلوا الى طبقة من الطمي النهري ، الذي لم يعثر فيه على أية آثار لوجود الانسان . أمِنَ المعقول أن العمال قد وصلوا الى طبقة التوضع التي تعود الى مرحلة ما قبل الاستيطان البشري لهذه المنطقة ؟ إلا أن التنقيبات اللاحقة للمدفن جلبت له اكتشافات مدهشة فتحت طبقة من الطمي بسماكة ٣ أمتار ظهرت آثار جديدة للوجود الانساني مثل قوالب الطوب والنفايات ورماد المواقد وحطام القرميد . لقد دلت قطع المصنوعات الخزفية شكلا وتقنية على أنها تعود الى حضارة مغايرة تماماً عن تلك التي تم العثور عليها فوق طبقة الطمي النهري . لذا كان من الممكن تفسير هذا التوضع للطبقات

بالشكل التالي فقط • لقد اجتاحت المنطقة فيضانات غزيرة تمكنت من إبادة مواطن إنسانية غير معروفـة لنا وتعود الى عصور غابرة مجهولة، وعندما انحسرت المياه جاء الى المنطقة أناس آخرون واستوطنوا أرض ما بين النهرين من جديد • أولئك كانوا السومريين الأوائل صانعي أقـدم حضارة من الحضارات المعلومة لنا في العالم • ولكي يتراكم الطمي بسماكة ثلاثة أمتار تقريباً كان لا بد من تواجد المياه في هذا المكان لفترة طويلة وبارتفاع لا يقل عن ثمانية أمتار •إن وجود مثل هذا الارتفاع في مستوى المياه السطحية ـ بعد اجراء الحسابات ـ كان يمكن له أن يجعل كل بلاد ما بين النهرين ضحية لكارثة مدمرة •

إذاً ، لقد لحقت بهـذه البلاد فاجعة قلمّا نجدها في التاريخ فلقـد كان في تصور سـكان بلاد مابين النهرين أن الفراغ الذي ألمت به الفاجعـة يمثل العالم أجمع لذلك كانت الفيضانات الغزيرة بالنسبة لهم تمثل طوفاناً عالمياً شاملا ، وذلك عقاباً من الآلهة (اللاهات) للبشرية الخاطئة • أنباء الفاجعـة تناقلتها الأجيال من عهد لآخر فمن السومريين الى الأكاديين فالبابليين » •

ونضيف بأن هذه الحكاية وصلت الى الآشوريين الذين سجلوها على الرقيمات الفخاريـة ، حيث عثر عليها المنقبون الاثريون غ• ليبارد و خ• رسام في قصر الملك الآشوري آشور بانيبال • وقـام ج• سميث بتفسيرها وإعلام البشريـة بمضمون بعض منها • ويبقى ز• كوسيدوفسكي على حق كلياً عندما لاحظ بأنه : « ما إن أعلنها ـ أي إعلان سميث لمضمون الرقيمات ـ حتى تعالى زخم الاحتجاج من قبل انكلترا فيكتوريا المنافقـة التي تعتبر التوراة بالنسبـة لها كتاباً منزلا من الله ولم يكن بمقدورهم الامتثال لحقيقة أن قصة نوح هي

اسطورة منسوخة عن السومريين » • فما هي الحجج التي أوردها خصوم ج• سميث للبرهان على انعدام الروابط بين هاتين الوثيقتين؟ قبل كل شيء أنهم يتشبثون بأن بطل القصة في الوراة سمي نوحاً أما عند السومريين فكان غلغاميش ، كما أن الفلك قد رست عندجبل آرارات الى الشرق من نهر دجلة وليس الى الغرب منه على جبل نيسير• وهكذا الخ•••

إن المواد التي أوردناها تدحض مرة أخرى هذا « المنطق» ، إذ أن التوراة قد وضعها الناس على أساس المعطيات الفلوكلورية ، والتاريخية والأدبية لشعوب مختلفة •

واما يخص ملحمة غلغاميش فقد كتب القدر لها حياة طويلة ؛ فترجمت للغات عدة في العالم بما في ذلك الى الروسية • وبذلك نحن مدينين قبل كل شيء للشاعر الروسي الكبير ن • غوميليف ، والبروفيسور السوفييتي الأسيريولوج ي• دياكونوف • ففي عام ١٩١٩ م حقق ن • غوميليف ترجمة الملحمة الموضوعةمن قبل إ•دورم وفق النص الفرنسي • وفي عام ١٩٦١ م قام ي• دياكونوف بوضع الترجمة العلمية لملحمة غلغاميش عن الأصل المكتوب باللغة الاشورية ـ البابلية وأغناها بالتعليق المفصل مضيفاً اليها قائمة المراجع المتعلقة بالملحمة •

وقد كتبت حول موضوع الملحمة قصص درامية ومقطوعات موسيقية وحتى أوبرا •••

كيف كتب تاريخ الدويلات السومرية

إن أقدم الدول في العالم كما يعترف بذلك العلماء الآن ظهرت في بلاد مابين النهرين القديمة • وبنفس الوقت الذي تشكلت فيه

هذه الدول ظهرت هنا طبقات من المستغِلين والمستغَلين ومن أجل الحفاظ على الثروات بنت الطبقات المسيطرة جهازاً قسرياً مكوناً من فصائل مسلحة ، تقوم بالحمايـــة وجمع الضرائب ومراقبة العبيد والمشاعات .

إلا أنه لم تظهر الدولة كجهاز منظم مباشرة ، فقد تكونت تدريجياً ، فمن المفيد جداً التعرف على منشئها وتطورها من خلال الدويلات (المدن ـ الدول) السومرية .

بعد قدوم السومريين الى بلاد ما بين النهرين القديمة (٤٥٠٠ ـ ٤٠٦٠ ق.م) بدأت تتراكم لديهم تدريجياً أسس تكون الدولـــة . ففي نهاية الألف الرابع قبل الميلاد تم تكوين مايقارب عشرين دويلة على الأرض التي قطنها السومريون . وفي الربع الأول من الألف الثالث قبل الميلاد بلغ عددها نحو أربعين دويلة ، من بينها إريدو ، أور ، لارسا شوريباك ، كيش ، أوروك ، لاغاش ونيبور .

لقد عمل قادة « حكام » هذه الدويلات محاولات لتوحيدها في دولـــة ممركزة واحدة ، إلا أن أغلب هذه المحاولات كانت تنتهي بالاخفاق . وذلك لعـــدة أسباب بما في ذلك الأسباب الاقتصادية ـ الاجتماعية والسياسية والأيديولوجية .

إذ أن مثل هذا التوحيد كان سيقلص نفوذهم في هذه الدويلات ويخلصهم من ملكية الأراضي وينهي عبادتهم الربانية .

كان العداء بين الدويلات السومرية يؤدي في الغـــالب الى الحرب فيما بينها لأسباب تتعلق بالرغبة في السيطرة على مصادر المياه والغابات والأراضي والمراعي . فمثلا ، نتيجـــة للحرب الطويلة الأمد تم تحطيم قادة أوما وتوحدت دويلتا أوما ولاغاش . وفي عام ٢٨٧٠ ق.م تمكن

حاكم دويلة كيش واسمه ميسيليم من إخضاع كلا من لاغاش وأوما لسيطرته • إلا أن هذا التوحيد لم يتسع أكثر من ذلك في سومر ، إذ انه لم يكن قد تكونت بعد الظروف الاجتماعية السياسية لتوحيد كل الدويلات •

لقد عاشت الجماهير الشعبية في ظروف صعبة جداً ، وأكثر الحكام تميزاً بالقساوة والجشع كان لوغال أند حاكم دويلة لاغاش (حوالي ٢٤٠٠ ق•م) • ففي هذه المرحلة ارتفعت قيمة الضريبة على أعضاء المشاعة لعدة مرات • وكانت ترسل لجمع هذه الضرائب فصائل "مسلحة تقوم الى جانب مهمتها هذه بنهب السكان وخلق الفوضى • لذا عمل السكان المستاؤون على مجيء حاكم جديد إلى السلطة باسم أوروكاغينا • وفي تقديره لذلك قام بخفض الضرائب وأخذ يعاقب أولئك الذين كانوا يخربون ، وبالرغم من وجود منع رسمي لزيادة قيمة الضرائب إلا أن الجباة كانوا يتلاعبون بذلك حسب رغباتهم •

لقد أضعف عدم الرضى لدى الجماهير الشعبية وممارسات جباة الضرائب دويلة لاغاش لذلك خسرت الحرب فيما بعد أمام دويلة أوما •

وقد نقل لوكال ــ زاغيس حاكم أوما عاصمته الى جنوب سومر في المدينة القديمة أوروك •

وكتب البروفيسور ف•افدييف عن سياسة لوكال ــ زاغيس قائلا: « لم يكتف لوكال ــ زاغيس بتحطيم لاغاش واحتلالها ، لقد وضع هذا الحاكم القوي لأوما نصب عينيه مهمة كبيرة هي توحيد كل سومر وأكاد وضمهما تحت قيادته • إن ضرورة مركزة شبكة الري الاصطناعي والدفاع عن البلاد ضد الأعداء الخارجيين كالقبائل الجبلية والرعوية

التي كانت في الأغلب تخترق حدود بلاد ما بين النهرين ، كل ذلك جعل توحيد كل بلاد سومر في دولة كبيرة من نموذج الدول الشرقية القديمة ذات الحكم المطلق مهمة ملحة . وأول من حقق هذه المهمة كان لوكال ـ زاغيس . فكما عرف من مخطوطاته أنه أخضع لسلطته أوروك وأور ولارسو وآداب . كما وقع تحت نفوذه أيضاً المركز الديني لكل سومر ألا وهو مدينة نيبور القديمة . ونظراً لأنه سمى نفسه ملكاً على أوروك وكذلك ملكاً لأور ، لذا أعلن هاتين المدينتين عاصمتين للمملكة السومرية الموحدة ، وذلك لأن هاتين المدينتين السومرتين القديمتين تعتبران حاملتي التقاليد السياسية والثقافية السومرية الأصيلة . وفي عمله لتعزيز سلطته على مجمل بلاد سومر استند الى كهنوت المدن السومرية داعياً آلهتها أن تصبح حامية له . أضف لذلك، انه لأول مرة في تاريخ بلاد مابين النهرين يصنف قائد ما ـ كما يكتب لوكال ـ زاغيس في مخطوطاته الكبيرة سياسته العسكرية بشكل واضح حيث يشير فيها الى أن الإله الأعلى إنليل : « ملك جميع البلاد أعطى لوكال زاغيس عرش ملك البلد وسلمه سلطة البلاد بحيث أنه إذا احتلها من مشرقها لمغربها فتح لهم بذلك طريقاً من البحر السفلي عبر دجلة والفرات الى البحر العلوي » . إن هذه السياسة التوسعية التوحيدية التي اتبعها لوكال ـ زاغيس ساعدت على ازدهار المدن السومرية الكبيرة .

وباعتزاز بنفسه تكلم لوكال ـ زاغيس حيث : « أنه أعطى أوروك البهجة والسعادة ، رافعاً رأس أور كرأس الثور حتى السماء ووهب لارسو أحب المدن لبابار ـ مياه السعادة ورفع أفضل مدن الرب الى أعظم شأن » .

إلا أن هذا الازدهار في سومر لم يدم طويلا ، فقد استمر خلال الخمس والعشرين سنة فقط التي تربع فيها لوكال ـ زاغيس على عرش المملكة فقط • إذ برزت بعد ذلك للحال الدولة الأكادية القوية ، التى أصبحت مصدراً واقعياً يهدد وجود المملكة السومرية المستقلة ذات السيادة الموحدة •

كان لا بد أن يتقد ـ آجلا أم عاجلا ـ الصراع بين هاتين الدولتين • وقد خرجت فيما بعد أكاد من هذا الصراع منتصرة ،حيث اخضعت جنوب سومر لنفوذها مشكلة بذلك المملكة السومرية ـ الأكادية المتجددة بقوة فتيــة كبيرة وزخم جديد للسياسة التوسعية التوحيدية التي اتبعها الملوك السومريون الغابرون •

لقد دامت المملكة الأكادية التي سنتكلم عنها في الباب الثاني مايقارب ـ ١٨٠ ـ عاماً ثم سقطت على أيدي العيلاميين والكوتيين (وهم قبائل ايرانية المنشأ) وفي صراعهم مع العيلاميين والكوتيين انتصر الكوتيون وحافظوا على السلطة في أكاد وسومر نحو ١٢٥ سنــة •

وقام السومريون بقيادة أوتيخيغال حاكم دويلة أوروك ضــد المحتلين وبعد حرب ضروس وطاحنة هزم اوتيخيغال الجيوش الكوتية•

إلا أن السلطة على عموم سومر لم تصل لأيــدي أوتيخيغال ملك أوروك ، بل انتقلت الى السلالة الثالثة لحكام دويلة أور (٢١١٨ـ ٢٠٠٧ ق•م) • وأسس أحد ممثلي هذه السلالة وهو الملك شولغا (٢١٠٠ ـ ٢٠٤٢ ق• م) دولــة موحدة ممركزة ممتدة من سواحل الخليج الفارســي وحتى حدود المساحة التي تحتلها مدينة بغداد حالياً•

ففي هذا الوقت تم وضع شبكة كاملة من الأقنية ومنظومات الري

ومزارع واسـعة تخص ملكيتها للمعابد والدولة • وفي مرحلـة حكم شولغا تمت صياغة إيديولوجية حكومية هادفـة لعموم بلاد سومر تتخذ الشكل الذي اعتنقتها به الشعوب الساميـة كالبابليين والآشوريين فيما بعد • وباتباع مثل هذه الأيديولوجية تمكن حكـام تلك البلاد من السيطرة على الجماهير الشعبية وإعاقة اتحادهم في النضال ضد السلطة •

كان الإله الرئيسي في بلاد سومر هو إنليل ، وكانت تعتبر كل الآلهة تابعة له وهو والدها • وكان معبده الأساسي (إيقور أي بيت على الجبل) يقع في مدينة نيبور في شمال بلاد سومر • وتقول الأسطورة عن إنليل بأنـه أصبح الإله الوحيد العظيم بعد صراعه مع الغولة تيامات آلهة الهيولى المائية حين لم توجـد الأرض آنذاك • ومن أجل خلق الأرض وإيقور تقابل إنليل وتيامات في صراع صدراً لصدر وبعد عراك عنيف أبطحها أرضاً ، وحينها تمكن من خلق الأرض ، وكل ماهو حي (الناس والحيوانات والطيور والنباتات) وكذلك بيتـه على الجبل •

واستخدم كهنة مختلف المدن السومرية عبادة الإله إنليل وآلهة أخرى بشكل واسـع وذلك لتوطيد سلطتهم وسيطرة إيديولوجيتهم ــ إيديولوجية الطبقة الحاكمة مما سـهل هيمنتهم على الجماهير الشعبية وكبح جماح التناقض الطبقي والصراعات الأخرى •

ولم تستخدم هذه الايديولوجية في الشؤون الداخلية فحسب ، بل واستخدمت بشكل واسع لتبرير الحروب التوسعية وإخضاع شعوب وبلاد أخرى أيضاً• وبالاستناد اليها شن الملـك شوغال من سلالـة أور الثالثة حرباً على العيلاميين وحملات ضـد القبائل الايرانية وأخضع

اسيطرته شعوباً قاطنة على المجرى الشمالي لنهر دجلة وسورية ،لقد وصلت جيوشه الى المناطق الشرقية لآسيا الصغرى •

إن الحروب المظفرة التي قادها شولغا جعلته يعظم شخصه دون حدود ، فقد أجبر السومريين أن يركعوا له وأن يبنوا على شرفه المعابد، كما قدمت لنصبه القرابين • ولكن لم تساعده عظمته ولا قدسيته للوقوف في وجه غزوات القبائل الرعوية السامية (العموريين) ضد بلاد سومر •

لقد خرج العموريون من شبه الجزيرة العربية وزحفوا تدريجياً الى سورية المجاورة ومنها الى بلاد ما بين النهرين القديمة • وقاموا هنا بشن حروب ضد السومريين • كما قام العيلاميون من الشرق من الأراضي الايرانية بحروبهم أيضاً ضد السومريين • وقد ساندتهم بذلك جيوش دولة ماري الواقعة بالقرب من الموقع الحالي لمدينة دير الزور السورية • وفي النتيجة تم تحطيم بلاد سومر وأسر ابن سين آخر ملوكها وهو من سلالة أور الثالثة من قبل جيوش دولة ماري وذلك في عام ٢٠٠٧ ق•م•

واستغل العموريون أسر ملك سلالة أور الثالثة ، فبدأوا هجومهم على سومر وأخضعوها لسلطتهم كلياً • ومع ذلك لم تبد الثقافة السومرية ، بل أصبحت جزءاً لا يتجزأ من ثقافة البابليين والآشوريين ومن خلالهم دخلت الى ثقافات الشعوب الأخرى واستمرت حتى يومنا الحاضر •



الباب الثالث

سرغون الاول ودولته أكاد

أنا هو شاروكين
الملك القاهر ، ملك أكاد
أمي كانت كاهنة وأبي لم أره
وأخو أبي يعيش في الجبال
(من قصة عن سرغون)

المدينة التي لم يبق لها أثر

لقد قدم في حينه لوكال ـ زاغيس حاكم الدويلات السومرية فكرة المصدر الإلهي للسلطة الملكيـة في المملكة العالمية الموحدة من الخليج الفارسـي وحتى البحر الأبيض المتوسط • وسمى الحكام الأكاديـون أنفسـهم في محاولـة لتطـوير هـذه الفـكرة بسـلوك « الدنيـا الأربـع » ، ومن أجل توطيـد سلطتهم أخذوا يعطونها طابع المصدر السماوي ويشكلون جيوشـاً كبيرة بالنسبة لتلك الأزمنة •

وبالتالي أصبحت الفكرة المشؤومـة عن المصدر الإلهي للسلطة الملكية والسيطرة على العالم أجمع متبناة من قبل ملوك وقيـاصرة عدة لشعوب أخرى • وفي كل حالة بما في ذلك مع ملك أكاد نلاحظ نهاية مؤسفة لمبـدأ توحيد الشعوب بقوة السلاح وتشكيل الامبراطوريات الممزقة بالقسر • ويبين تاريخ مملكة أكاد ذلك بشكل واضـح•

كان سرغون الأول مؤسس هذه المملكة ، الملك الوحيـد الذي يحمل ثلاثة ألقاب فهو سرغون الأول والأقدم والأكادي • إن كل من هذه الألقاب الثلاثة يعكس جوهر فكرتـه بالضبط • وفي اللغة

الآشورية ـ البابلية (الأكادية) والتي تكلمت بهـا القبائل السامية في بلاد ما بين النهرين القديمة يلفظ اسمه شاروكين أي الملك الحقيقي الأصيل •

وخلافاً لما سبقه من حكام في بلاد ما بين النهرين ، بنى سرغون مدينة جديدة وهي أكاد وجعلها عاصمـة له • وباسم هذه المدينة أصبحت تسمى البلاد بلاد أكاد • إن موقع مدينة أكاد غير معروف بالضبط ، إذ أنهـا دُمرت إثر حصار ضربته عليها قبائل الكوتيين الايرانية وهدمتها من أساسها • إلا أنهم يعتقدون أنها كـانت تقع في نقطـة أكبر تقارب لنهري دجلة والفرات وقريباً من مدينة سيبار السومرية •

ويفترض العلماء أن سرغون الأول لم يكن معروف الهوية ، وهو من أصل فقير عمل جناناً في مدينـة كيش التي كانت تقع الى جنوب العاصمة المرتقبة • ولكي يخفي منشأه «العامي » سمى سرغون الأول نفسـه بالملك الحقيقي ـ شاروكين • وبإيعاز منه نشر الكتبة المؤلفون في القصر أسطورة عن منشأه الخير وعن السلطـة التي وهبته إياها آلهة الحب والحرب عشتار (فينيرا ـ فينوس) ، ويعتقد العلماء أن هذا التصرف كان إحدى أقدم المحاولات في تاريخ الانسانية لتقديس سلطـة الملك الحكومية ، وذلك بتكوين فكرة الدولة العالمية الكونية وتسمية سرغون الأول « ملك دول الدنيا الأربع » وإليكم ما تقوله الأسطورة المكتوبة بإيعاز من سرغون الأول ، لقد نشرت هذه الأسطورة في كتاب « أنا أكشف لك كلمة السر • الأدب البابلي والآشوري» •

أنا هو شاروكين ، الملك القاهر ، ملك أكاد
أمي كانت كاهنة وأبي لم أره

وأخو أبي يعيش في الجبال

مدينتي هي أتسوبيرانو التي تتوضع على ضفاف الفرات

حملتني أمي الكاهنة وولدتني في السر

وضعتني في صندوق من القصب وسدت منافذه بالقار

ورمت بي في النهر بحيث لا أغرق

وفاضت مياه النهر وحملتني الى أكي السقاء

أكي السقاء انتشلني بالخطاف

أكي السقاء رباني كابن له

أكي السقا صنع مني جناناً

وعندما أصبحت جناناً أحبتني عشتار

وتربعت على عرش الملكيــة في الرابعة والخمسين من عمري

لقد امتلكت وقدت أناساً سود الشعر

وسويت الجبال العظيمة ببلطات نحاسية

لقد صعدت الجبالَ الشاهقة

واجتزت الجبال المنخفضة

وأغرقت البلد البحري ثلاث مرات

وهزمت ديلمون أيضاً .

لقد بنيت الأسطورة عن سرغون الأول على أســاس الخرافة السومرية عن عنان (يونان) والجنان (البستاني) شوكايتود . وترد شخصيات « الجنان والآلهة » في اسطورة غلغاميش حيث تتقدم الالهة عشتار بحبها للجنان إينشولان

ومن هذه الأساطير تم حقن العهد القديم بصورة عــن الطفل المنقذ في السلة والعائم في النهر ، حيث نصادف ذلك في قصة موسى

إذ ترتبط وإياه أساطير عن الملك الفارسي كير وعن مؤسسي روما ريموس وريمولوس • فمثلا تقول الأسطورة عن ريموس وريمولوس بأنهما كانا توأمين رمي بهما في نهر تيبر بأمر من الملك أموليا •فجرفتهما المياه الى الشاطىء ، وهناك التقى بهما الراعي فاوستول • وفيما بعد أصبح ريموس أول ملك لروما وأعطاها اسمه •

إننا نصادف ذلك تقريباً في كتاب « الخروج » في العهد القديم ، حيث يأتي الحديث عن ولادة موسى• إذيقول الكتاب بأن امرأة ما ولدت ابناً وأخفته ثلاثة أشهر ، إلا أنها لم تستطع الاستمرار بذلك طويلا • فأخذت سلة من القصب ودهنتها بالقار ووضعت الطفل فيها وأبقته على شاطىء النيل •

« وخرجت ابنة فرعون الى النهر لتغتسل ، بينما كانت وصيفاتها تتجولن على شاطىء النهر ، رأت هي السلة راسية بين قصب الزل فأرسلت أمتها لتجلبها لها » •

لقد شاء سرغون الأول أن تكتب هذه الأسطورة مع إسهاب أكثر لسيرة حياته على لوحاته الجدارية المتعددة • ونقل الكتبة فيما بعد هذه المخطوطات من النصب الجدارية الى الرقيمات الفخارية وحفظتها الأخيرة لكل الأجيال اللاحقة • وهكذا تناقلتها الأجيال فيما بينها حتى وصلت بإيعاز من الملك الآشوري أشور بانيبال الى مكتبته الشهيرة في مدينة نينوى لتصبح إحدى المكتشفات الأثرية للمنقبين في القرن التاسع عشر وفيما بعد فكت رموزها وترجمت فقد قيل فيها بأن سرغون الأول وضع في بلاد مابين النهرين القديمة نظاماً موحداً للمقاييس والأوزان ونظم التجارة الداخلية والخارجية ، بما في ذلك مع شبه الجزيرة العربية والهند ودول أخرى • كما أنه شدد في

استغلال العبيد والمشاعات وزاد الضرائب على مالكي العبيد ونبلاء المشاعات ، كما أنه بالاضافة لكل خلفائه وسع بناء أقنية الري ، والمواصلات في بلاد ما بين النهرين • وقد سميت إحدى هذه الأقنية والتي كانت تصل دجلة بالفرات بالقناة الملكية • كما بنى الملوك السرغونيون أي من سلالة سرغون الأول مدناً جديدة ومعابداً ، وقصوراً ، واستخدم في هذه الحركة المعمارية آلاف العبيد والمشاعين وغيرهم •

لم يكن بمقدور أعضاء المشاعات العاملين في تلبية المتطلبات الملكية أن يواصلوا الأشغال الخاصة بهم كما لم يستطيعوا دفع الضرائب المترتبة عليهم في وقتها ، مما عرضهم المعقوبات والإفلاس ـ مصادرة ما أنتجته أراضيهم • وكان عدد هؤلاء الناس يزداد شيئاً فشيئاً •ضمن هذه الظروف كان البعض منهم يعلن الاحتجاج والاضرابات ضد سلطة الملوك الأكاديين • ولكي يتمكن سرغون الأكادي من إخماد احتجاجات الجماهير الشعبية الواسعة ومن القيام بحملات توسعية اضطر الى تأسيس جيش كبير ـ بمقاييس تلك الأزمنة ـ ومنظم ومسلح بشكل جيد • وبدأت هذه القوات القيام بحملات توسعية كبيرة ضد عدد من البلدان مثل : غابات الأرز (لبنان) ، وجبال الفضة (آسيا الصغرى) ، وعيلام (في مناطق جنوب ايران الحالي) وضد الدويلات الحاكمة في سورية ، لقد وصل سرغون الأقدم حتى الخليج الفارسي والبحر الأبيض المتوسط ، حيث كما كتب قام بغسل سلاحه •

وكتب الباحث الروسي ب تورايف : « إن هذه الانتصارات المدوخة التي جعلت سرغون حاكماً لدولة عالمية تفسر بتنظيمه الجيد لقواته المسلحة • فقد كان في إمرته مالا يزيد عن ٥٤٠٠ عسكرياً ـ

يومياً عليه إطعامهم ـ أي أنه كان يملك في شخص هؤلاء الجنود جيشاً صغيراً محترفاً (دائمياً) ، مدرباً تدريباً قتاليا عاليا يمكن لـه أن يتحمل عبء تحقيق انتصار الكتائب المجمعة •

ولم تأتِ الانتصارات لسرغون بسهولـة دائماً • فقد شـكل العيلاميون له هموماً وإحراجات كبيرة • حيث كانت الحروب معهم طويلة وشاقة وتكللت بانتصارات متبادلة •

لم يكن هدف ريموش (٢٣١٣ ـ ٢٣٠٥ ق•م) ابن وخليفـة سرغون الأول توسيع مملكة أبيه بل الحفاظ على ما تمت السيطرة عليه • فقد أخمـد ريموش انتفاضات عديدة في سومر وفي الدويلات الواقعة على شواطىء البحر الأبيض المتوسط في آسيا الصغرى •

إلا أن الشيء الأكثر سرطانية له كانت المؤامرة التي دبرتهـا الأوساط العاملة في قصره والتي بات على إثرها ريموش قتيلا • ويعتقد أن المؤامرة قادها أخوه•

وثالث السرغونيين على العرش الأكادي كان مانيشتوسو ٢٣٠٥ ـ ٢٢٩١ ق•م) ، الذي انتفضت ضده (٣٢) مدينة إيرانية ،وسحقت كل هذه الانتفاضات واستولى على أملاك كبيرة • وخلافاً لأسلافه لم يسيطر مانيشتوسو على أعدائه بقـوة السلاح فقط ، بل وبعقد المصالحات واجتذاب شعوب مختلفة الى طرفه •

وبعد موت مانيشتوسو استلم نارامسين (٢٢٩٠ ـ ٢٢٥٤ق•م) حفيد سرغون الأول صولجان ملك أكاد • فقـد بدأ حكمه بتوسيع حدود الدولـة الأكادية على حساب الدويلات في سورية وعيلام والمدن

الواقعة في الجهة الجبلية شمالي أكاد • كما قام بحملات على الجزيرة العربية بهــدف السيطرة على الطرق المؤدية الى الهند والتي سميت آنذاك بالملوحا • فقد جلبوا من هناك الى أكاد التوابل المختلفة والذهب والأصناف الأصلية لأشجار ثمينة وكذلك العاج•

وكان لا بد من ولادة المقاومــة والتصدي لدى الشعوب المنكسرة بسبب سياسة الدول الثانية في احتلال الدول واستعباد الشــعوب الأخرى فقد أخذت هذه الشعوب برص الصفوف فيما بينهــا وبعقد اتحادات سرية وعلنية موجهة ضد الدولة الأكادية • وبالرغم من أن نارامسين تمكن من الانتصار عليهمإلا أن هذه الانتفاضات حضرت التربة لاضعاف البلاد أمام العدو الخارجي • ولكن المواجهة مع أنها لم تكن من نصيب نارامسين بل من نصيب الملك الأكادي الأخير شار غينشاري (٢٢٥٣ ــ ٢٢٣٠ ق•م) •

ومن بين أعداء الدولــة الأكادية كان الكوتيون ــ ورد ذكرهم أعلاه ــ الذين حطموا أكاد في مرحلة حكم السلالــة السرغونية •فقد وردت في النشيد الوطني السومري كلمات تدل على انعدام الرحمةلدى الكوتيين وقساوتهم وشراستهم :

البلاد في أيدي الأعداء القساة

والآلهة أخذت الى الأسر

والسكان بالتهم والضرائبأغرقت

والأقنية والسدود فتحت

ولم يعد نهر دجلــة طريقاً للمواصلات

والأراضي لا تسقى

فالأراضي لا تعطي الحاصلات

ومنذ ذلك الوقت لم تعد هناك دولة أكاد • فقد قطنت تلك البلاد فيما بعد الى جانب الأكاديين المتبقين قبائل العموريين ،الذين سبق وتكلمنا عنهم فهم وباختلاطهم مع الأكاديين انجبوا شعباً جديداً هو البابليين •

---*---

الباب الرابع

سر باب ـ ايلو (بابيلو)

اذا أخذت بائعة النبيذ بدلا من الخبز
كقيمة للبيع فضة أو انها
احتالت على المشتري، فهي محكومة
بالعقاب : يجب رميها في الماء ...
واذا سمح بائع النبيذ للسكارى
الشجار في محله ولم يجلبهم الى مركز حفظ النظام
فهو محكوم بالعقاب ، ويستوجب الحكم بالاعدام .
(مواد من مجموعة قوانين الملك البابلي حمورابي)

بابل هي بوابة الاله

كثيراً ما ترد في المراجع الأدبية والتاريخية وفي المؤلفات الموسيقية لشعوب عدة كلمة « بابل » و « الضلال البابلي » و « برج بابل » و « بلبلة بابل » وغيرها . إن الاهتمام عميق جداً وثابت بتاريخ الدولة البابلية وعاصمتها مدينة بابل ، وكذلك بكيفية ظهورها ولماذا سميت بهذا الاسم ومن عاش هناك ، وهذا ما سيكون مجالا للبحث في هذا الباب من الكتاب .

كما سبق لنا الحديث في الأبواب الأولى عن السومريين . والأكاديين ، نعيد بأنه في نهاية الألف الثالث قبل الميلاد اخترقت حدود بلاد ما بين النهرين قبائل العموريين السامية . فقد قادوا نضالا عنيفاً ضد الأكاديين والسومريين وفي نهاية المطاف انتصروا عليهما .

وفي النتيجة امتزجت هذه الشعوب الثلاثة ببعضها بعضاً وأفرزت شعباً موحداً ذو ثقافة واحدة مبنية على قاعــدة الثقافتين السامية والسومرية . واختار الغزاة العموريون المدينــة السومرية كادينغير (باب الإله) ، والمبنيـــة في القرن الثالث والعشرين قبل الميلاد عاصمة لدولتهم واطلقوا عليها اسم بابل أي « باب إيلا » ومعناها باب الإله، أي كما سماها السومريون في وقت ما . ومن تسمية المدينة أخذت الدولــة البابلية تسميتها وكذلك الشعب البابلي . كما سميت السلالة التي حكمت الدولــة البابلية منذ عام ١٨٩٤ وحتى عام ١٦٩٥ ق.م بالسلالة العموريـــة ، التي أسسها الملك صوموأبوة ومن أشهر حكامها كان الملك حمورابي مؤلف مجموعة القوانين التي دخلت التاريخ باسم « شريعة حمورابي» .

وتقدم مجموعة قوانين حمورابي تصوراً واضحاً عن الوضــع الحقوقي للبابليين وعن العلاقات الاجتماعية ــ الاقتصادية في تلك المرحلة . لقد عثر على هــذه المجموعة القانونية المنقوشة بالأحرف المسمارية على مسلة سوداء من المرمر في المدينة الفارسية القديمة شوزي وذلك في كانون الثاني من عام ١٩٠٢ م بعد تنقيبات قام بها علماء الآثار الفرنسيون كما ترجمت الى الفرنسية في العام ذاته . ففي عهد حمورابي وجد التعامل بالنقد الذي دخلت في أساسه المعادن وخصوصاً الفضة . وكان نظام النقد حينها ستينياً أي : التالانت يساوي ٦٠ ميناً والمينــا تساوي ٦٠ شاقلا والشاقل يساوي ١٨٠ لي .

كما كانت حقوق الاستدانـــة في عهد حمورابي متطورة جدا . فقد كفلت العيرة والديون بوثائق مسجلة على « الرقيمات الفخارية » ومنذ ذلك العهد وضعت على الديون والاستعارات نسبة من الفوائد

ومن لم يكن يلبي دفع ذلك كان يتحمل العقوبات ومصادرة أملاكه •

كذلك أعارت الشريعة هذه اهتماماً كبيرا بالعائلة الخلية الأولية للمجتمع البابلي • لقد كانت العائلة البابلية بشكل رئيسي ذات أم واحدة فقط ومؤلفة من الزوج والزوجة والأطفال • وكان القران الذي يسبقه الزواج يعقد رسمياً كما كان يدفع للخطيبة مهرها وهي تقدم بالمثل العطية ويعقد القران بوجود عقد مسمى مثبت بالتواقيع والأختام وبحضور الشهود • كما وجد عندهم الطلاق أيضاً كانت تسترد العطية للزوجة وحين حصر الإرث كانت البنات تستلمن الجزء الأصغر •

وساد في بابل عصر العبودية ، حيث اعتبر العبد ملكاً خاصاً لصاحبه وعلقت برقبته اشارة الوشم الخاصة بذلك •

ووفقاً لشريعة حمورابي كان الملك يأتي في رأس الدولة ،فهو الذي امتلك السلطة من الرب وهو المالك الأكبر للاراضي ، إلا أنه لم يكن صاحب البلاد فقط ، بل وذلك الانسان المهتم برعيته فهوالذي صان البلاد ورعى الضعفاء والمشردين المعوزين • أما قضايا الخلاف فكانت تحل جميعها في المحاكم ، التي ضمت المشرعين ودعي إليها الشهود الذين كانوا يقدمون القسم (الحلفان) • ونصادف في شريعة حمورابي عقوبات قاسية وحتى أحكاماً بالاعدام فمثلا إذا تسبب الطبيب في تعطيل أي عضو في جسم المريض ، كان يمكن له أن يفقد يده عقاباً على ذلك •

وكان ينفذ الحكم بالاعدام بعدة أشكال إما بقطع الرأس أو بالوأد حياً في التراب أو بالوضع على الخازوق •

وقد تحملت أعباء حفظ النظام والدفاع عن البلاد قوات نظامية،

حيث استلم الجنود مقابل خدمتهم العسكرية أراض زراعية وكمية معينة من النقود • ولم يكن إلا للدولة الحق في مصادرة هذه الأراضي لجرم شائن ارتكبه هذا الجندي • كما كان الملك حمورابي يقوم من وقت لآخر مستغلا مهارة الدبلوماسي والقائد العسكري التي لديه بتشتيت منافسيه في بلاد ما بين النهرين فمنهم من يضعفهم ، وآخرين يحطمهم وغيرهم ينهيهم •

ففي عهد الملك حمورابي ازداد الحكم تسلطاً مما انعكس على كل مجالات الحياة بما في ذلك الايديولوجية والثقافية والدين • ويتضح ذلك جيداً من خلال مجموعة المؤلفات الأدبية بما فيها أسطورة خلق الكون والبشر •

وبودنا هنا أن نعرّف القارىء على هـذه الأسطورة وذلك لسببين اثنين هما : أولا لتبيان كيف أن السلطة الفردية للملك البابلي ترافقت مع السلطة الفردية للآلهة في بابل • وذلك بحافز من حمورابي ذاته كي يثبت بأن السلطة الفرديـة منحت له من الإله العظيم والقدير مردوخ • وثانياً لتوضيح أن أسطورة الخلق أخذها واضعوا التوراة عن البابليين ولذلك لا يمكن اعتبارهـا ذات مصدر إلهي بل هي قصة صاغها الكتبـة التوراتيون • ففي الأسطورة يتصارع الإله البابلي مردوخ ضد الغولة تيامات آلهة الهيولى (الفراغ) • فالغولة تيامات تذكرنا بالتنين الكاسر ، الثعبان ، الحرباء •• الخ •

يدلّ العلماء الى أن العبريين الذين أسروا في عهـد نبوخذنصر الثاني (٦٠٤ ـ ٥٦٢ق•م) نسخوا هناك هذه الأسطورة ، إلا أن واضعي التوراة في ضمهم هذه الأسطورة الى العهد القديم استبدلوا

تسميات أبطالها فمردوخ أصبح يهوا (*) وتيامات أصبحت « ليفيافان (**) ومن خلال التوراة يمكن عن طريق الآشوريين المسيحيين أصبحت هذه الأسطورة معروفة لجميع المسيحيين في العالم. كما استبدل اسم مردوخ بالقديس جرجس وتيامات بالتنين .

فقد اصطدم بمثل هذه الحقيقة العالم الأمريكي إ. كيبرا في حفل ازاحة الستار عن أحد التماثيل في الولايات المتحدة الأمريكية حيث كتب بهذا الصدد : « في الوقت الراهن ينقوض تأثير الدين تدريجياً كلما أعيرت الاكتشافات العلمية أهمية أكبر .

إلا أنه منذ عدة سنوات مضت تم الاتفاق في إحدى الجامعات الأمريكية على زيارة رئيس الجامعة العالم الشهير ووضع تمثال له في باحة الجامعة وهو ما زال على قيد الحياة تمجيداً له. رفعت الستارة عن النصب فإذا بالعالم يدوس بقدمه اليسرى حرباء. لا بأس ، فهل فكر العالم المجيد عما يعني ذلك .؟

لا شك أن ذلك يرمز كيف أن العلم يسحق الجهل ، ولكن هل عرف العالم بأنه يعتبر بذلك المتبني المباشر لإنليل ومردوخ وأشور

(*) يهوا : الاسم القديم لاله اليهود وقد ورد ذكره في العهد القديم . وتمنع اليهودية المؤمنين من لفظ اسمه ويستعيضون عن تسميته باسم ((أدونيا)) اي ((سيدي)) . وتبقى كلمة يهوا حتى الآن غير معروفة المعنى ويعتقد انها من كلمة ((خود)) أي ((موجود)) ، وكان أحد آلهة القبيلة اليهودية وفيما بعد أصبحا الاله الوحيد الجميع البشر وخالق السموات والأرض ـ المترجم .

(**) ليفيافان وهي تسمية يهودية للغول البحري الكبير ـ ـ المترجم ..

ويهوا والقديس جرجس ؟ فلقد نظرت الى النصب وتبادرت الى ذهني مباشرة فكرة من سيكون المصارع الثاني مع التنين ؟ فلو استطعت الاجابة على هذا السؤال لتمكنت من تحديد اتجاه تطور الحضارة في الألف سنة القريبة القادمة » .

ولقد جاء في الأسطورة بأنه في العهود المنسية عندما لم توجد الأرض ولا السماء بعد عندما لم تكن قد انفصلت اليابسة عن المياه ، وعندما لم تظهر في وسط المحيط اللامتناهي المفرق للمكون بعد ولا جزيرة واحدة ، كان يوجد غولان فظيعان هما الأب الأول أبوس والأم الأولى تيامات كما ظهر كذلك في تلك الأزمنة المنسية مومو الكاسر والذي كان عائماً في الهيولى الأبدية .

ففي الثروات العديمة الشكل للعواصف المائية أخذت تتوالد تدريجياً بذور الحياة وتتخذ شكل الالهة ، فظهر لاخمو ولاخامو وأنشار وكيشار وآنو وإنليل وإيا .

لقد حاولت الأمهات الأوائل فصل الجزء الرطب عن الصلب والهواء عن النار وتبيان الطريق للعواصف العديمة الشكل . لم يكن آبوس وتيامات ليرضيا بما تفعله الالهة التي خلقاها . ولم يرغبا بفقدان الهدوء الذي كان لديهم لذلك قررا إبادة كل الالهة . ولتحقيق فكرتهما الشريرة هذه أوكلا ذلك لخادمهما الأمين مومو . لكن الإله الحكيم إيا رأى كل ذلك وقرر الدفاع عن نفسه ، لذلك قذف آبوس بدعوات مميتة ، فقطع جسده الى أجزاء صغيرة نثرها في الفراغ المائي اللامتناهي ، كما أنه اكبل مومو المفترس وأفقده قوته السحرية ، وعلى شفة المحيط الأبدي بنى إيا بيته ودعا الإله الناري أنشار ذو الأربعة عيون والأربعة آذان ليحرس له أملاكه .

وانتاب تيامات غيظ عنيف عندما رأت كيف أن الفوضى حلت محل النظام والعواصف أخذت تنفصل الواحدة عن الأخرى ،فقررت إعدام جميع الالهة ودمج الصلب بالرطب والهواء بالنار مرة ثانية • فخلقت إحدى عشر غولا كاسراً كالثعابين ذات الألسنةالحادة والتنين المجنح ذو الأسنان التي لا ترحم ومخلوقات نصف إنسانونصفعقارب والانسان ـ السمكة وكلاب برية متوحشة • لقد كانت أشلاء هذه الغيلان مملوءة بالسم الى جانب الدم وقد وضعت تيامات فيمقدمتهم كينغو وهو أشرسهم وأقساهم • والتقى الحدثان إذ طمأنته بإعلانها إياه زوجاً لها ووضعت مصير الكون في يديه • وخرج كينغو بلباس ملكي وسيفه بيده على رأس جيش عرمرم من الغيلانولميجرؤ أحد من الآلهة النظر في وجهه •

واجتمعت الآلهة في منزل الإله أنشار وأخذوا يتشاورون ممن منهم سيخرج لمواجهة تيامات وزوجها الجديد كينغو • ولم يوافق لا الإله أنشار ولا آنو الجبار ولا إيا الحكيم على الخروج لمواجهةقوى الفوضى والظلام ، حينها أعلن أصغر الآلهة مردوخ موافقته على مصارعة الأعداء الشرسين لينقذ إخوته الآلهة من الموت • ولكن مقابل ذلك يجب أن يعترفوا به ملكاً عليهم وألا يجادلوه أبداً •

وهكذا راح الآلهة السبع المقرورن لمصير العالم ـ يناقشون ما اقترحه عليهم مردوخ ، وبعد أن أكلوا الخبز الأبيض واحتسوا الخمرة الحلوة فانتشت رؤوسهم وفرحت قلوبهم ودون أي ندم تخلوا عن سلطتهم العليا أملا بالتخلص من الأعداء المرعبين لذلك أعلنوا لمردوخ: « ستصبح ملكاً لنا ، وبسلطتك سيعلو من ستحبه وبها ستخفض من لم يكن مفيداً لك ، ولن يجرؤ أحد على نقض أوامرك وحلولك •فأنقذنا

من تيامات الرهيبة ومن زوجها الكافر لنكون لك خدماً سميعاً طائعاً ونقدم لك الصولجان والتاج والسيادة » •

وبعد أن استلم مردوخ الساطة العليا من أيدي الآلهة لم يتوان في تحقيق ما وعدهم به ، فتسلح بالسيف والرمح وعلق على خصره القوس والنبال وأخذ بيده شبكة كبيرة وقفز الى العربة المجرورة بأربعة أحصنة ذات الأسنان المليئة بالسم •

وقد أحاطت به ثمانية رياح هابّة من مختلف الاتجاهات ، وكان الشرر يقدح من كل حركة تصدر عنه • ما أن رآه كينغو حتى سقط رعباً وافرنقعت غيلانه التي خلقتها تيامات • إلا أن تيامات بذاتها لم تخف منه فاستقبلت مردوخ بضربة غادرة وصدرت عنها اللعنات مرتعدة فرائصها من شدة الكراهية المتوحشة • لم يتلبك مردوخ الشجاع ولم يخفه ذلك فرفع يده ورمى الشبكة المنسوجة بذكاء على تيامات ففغرت الأخيرة فاهها ظانة أنها ستبتعله هو والعربة معاً ، إلا أن مردوخ تراجع برشاقة ودفع بكل ما أوتي به من قوة ثمانية رياح شديدة الى حلقها حيث ملأت جوفها للحال ، فثارت فيها عواصف هوجاء مزقت قلبها وكبدها إرباً إرباً ، فراحت تختنق ولم تستطع أن تنبس ببنت شفة •

واستغل مردوخ الوضع القائم فغرس الرمح في جسمها وداس بقدمه على جسدها الميت الهامد ، ثم استل سيفه وانتزع قلبها أما جثة الغولة الضخمة فقطعها الى نصفين كالسمكة الصفحية ، فحجب بأحدهما المياه العليا ليفصلها عن المياه السفلى مكوناً بذلك الجدار المستمر الفاصل لعالم السماء فاتحاً فيه ثغرات بسدادات ووضع عليها حراسة مشددة يمنع بها هطول الأمطار وسقوط الثلج والبرد على الأرض دون إذن منه •

وصنع مردوخ من النصف الثاني لجثة تيامات الأرض ذات الشكل شبه المستدير ورمى بهـا الى المياه السفلى التي أغرقت مملكة الإله الحكيم إيا • وبإرادة هذا الإله صنعت المفاتيح من ثروات الأرض والمياه المالحـة التي غطت نصف الكرة الأرضية وامتدت الى اليابسة في أماكن عديدة صانعـة بذلك الخلجان والجزر • وبين صفحة السماء وسطح الأرض في الفراغ اللامتناهي والمحرر من الميـاه البدائية هبت وفق إرادة مردوخ رياح هي ذاتها تلك الرياح التي مكنته من تقطيع جثة تيامات الى نصفين • كما زين مردوخ صفحة السماء باثنتي عشرة مجموعـة نجمية كبيرة واهباً كلا منها ألفي سنة من الوجود كما كلف التوائم بالحراسـة فيما بعد ينوب عنهم تيليتس حينذاك يكون أدقين منتظراً دوره •

ودعا الإله مردوخ الالهة سين « القمر » وشامش « الشمس » وقسم اليوم فيما بينهما ، ثم لبس الاله ـ الأب سين تاجاً بابوياً بلون أصفر شاحب وجعله يخرج الى السمـاء لكل ليلة ويضيئها بأشعة سحرية • وكان من الصعب رؤية تاجه خلال سبعة أيام وبعد اسبوع كان نصف التاج مرئي جيداً وفيما بعد النصف الآخر منه وفي نهايـة الشهر التهب التاج كله بأشعة غير مرئية •

وفي كل صباح كان سين يلتجيء الى بيته في السماء وبـدلا عنه يرتفع في الأفق الشرقي الإله ـ الابن شامش ليقود النصف الثاني من اليوم طارداً الظلام ومخيفاً الجن والأرواح الشريرة •

ونظراً لكون سطح الأرض متموجاً وفارغاً في بدايته فقـد أراد له مردوخ فيما بعد أن تنمو عليـه الأعشاب في السهوب كما أنه غرس الغابات على منحدرات الجبـال وقصب الزل في المستنقعات والأحواض

كما نشر مردوخ مختلف أنواع الحيوانــات في الجبال والوديان ،أما جده أنو فقد خلق الحيوانات ذات الريش التي راحت تضع أعشاشاً لهـا على أغصان الشجر والصخور المهجورة وأطلق الإله الحكيم إيا في التيارات البحرية ومجاري الأنهار عدداً هائلا من الأسماك •

وبعد ذلك انتعشت الأرض وامتلأت بصخب الحياة ، ولم يكن كل ذلك ليرضي مردوخ واانتابته فكرة عظيمة ، فقــد أراد أن يخلق كائناً حياً يشبه الآلهة بكيانه وعقلــه • لقد قضى على كينغو الشرس زوج تيامات المهزومــة وخلط دمه بالتراب وعجن منه الأناس الأوائل• إنهم بكل شيء يشبهون الالهة إلا أنهم (أي البشــر) أضعف منهم وفترة حياتهم محدودة ، فعندما يشيخون ما عليهم إلا أن ينزلوا حتى الأزل الى بلاد ما ، دون رجعة ، ويبقون في العالم تحت الأرض المقيت تاركين أولادهم وأحفادهم في خدمــة الآلهة الخالد •

وهكذا عزيزنا القارىء كما ترى أن هــذه الأسطورة تساعدك مرة أخرى للتأكــد من أن فكر الإله الواحد هي من منشــأ بابلي، أما واضعوا التوراة فقد غيروا وفق آرائهم أسماء أبطال هذه الأسطورة البابلية القديمــة التي تعود بدورها الى الأسطورة السومرية عن الإله إنليل والغولة تيامات •

لقــد اتخذ الملك حمورابي إجراءات فعالة لتوحيد بلاد ما بين النهرين في دولة مركزية واحدة ولذلك استخدم كل إمكانياته بما فيها قوته العسكرية منطلقاً من مبدأ « فرق تســد » • ونتيجة لهذه السياسة أصبحت بعض الدول المنفردة التي لم تقبل الدخول في اتحادات مع غيرها فريســة لسياسة حمورابي الاحتلالية • فأخذ يحتل دويلــة بعد أخرى مثل إيسين ،أوروك ،أور وغيرها • وكانت أطول حروب حمورابي

هي حربه ضد دولة عيلام • ولم يستطع حمورابي القضاء على ملك عيلام إلا في السنة الواحدة والثلاثين من حكمه وبعد ذلك أخضع كل جنوب بلاد ما بين النهرين الى الدولة البابلية •

وقد استند حمورابي في كل هذه الفترة الزمنية الى مساعدة دولة ماري ، الواقعة الى الجنوب الشرقي في سورية الحالية • وبعد تحطيم خصومه (العيلاميين) أخذ حمورابي بالقضاء على الدولة الحليفة ماري وضمها الى بابل •

ولمس سامسويلونا ابن حمورابي « ١٧٤٩ ــ ١٧١٢ ق•م » بعد استلامه السلطة مباشرة إثر وفاة أبيه حقد أعداء حمورابي القدامى وفي مقدمتهم الملك العيلامي ريميسين •

لقد انتظر ريميسين المهزوم في عيلام ضربات قوات حمورابي طيلة هذه السنين تلك الساعة التي يموت فيها حمورابي وقد أتته فجمع قواته ثانية وشن الهجوم على بابل واحتل جزءها الجنوبي •

وبعد صراع عنيف تمكن سامسويلونا من طرد الغزاة ، ولكن البابليين لم تبق لديهم قوة كافية لصد غزوات أخرى • وفي هذه المرة أعداء البابليين كان الحيثون (١٥٩٥ ــ ١٥١٨ ق•م) وكذلك القبائل الكاسية (وهم قبائل جبلية ايرانية) •

واستمر الصراع بين البابليين والكاسيين قرابة مئة وخمسة وخمسين سنة وانتهت باتتصار الكاسيين الذين راحوا يحكمون بابل•

واتبع ملكهم أغوما الأول (١٥٩٣ ــ ١٥٧٤ ق•م) وأتباعه من بعده سياسة الملوك البابليين الاحتلالية واخضع لحكمه مجموعة من الدول والشعوب •

وحكمت السلالة الكاسية في بابل قرابة ــ ٥٠٠ سنة وخلال هذه

الفترة اتخذوا لغـة ودين وعادات وتقاليد وثقافة البابليين لنفسهم وامتزجوا بهم كلياً .

لقد جلبت مرحلـة الخمسمائة سنة من حكم الكاسيين التأخر السياسي والتراجع الحضاري للبابليين . لقـد كانت الخسارة كبيرة لدرجة أن بابل بقيت حتى بعـد سقوط هذه السلالة سنين طويلة في المقام الثاني لبلاد ما بين النهرين .

وفي القرنين الثالث عشر والثاني عشر قبل الميلاد تنضوي بابل تحت لواء الأملاك الآشورية ومذ عام ٧٣٢ ق.م أصبحت إحـدى مقاطعاتها .

ولم يكن للبابليين أن يستكينوا لمثل هذه القسمة ، لذا فقد انتفضوا غير مرة والسـلاح في أيديهم ، إلا أن الجيش الآشوري دمر بابل وأغرقها أخيراً سنة ٦٨٩ ق.م بالمياه .

وبعد مضي تسـع سنوات . أمر أسرحدون ابن الملك سنحاريب (الذي دمر بابل) بإعادة بنـاء المدينة . وحكم الملوك الآشوريون في بابل حتى عام ٦٢٦ ق.م .إذ انه في هذه السنة بدأ نابو بالاصار الحاكم الآشوري لبابل العصيان ضـد أشور بعد عقده تحالفاً مع ميديا الواقعة في الجزء الشمالي الشرقي من إيران الحالية .

واستمرت الحرب ضد بلاد أشور حتى سنة ٦٠٥ ق.م .وانتهت بانتصار الحليفين ، فقـد دمرا أشور واقتسما البلاد فيما بينهما .

وتابع ابن نابو بالاصار ، المعروف في التاريخ بالملك نابوخذنصار الثاني (٦٠٤ ــ ٥٦٢ ق.م) سياسـة أبيه الاحتلالية واحتل سورية والدولـة اليهودية وفينيقيا ودولا أخرى . وفي مرحلـة حكم أحفاد نابوخذنصار اعتلى الحكم الفارسـي الملك كير الثاني الذي تهيأ جيداً

للحرب ضد البابليين ، فدرس التجربة الحربيـــة لديهم ورصد منظومة وسائل الدفاع في المدن البابليـــة • وفي عام ٥٣٩ ق•م جرت معركة بين القوات الفارسية والقوات البابلية الى الشرق من بلاد مابين النهرين ومدينة أوبيس الواقعة في المكان الذي يلتقي فيه الآن نهر ديالا بدجلة•

وبدأت القوات الفارسية بعـــد أن حطمت البابليين هجوماً على عاصمتهم واخترقوها من إحدى بواباتها وسقطت بابل •

تلك هي إحدى الفرضيات عن احتلال بابل ، أما الفرضية الثانية فتقول بأن الفرس لم يتمكنوا من أخذها فلجؤوا لجرمياه الفـرات التي قسمت المدينة الى قسمين واخترقوها من خلال المجرى المفرغ من الماء• وفي أثناء القتال استشهد والتصار ابن ملك بابل أما الملك نابوبيد فوقع في الأسر •

وفي عام ٣٣١ ق•م • احتل الكسندر المقدوني بابل وحولها الى عاصمة لامبراطوريته الكبرى • وفيما بعد ابتداءاً من عام ٣١٢ ق•م• راح أحد الدقق « ممثل القائد العســكري الكسندر المقــدوني » والمعروف باسم سيليفك بنقل الجـزء الأكبر من سكان بابل واسكنهم العاصمة الجديدة سيليفكيا (العاصمة الجديدة للسيليفكيين) • ومنذ ذلك الوقت أخذت مدينة بابل تنهار شيئاً فشيئاً وغادرهـا السكان حاملين معهم كل ما بامكانهم حمله حتى حجر البنـاء لاشادة مساكن جديدة • واستمرت الحياة حتى القرن الأول والثاني الميلاديين ومنذ ذلك التاريخ لم يبق أحد فيها •

وطوى النسيان تدريجياً موقع مدينة بابل • فقط وبعد بحث طويل الأمد نجح المنقبون الأثريون بالعثور عليــه ، هناك حيث كانت

مدينة بابل موجودة الى زمن جداً قريب حيث شيدت في هذا المكان بعض القرى • فاذا وقفنا وظهرنا باتجاه بغداد الحالي ووجهنا نحو البصرة الموجودة في جنوب البلاد يمكن رؤية مجموعة من التلال على الضفة اليسرى للفرات • إن أول هذه التلال من الشمال يحمل اسم بابل فقد ضم قصر نبوخذنصار (وحدائق سمير أميد المعلقة) والى الجنوب من هذا التل يوجد تل باسم عربي جميل هو القصر ذلك التل الذي ضم في داخله قصور الملوك البابليين الآخرين •

وإلى الجنوب من تل القصر يوجد تل عمران حيث اكتشف الباحثون فيه معبد إيساغيلو (البيت العالي) الذي شيد على شرف مردوخ الإله الأكبر في بابل ، وكذلك برج بابل (المبنى ذو الطوابق السبع) والمسمى إيتمن عنكي (أي بيت تأسيس السماء والأرض)•

وقد بني معبد إيساغيلو في البداية في النصف الثاني من الألف الثالث قبل الميلاد إبان حكم الملك زابومي أحد الملوك البابليين • وأحيط المعبد وأبنية اخرى بجدران حصينة تحمل اسم إيمغوربيل وناميتي بيل • ومن هنا مرت طريق الى الجنوب نحو مدينة بارصيبا واقتربت من معبد هذه المدينة إيزيدا « بيت الأبدية » وقد كرس هذا المعبد لابن الإله مردوخ نابو راعي الفن والعلم • والآن يحمل هذا التل اسم بيرزغرود •

وقبالة تل عمران على الضفة الغربية لنهر الفرات كان يقع قصر ملكي آخر • وفيه بالضبط كما تروي المراجع التاريخية توفي الكسندر المقدوني • ولحماية القصر ضرب البناؤون حوله جدار حصين • وكانت تمر من خلال مدينة بابل عدة أقنية للري ومياه الشرب وأكبرها كانت قناة أراختو حيث كانت تقطع المدينة من الشمال الى الجنوب

وكانت طريقاً للنقل النهري واستعملت بكثافة إبان إشادة المدينة الجديدة إذ عن طريقها تم نقل الآلهة الرئيسة بالسفن •

لقد كانت بابل مدينـــة كبيرة فعلا حتى لعصرنا الحاضر ، وقد بينت التنقيبات الأثرية بأنـــه في القرنين السابع والسادس قبل الميلاد أي في زمن حكم نبوخذنصار كانت مساحة المدينة تصل الى عشر كيلو مترات مربعة • وقد أحاطت بهـــا ثلاثة جدران منيعة : الأول عرضه سبعة أمتار والثاني عرضه ٧ر٨متراً والثالث وهو أضيقها وعرضه ٣ر٣ متراً • كما كان للمدينة مئة بوابة و ٢٥٠ برجاً للحراسة ، ولم يكن ذلك كاف لتأمين دفـــاع متين ولأجل تقوية الدفاع تم بناء سور في شمال العاصمة وسمي (الجدار الميدي)، أما حول المدينة فقد حفرت قناة عميقة وملئت بالمياه •

هيرودوت ((شيخ التاريخ)) عن بابل والبابليين

إن ما نعرفه عن بابل والبابليين الآن هو حصيلة ما تجمع لدينا من مصدرين اثنين ،أولهما : الرقيمات الفخارية المسمارية ، وثانيهما : اخباريات العلماء الاغريق القدامى وفي مقدمتهم وصف « شيخ التاريخ» هيرودوت •

فإذا كانت المعطيات الأوليـــة معروفة جداً ، فإن إخباريات هيرودوت ــ شاهد العيان ، الذي زار بابل ــ هي غير معروفة للقراء عموماً • كما أن معلومات هذا الفيلسوف هامـــة جداً وموضوعية غير منحازة ودقيقة ــ لذلك نقدم للقراء مقتطفات من كتاب هيرودوت ليتعرفوا عليه ،إذ اننا أهملنا منـــه أجزاء قليلة فقط تلك التي لاتتطرق للتاريخ البابلي لا من قريب ولا من بعيد •

لقد كتب هيرودوت يقول : « بأن البابليين قطنوا سهلا واسعاً

مربع الشكل طول ضلعه ١٢٠ ستادي (*) لم تكن مدينة بابل أكبر المدن التي عرفتها في بلاد ما بين النهرين فحسب بل وكانت أجملها على الاطلاق • قبل كل شيء كانت المدينة محاطة بحفرة عميقة واسعة ومملوءة بالماء ، ثم يليها سور عرضه ٥٠ منكباً ملكياً (**) وارتفاعه ٢٠٠ منكباً • والمنكب الملكي أكبر بثلاثة أصابع من المنكب العادي•

وهنا يجب أن أتحدث عن التراب الذي رفع من الحفرة ، ماذا حل به ؟ وعن كيفية إشادة السور بمجرد البدء بالحفر كان التراب المنزوع من الحفرة يجبل وتصنع منه القوالب (البلوك) • لقد كانوا يحضرون كميات كبيرة من هذه القوالب المجففة بشيها في أفران خاصة • وكان البناؤون يستعملون الاسفلت المسخن في بنائها على بعض كما كانوا يضعون حصيرة (*) من الخيزران بعد كل ثلاثين صفاً من الطوب المشوي • وقبل كل شيء كانوا بهذا الشكل يدعمون حافة الحفرة وفيما بعد السور ذاته • وفي أعلى السور على الأطراف أشادوا الشرفات وهي أبراج ذات طابق واحد يقف كل منها مقابل آخر وفيما بين الأبراج بقيت مسافة تتسع لمرور أربعة خيول معاً • وكان لهذا السور مئة بوابة جميعها مصنوعة من النحاس (بما في ذلك قطع الاغلاق والارتاج) • كما توجد هناك مدينة أخرى تبعد عن بابل مسافة ثمانية أيام سيرا على الأقدام وتدعى إيس (عيس) حيث يمر بها نهر صغير بالاسم نفسه إيس ويصب هذا النهر في الفرات •تلكم

(*) كل واحد ستادي يساوي ١٥٠ - ١٩٠ مترا - المترجم •
(**) كل منكب ملكي يساوي نصف متر - المترجم
(*) شبيهة بما يعرف بالسياج حاليا - المترجم •

هو نهر عيس الذي يجرف بمياهه كدر الاسفلت • ومن هنا كان يجر الاسفلت لبناء سور مدينة بابل •

وبهذه الصورة تمت إشادة جميع أسوار بابل • والمدينة بحد ذاتها كانت تتألف من قسمين ، يمر من خلالها نهر يدعى الفرات الذي ينبع من أرمينيا • انه نهر كبير وعميق وسريع الجريان يصب في البحر « الأحمر » (**) • ومن جانبي النهر كانت السور المائلة تصل لحد النهر تماماً ثم يسير على طول الضفتين جدار مبني من الطوب المشوي • أما المدينة ذاتها فكانت مؤلفة من بيوت ذات ثلاثة وأربعة طوابق مجمعة الى بعضها بعضاً تتقاطع فيها شوارع مستقيمة ممتدة بشكل مواز وعمودي على مجرى النهر • وفتح في الجدار المحاذي للنهر بوابات صغيرة بعدد الشوارع العمودية بالنسبة لمسار النهر • كذلك كانت هذه البوابات الصغيرة مصنوعة من النحاس أيضاً وكانت تؤدي الى النهر مباشرة • لقد كان السور الخارجي للمدينة يعتبر بمثابة الدرع الحصين لها • أما السور الثاني فكان يمر من داخل الأول وعلى ارتفاعه أقل منه قليلا ولكنه أضيق منه • وقد شيدت الأبنية في وسط كل قسم من أقسام المدينة • ففي أحد الأقسام كان قد شيّد القصر الملكي المحاط بسور ضخم وحصين ، أما في قسم آخر فكان معبد زفيس بيل المقدس ذو البوابة النحاسية التي ما زالت موجودة حتى أيامنا هذه • وكا نقسم المعبد المقدس على شكل مربع طول ضلعه أكثر من ٢ ستادي وفي وسط هذه القطعة المقدسة بني برج عال وضخم إلا

(**) كما جاء في النص الأصلي لهيرودوت ـ المترجم ـ •

أنني أنقل ما كلمني عنه الكلدانيون بذاتهم ، بشغف كان يتمنى داري ابن غيستصبا الحصول على ذلك النصب ، إلا أنه لم يجرؤ على خطفه إطلاقاً • ولكن ابنه كسيركس استطاع خطفه بعد أن أمر بالموت على الكاهن الذي لم يسمح لأحد مس النصب ونقله من مكانه •هكذا كان هذا المعبد مزداناً بالفأس الثمينة وكذلك القسم المقدس من المدينة حيث يوجد الكثير من الهدايا المقدسة المقدمة من شخصيات بارزة•

لقد غيرت الملكة نيتوكريس حاكمة بلاد بابل اتجاه نهر الفرات الذي جرى سابقاً من خلال وسط المدينة ، حيث أنها أمرت بحفر قناة تمر من أعالي المدينة وهكذا أصبح النهر متعرج لدرجة أنه مثلاكان يمر باحدى الضواحي في بلاد أشور ثلاث مرات (وتسمى الضاحية التي يمر بها الفرات ثلاث مرات باسم ــ أردريكا) • ولا يزال على المرء حتى الآن عند القيام برحلة من البحر السفلي الى بابل نحو الأسفل باتجاه جريان نهر الفرات المرور بمحاذاة هذه الضاحية ثلاث مرات خلال ثلاثة أيام • لقد كان هذا العمل أحد مآثر نيتوكريس وفيما بعد تم بأمر منها ردم سد على ضفتي النهر مدهش الضخامة والارتفاع وبعد ذلك أعطت أمراً بحفر بحيرة بنفس العمق في أعالي مدينة بابل لتجميع المياه الجوفية على مقربة من النهر ، لقد بلغ قطر هذا المجمع المائي ٤٢٠ ستادي • وأمرت الملكة باستعمال نواتج حفر البحيرة في ردم السد على النهر • وعندما أصبح الحوض جاهزاً أمرت بجلب الحجارة وإكساء حوافه • وهكذا قامت هذه الملكة بكلا العملين ــ جعلت النهر متعرجاً كثيرا وحولت كل الأماكن المحفورة الى مجمعات مائية ــ ليس لأن كثرة التعرجات تجعل النهر أكثر بطئاً في جريانه فحسب بل وكذلك لجعل الطريق النهري الى بابل

متعرجاً ، وأخيراً لاجبار الرحالة بعد إبحارهم في النهر على القيام بالتفاف حول البحيرة عن طريق البر .

لقد تم تنفيـذ هذه الأعمال في ذلك الجزء من البلادالذي تمر منه أكثر الممرات وأقصر الطرق من ميديا . إن الهـدف من هذه الاجراءات هو خلق الصعوبات أمام الميديين في دخولهم البلاد عن طريق العلاقات التجارية وعدم السماح لهم باستيضاح حال الأمور في البلاد بدقة .

لقد بنت الملكة هذه المنشآت (في وجه الميديين) من التربة المحفورة من المجمع المائي . بالاضافة لذلك فإنها استفادت من هذه الأعمال لأغراض استثنائية أخرى . لقد كانت المدينة مكونة من نصفين يعبرهما النهـر . ففي عهـد الملوك السابقين كـان مـن أجـل الانتقال في المدينـة مـن قسـم لآخر يتـم بواسطـة المراكـب والسفن ولم يكن ذلك على ماأظن سهلا . لقد اهتمت نيتوكريس بذلك أيضاً وهاكم ما تركته للذكرى أيضاً بعد أن تم حفر المجمع المـائي للبحيرة ، فقد أمرت بقطع صخور كبيرة ، وبعـد تحضير هذه الصخور أمرت نيتوكريس بتحويل مجرى النهر كلياً الى المجمع ومع امتلاء البحيرة كان المجرى القديم للنهر يجف تدريجياً ، بعـد ذلك أعطت نيتوكريس أوامرها بتحصين ضفتي النهر على طول محور المدينة ، وكذلك المجاري المفتوحـة من بوابات السور الى النهر وإكساء ذلك بالطوب المشوي بذات الطريقة التي شيدت بها أسوار المدينة وبعد ذلك وفي وسط المدينة تقريباً أمرت ببناء جسر من الصخور المقطعة (وقد تم ربط هـذه الصخور ببعضها بواسطة أحزمة من الحديد والتوتياء) وكانوا في النهار يفرشون الجسر بألواح مربعة الشكل حيث

يمر البابليون عليها ليعبروا النهر وفي الليل كانوا يرفعونها ليقللوا من حركة المارة كي تخف أعمال الشغب والسرقة • وبعد أن تم بناء الجسر وامتلأت البحيرة بالماء أصدرت الملكة أوامرها بإعادة الفرات من البحيرة الى مجراه القديم • وهكذا تحولت البحيرة الى مجمع مائي بالشكل الذي أريد له ، وتم بناء الجسر لسكان المدينة •

كما أمرت الملكة ببناء مدفن لها فوق البوابات في أكثر مناطق المدينة ازدحاماً بالسكان • (وكان يقع المدفن فوق البوابات تماماً) وحفرت عليه الكتابة التالية : « اذا رأى أي من الملوك البابليين الذين يأتوا من بعدي أنه بحاجة الى النقود فليفتح هذا المدفن وليأخذ من النقود قدر مايشاء • ولكن ألا يفتحه عبثاً دون حاجة اليها والأفضل من هذا وذاك ألا يفتح المدفن إطلاقاً » •

وبقي هذا المدفن دون مساس الى أن انتقلت السلطة الملكية الى يدي داري « داريوس » الذي فتح المدفن لكنه لم يلق أية نقود هنالك فقد شاهد جثة الميت فقط وكتابة تقول : « لو لم تكن لهذه الدرجة من البخل لما فتحت مدفن المـوتى » • تلكم مايتحدثون به عن هذه الملكة •

واقد شن « كير كورش » الحرب ضد ابن هذه المرأة « وكان يدعى مثل أبيه لابينيتون وكان ملكاً لآشور) وفي كل مرة يخرج فيها الملك المعظم الى الحملات كان يجلب معه من البيت زاده من الخبـز ولحم الضان وكذلك ماء من نهر خواسب النابع من مدينة سوس (النهر الوحيـد الذي كان الملك يشرب من مياهه) فقد كانت تلحق بالملك دائماً أينما توجـه مجموعة من العربات ذات الأربعة عجلات والمشدودة الى البغال محملة بالمياه المغلية من نهر خواسـب في أوان فضيـة •

وعندما تحرك كير نحو بابل وحين وصوله نهر غيند الذي ينبع من جبال الماتنين ويصب في نهر دجلة أراد كير أن يعبر هذا النهر (غيند) المستعمل في الملاحة النهرية • ومن العجالة في الأمر قفز أحد خيوله المقدسة البيضاء الى النهر ليعبره ،إلا أن مياهه ابتلعت هذا الفرس وأخذته في مجراها بعيداً ، حينها غضب كير على وقاحة هذا النهر غضباً شديداً وقطع على نفسه عهداً بأن يجعله صغيرا لدرجة ان النساء ستتمكن من عبوره دون أن تبتل ركبهن • وتتجة لذلك الخطر المحدق أجل كير مؤقتاً حملته على بابل • فنشر قواته على ضفاف النهر بعد أن قسمها الى قسمين وطلب من جنوده تحديد مواقع ١٨٠ قناة مستقيمة كالسهم وبكافة الاتجاهات على كلا الطرفين ومؤدية الى النهر ، ثم وزع الجنود وأمر بالحفر • وبتوفر اليد العاملة الكثيرة العدد تم انجاز ذلك العمل بسرعة ومع هذا استمر العمل طوال الصيف كله وبذلك قهر كير نهر غيند مقسماً إياه الى ٣٦٠ قناة •

وعندما حل الربيع ثانية قام الملك بحملته على بابل من جديد خرج البابليون من المدينة بقواتهم وانتظروا كير • وحينما اقترب الملك من المدينة انقض البابليون عليهم ودارت بينهم معركة طاحنة ، اندحر على إثرها البابليون والتجؤوا الى المدينة • لقد كان البابليون يعلمون قبل ذلك بوقت كاف بأن كير الآن لن يقف مكتوف الأيدي : لقد رأوا بأن هذا الملك الفارسي يحارب شعباً بعد الآخر ، لذلك تمونوا بالمواد الغذائية بكميات كبيرة تكفيهم لسنوات عديدة ولم يعيروا الانتباه لأي نوع من الحصار • وفي هذه الأثناء تبين كير ان الأمر في وضع صعب جداً ، إذ أنه قد مرت فترة طويلة من الزمن ولم

يجد الحصار أي نفع ، حينها قرر كير وضع قسم من قواته في ذلك المكان الذي يدخل النهر من خلاله الى المدينة ، أما القسم الآخر فوضعه في أسفل المجرى عند مخرج النهر من المدينة ثم أصدر أوامره الى الجنود : بأنه عندما يروا بأن المياه قد قلت واصبح خوضها ممكناً يجب أن يمشوا مع المجرى الى أن يدخلوا المدينة أما هو فتراجع مع قسم من القوات غير النظامية (المنسقة) وحين وصوله الى المجمع المائي الآنف الذكر عمل بالنهر تقريباً ماقامت بـه الملكة البابلية في حينها، لقد حول مجرى النهر بواسطة القناة المحفورة سابقاً الى البحيرة كانت هى المجمع المائي وبهذه الصورة أصبح المجرى القديم للنهر ممكن الخوض • وبعد أن انخفض مستوى المياه في النهر كثيراً إذ أنها لم تصل الركبة دخل الفرس الى بابل عن طريق هذا المجرى •

لو أن البابليين علموا سلفاً بحيل كير أو أنهم لاحظوا أفعاله في حينها ، طبعاً لما سمحوا للفرس بالاختراق الى المدينة فحسب ، بل أبادوا حتماً العدو بشكل كامل •• إذ انه كان بمقدورهم إغلاق كل البوابات المؤدية الى مجرى النهر وبمحاصرة الفرس من جانبي النهر كان يمكن إيقاعهم في الشرك حتماً • إلا ان الفرس في هذه الأثناء كانوا قد هاجموا بابل فجأة • لقد كانت مدينة بابل كبيرة جداً بحيث أن سكانها المحليين الساكنين في مركز المدينة لم يعلموا بأن العدو قد احتل ضواحي مدينتهم • في تلك الأثناء وبمناسبة العيد كانوا يرقصون ويمرحون الى أن علموا بوضعهم المزري وهكذا تم الاستيلاء للمرة الأولى على بابل •

كم هي غنية بلاد بابل ، أستطيع تبيان ذلك بوضوح من خلال أمثلة متعددة ولكنني سأكتفي بالمثال الآتي • لقد كانت البلاد الواقعة

تحت سلطة الملك كير بأكملها بالاضافة لعادة الهبة ملزمة بإعالة الملك وقواته .

لقد كانت الوكالة التي سماها الفرس بالطغيان من أغنى المهن في بابل على الاطلاق فقد كان الوكيل (★) الذي قدم له الملك هذا المجال في الادارة يجمع كل يوم كثيراً من الفضة . كان يربي عدداً كبيراً من الكلاب الهنديـة الأصل والتي خصص لاطعامها أربع مجمعات سكانية تعيش في السهل حيث كانت تعفى على إثر ذلك من بقية الأعمال. هكذا كان سلطان بلاد بابل ثرياً جداً .

لقد كانت بلاد بابل مجزأة بالأقنية كلها . وكانت أكبر هـذه الأقنية تستعمل في الملاحة باتجاه جنوب غرب البلاد إذ كانت تجري من نهر الفرات وتصب في نهر دجلة الذي تربعت عليه مدينة نين .وعلى علمي أن هذه الأرض تنتج من بين كل بلدان المعمـورة أطيب ثمار الديمترا (★) (آلهة الخصوبة) ، وعلى العكس من ذلك الأشجار المثمرة حيث أنها لا تنمو هناك إطلاقاً ، لا أشجار التين ولا الكرز ولا ينمو حتى الزيتون . أما ثمار الديمترا فإن الأرض تنتجها بغزارة عالية فالمحصول يصل الى مائتي ضعف وفي السنوات الجيـدة الى ثلاثمائة ضعف أما أوراق القمح والشعير فيصل عرضها الى أربع أصابع لعرض أربع أصابع وكذلك يصل ارتفاع السمسم الى الأشجار العالية ، كل ذلك أعرفه جيداً لكنني لن أتحدث عنه .

أنا أعلم كم سيكون حديثي عن محاصيل الحبوب مدهشاً للذين

(★) ما يقابل رجل البوليس حالياً ــ المترجم

(★) صنف من البطيخ يتميز بنكهـة خاصة وحلاوة زائدة ــ المترجم

لم يكونوا مرة ما في بابل ، إن البابليين لا يستعملون أبداً زيت الزيتون فهم يستعملون زيت السمسم فقط . تنمو أشجار النخيل هناك في كل مكان من السهول وهي في غالبيتها مثمرة كما كانوا يصنعون من القمح الرومي الخبز والخمر والدبس . ويزرع البابليون النخيل بنفس الطريقة التي يزرعون بها أشجار التين .

أما لباس البابليين فإليكم كيف يرتدي البابلي على جسده جلباباً من الكتان يصل حتى قدميه وفوقه آخر من الصوف ثم يرمي فوقه رداءاً أبيضاً رقيقاً . أما حذاءه فكان يشبه نعلا بيوتياً . كان البابليون يعقدون رباطاً على رؤوسهم ذوات الشعر المترسل الطويل ، ويدهنون كل جسمهم بالراتنج ، كما كان كل بابلي يلبس خاتماً ويحمل بيده عكازاً مصنوعاً بشكل فني حفر عليه شكل تفاحة أو وردة أو نسراً أو ما شابه ذلك وكان من غير الدارج حمل عكازاً غير محفورة عليه صورة ما .

هكذا كان الشكل الخارجي للبابليين أما عن العادات والتقاليد فإليكم ما سأرويه الآن .

وأكثر العادات عقلانية لديهم ــ وعلى حد علمي وجدت لدى شعوب أخرى ــ هي العادة التالية : في يوم محدد من أيام السنة كانوا يقومون في كل قرية بما يلي : يدعون كل الفتيات اللواتي بلغن سن الزواج يجمعونهن في ساحة واحدة ثم يحطن بهن الشبان ويأخذ المنادي بعرض كل فتاة أولا أجمل الفتيات على الاطلاق يبدأ بأجملهن ، إذ كانت تعرض أولا أجمل الفتيات على الاطلاق وعندما يتم بيعها بنقود كثيرة يأتي دور من تليها بالجمال (كانت الفتيات تزف للزواج بيعاً) ، فكان الشبان البابليون الأغنياء يرفعون

بالمزاد ثمن الفتيات كثيرا ليحصلوا على أجملهن ، أما الشبان المنحدرون من عامة الشعب الذين لم يتمنوا الجمال بشيء فكانوا يحصلون على الفتيات غير الجميلات بالاضافة لدفع النقود . وبعد أن يتم بيع الجميلات يأمر المنادي بعرض الفتات عديمة الجمال بأقل ثمن للزواج . وهكذا لم يكن للمرء أن يزوج ابنته كيفما شاء كما لم يسمح بأخذ الفتاة الى بيت الزوجية دون وجود كفيل ، وفقط عندما كان الكفيل يقرر أن الشاب شاري الفتاة يرغب بالعيش معها فعلا حينذاك كان يسمح له باصطحابها الى بيت الزوجية . وعندما كان لا يتم الاتفاق بين الشاب والفتاة كانت النقود ترد الى أصحابها قانونا . خلاصة القول كان الشبان يفدون من القرى المجاورة لشراء زوجات لهم .

كان البابليون يكفنون موتاهم بالنحاس أما مراسيم الدفن لديهم فكانت واحدة كما هي لدى المصريين القدماء .

أما أقبح العادات لدى البابليين فكانت أنه لكل امرأة بابلية الحق بأن تجلس مرة واحدة في حياتها في معبد أفروديت وتقدم جسدها مقابل النقود لكل غريب عابر . وكثير من النساء اللواتي يفتخرن بغناهن لكن يعتبرن من غير المناسب لهن الاختلاط بجموع النساء الأخريات ،فكن يأتين في عربات مغلقة يرافقهن جمع من الخدم وتنزلن بمحاذاة المعبد . أما غالبية النساء كانت تتصرف كما يلي : مجاميع من النساء تجلس في ساحة معبد أفروديت حيث كن يربطن الأشرطة على رؤوسهن ، بعضهن يدخل وبعضهن يخرج ، وكانت الأروقة المستقيمة والموزعة باتجاهات مختلفة تفصل تجمع النساء المنتظرات كما كان العابرون يسيرون في هذه الأروقة ليختار كل منهم لنفسه امرأة ما .

وكانت المرأة الجالسة في المعبد لا تستطيع العودة الى البيت مالم يرم أحد العابرين لها بقطعة من النقود الى طرف ثوبها ثم يتصل بها خلف أروقة المعبد المقدس . وعندما يرمي لها النقود كان عليه أن يقول لها : « أدعوك الى خدمة الآلهة ميلليت » إذ كان الآشوريون يطلقون اسم ميلليت على الآلهة أفردويت . وكان الدفع يمكن أن يتم بأقل النقود ولم يكن يسمح للنساء برفضها حيث أن هذه النقود كانت مقدسة وعلى المرأة أن تلحق بمن رمى لها بالنقود دون أي تذمر ... وبعد الانتهاء من تقديم الواجب المقدس للالهة كان يمكن لها أن تذهب الى البيت . فالجميلات والرشيقات منهن كن يخرجن إلى البيت بسرعة وغير الجميلات ، ينتظرن طويلا حتى يتمكن من تنفيذ هذه العادة ، أما الأخريات فكن يبقين في المعبد ثلاث الى أربع سنوات .

هكذا كانت العادات لدى البابليين . بين هؤلاء البابليين يوجد ثلاث قبائل تتغذى على السمك حصراً . كانوا يقددون السمك المصطاد ثم يضعونه في حجر الرحى ويطحنونه بالمدق بعد ذلك ينخلونه على منخل من الشاش ويخلطونه بالعجين المحضر مسبقاً ثم يخبزونه » .

ويكتب هيرودوت فيما بعد بأن : « البابليين وبقية بلاد أشور كانو يدفعون ألف طالانتاً من الفضة لشراء خمسمئة فتى مخصياً .

ففي أثناء حملة الاسطول الفارسي على جزيرة ساموس قام البابليون بانتفاضة محكمة التنظيم إبان حكم المجوسي ومؤامرة السبعة وطوال هذه الفترة المعتمة كان البابليون يتحضرون للحصار وقاموا بعد ذلك كما أعتقد سراً .

وعند العلم بالانتفاضة زج الملك الفارسي بكل قواته ضد البابليين ، وعند اقترابه من مدينة بابل لجأ الملك الى فرض الحصار عليها • أما البابليون فلم يقلقهم الحصار أبداً ، فكانوا يقفون على أسنان السور ويصرخون هازئين متصنعين بكلمات مهينة للملك الفارسي وقواته ، أحدهم قال : أيها الفرس لماذا أنتم جالسين هنا دون أي عمل ، عاطلين باطلين ؟ انقلعوا الى بيوتكم • لن تأخذوا مدينتنا إلا عندما يضع النغل مهراً » هكذا نادى أحد البابليين بكل ثقة لأن النغل لا يضع مهراً أبداً •

لقد مر على ذلك عام كامل وسبعة شهور وضجر الملك داري (داريوس) الذي جاء بعد كير (كورش) وكذلك قواته من عدم تمكنه من احتلال بابل بالرغم من استخدامهم لكافة أشكال المكر

وبالمناسبة هذه لجأ الملك الى الحيلة ، التي كاد كير أن يحتل بابل إلا أن البابليين قاموا بحراسة يقظة دائمة ولم يستطيع الملك من خداعهم • وأخيراً ، وفي الشهر العشرين من الحصار لاحت لزوبير — وهو أحد القادة العسكريين لدى داري — فكرة مدهشة • لقد وضعت إحدى نغاله مهراً وعندما أعلموا زوبير بذلك ، لم يكن ليرغب بتصديق النبأ ، ولما رأى المهر بأم عينه ، منع كل الذين رأوه من التكلم عن ذلك وأخذ يفكر بخدعة ما • لقد كان يفكر بما قاله البابلي منذ الأيام الأولى للحصار ، بأن احتلال المدينة سيتم فقط عندما يضع النغل مهراً • وفكر زوبير بأنه الآن بالضبط حان الوقت وفق هذا التنبؤ أن تقع مدينة بابل : إذ أن البابلي قد نطق بنبوءته هذه بايحاء إلهي وكذلك عنده أيضاً « بارادة إلهية » وضع النغل مهرا • وهكذا

قرر زوبير بأن بابل من الآن فصاعداً مهددة بالدمار • فذهب الى داري وسأله هل هو من الأهمية احتلال بابل وعندما أكد له داري أهمية ذلك راح زوبير يفكر كيف له تحقيق هذه المأثرة وتسليم المدينة الى يــدي داري ، إذ أن الفرس يمجدون قبل كل شيء مثل هذه المآثر الشجاعة • لقد اقتنع زوبير بأنه يستطيع تحقيق هذا الهدف بطريقة واحــدة فقط وهي بالضبط أن يشوه نفسه ويفر إلى الأعداء• حينها وبكل قلب بارد شوه نفســه بشكل فظيع : فلقد قطع أنفه وأذنيه وقصّ شعره بلا انتظام وضرب جسمه بالسيــاط ووقــف امام داري•

أما داري فقد اعتراه الذعر عندما شاهد هذا الرجل المحترم مشوهاً بذلك الشكل ، فقفز الملك من عرشه وصرخ سائلا من ولماذا شوهه بهذا الشكل • فأجاب زوبير : « لا يوجد من دونك رجل في الدنيا له السلطة بأن يتصرف معي بهذه الطريقة لم يفعل ذلك أحد ياصاحب السمو ، أنــا الذي شوهت نفسي بنفسي ، لأنه من الآن فصاعداً أنا الذي سأتعالى على الفرس فقط » • ورد الملك عليه قائلا : « أيا تعيس الحظ ، أنت تحاول تجميل فعلتك الشنيعــة هذه مؤكداً بذلك بأنك بفظاعة شوهت نفسك من أجل المحاصرين ، ولكن ياغبي، هل سيستسلم الأعداء نزولا لما فعلته بنفسك من تشويه ؟ ألم تفقــد صوابك بعد لما قطعت بنفسك ؟ » • ثم أجاب زوبير على تساؤولات الملك قائلا : « لو بحت لك بما أفكر به ، لما سمحت لي بأن أفعل مافعلته بنفسي لذلك تصرفت بهذا الشكل بمسؤولية خاصة • وهكذا إذا أنت لم تبخل علينا بالمساعدة سنأخذ بابل • أنا منذ هذه الساعــة سأهرب الى المدينة وسأشرح لهم بأنك أنت الذي شوهتني بهــذا الشكل وأظن أنــهم سيصدقونني وسيضعونني رئيساً لقواتهم • أما أنت فستضع في اليوم

العاشر من فراري عند بوابات سميرأميد ألف إنسان من قواتك التي لا يهمك فقدانها •

وفي اليوم السابع بعد ذلك ضع ألفي رجلا آخرين على مايدعى ببوابات نينا ، ثم عليك الانتظار لمدة عشرين يوماً لترسل بعد ذلك أربعة آلاف إنسان عند بوابات كلدو •ويجب ألا تحمل تلك القوات أي سلاح سوى الخناجر لأن الخناجر اذا فقدت ليس لها أهمية وأخيرا وبعد عشرين يوماً آخر عليك إصدار أوامرك لما تبقى من القوات جميعاً لاقتحام الأسوار من جميع الجهات • أما الفرس فيجب أن تضعهم أمام بوابات بيل وكيسي • ولا أشك أبداً أنني بذلك سأحقق مآثر عظيمة • إذ أن البابليين سيثقون بي لدرجة أنهم لا يسلمونني الدفاع عن المدينة كلها فحسب بل وكذلك مفاتيح البوابات جميعاً ــ حينها سيكون كما علي ، كذلك على الفرس جميعاً اتمام المهمة حتى النهاية »•

بعد ذلك انطلق زوبير هارباً نحو بوابات بابل ناظراً خلفه باستمرار وكأنه فار حقيقي ، ولما لاحظه الحراس الواقفين فوق الأبراج نزلوا للاسفل مباشرة وفتحوا مصراعي البوابات قليلا وسألوه من يكون ولماذا قدم • فأجاب بأنه زوبير ويريد الوقوف الى جانبهم ولما سمع البوابون ذلك فتحوا له الباب واقتادوه الى قادتهم وعندما أصبح زوبير أمام هؤلاء القادة راح يتضرع ويشتكي معلناً بأن التشويه الذي في واقع الحال جلبه لنفسه بنفسه انه من صنع الملك داري لأنه قدم نصيحة بفك الحصار وسحب القوات حيث لا توجد لدى الملك إمكانية احتلال المدينة « والآن ــ استطرد قائلا ــ

جلبت لكم الخبر ولداري وقواته الموت المحتم • سيدفع الملك مقابل هذه التشويهات ثمناً غالياً • إنني أعرف كل مايخبئه منأفكار حيل » •

هكذا تكلم زوبير أما البابليون الذين رأوا ذلك الرجل الوقور مبتور الأنف ومقطوع الأذنين وتغطي جسده آثار الجلد المدماة من ضرب السياط ، وثقوا كلياً أنه يتكلم الحقيقة وأنه جاء إليهم كصديق وحليف • لقد كانوا مستعدين أن يأتمنوه في كل ما يطلب • لقد طلب لنفسه فرقة من القوات ولما تسلمها راح ينشط وفق الاتفاق الذي عقد مع داري • ففي اليوم العاشر قاد زوبير فرقتـه البابلية وحاصر الألف جندي الذين أمر داري بوضعهم في المرة الأولى وأبادهم جميعاً • أما البابليون فوثقوا تماماً بأن كلمة الفارسـي لا تنفصم عن أفعاله، سروا منه كثيراً وأصبحوا مستعدين لسماعه تماماً • حينذاك انتظر زوبير المدة المشروطة الأخرى وقاد فرقته المنتقاة من البابليين ثانيـة وانتصر على الألفين محارب من طرف داري •

ونتيجة لهذه المأثرة الثانية راح البابليون يشنون عليه المديـح وأصبح اسمه على كل شفة ولسان • أما زوبير بعد انتظاره للفترة المحددة قاد فرقته الى المكان المعهود وحاصر القوات الفارسيـة مرة أخرى وأباد أربعة آلاف إنسان • والآن وبعـد مأثرة كهذه ، حصل زوبير على مراده ، فلقد عين قائداً عسكرياً عاماً وآمراً للقلعة بكاملها • آنئذ أمر داري ــ وفق ما اشترطا عليه ــ قواته باقتحام أسوار المدينة، وانفجرت حينها مباشرة نية زوبير الدفينة • انطلق البابليون يصدون هجوم قوات داري على أسوار المدينة ، أما زوبير ذهب وفتـح بوابات بيل وكيسي واندفع الفرس الى داخل القلعة • وشاهـد قسم من

البابليين ما يجري وراحوا يختبئون في معبد زفيس بيل • أما الباقي فلم يدر بذلك فظلوا في أماكنهم حتى علموا بالخيانة•

هكذا احتلت مدينة بابل في المرة الثانية • وباحتلال بابل أمر داري قبل كل شيء بهدم الأسوار وكل البوابات وذلك مالم يفعله كير عندما احتل لأول مرة مدينة بابل • وبعد ذلك أمر بصلب ثلاثة آلاف شخص من مشاهير المدينة• وسمح لبقيـــة الناس بالعيش فيها• ولتوفير الزوجات للبابليين ليتكاثروا وينجبوا أجيالا أخرى (حيث أن البابليين قتلوا زوجاتهم ليقننوا في المواد الغذائية المخزنة) قام داري بما يلي : فقــد أمر القبائل المجاورة بأن ترسل نساءها الى بابل •فقد طلب من كل قبيلة عدداً معيناً من النساء حيث بلغ مجموع ما جاب الى بابل مايقارب خمسين ألفاً من النســاء • ومن هاتيك النساء جاءت الأجيال الجديدة للبابليين •

وحسب رأي داري أنه لم يأت أحد لا من قبل ولا من بعد يتصف بالحذاقة التي اتصف بها زوبير إلاكير (الذي لا يستطيعأحد من الفرس أن يقارن نفسه به) • أما داري ــ كما يروى ــ فقد تحدث أنه كان يفضل أن يرى زوبير دون هذه التشويهات على أن يحتل عشرين بابل أخرى • فلقد أحاط الملك زوبير بتقدير عظيم ، إذ كان يرســل له كل سنة الهدايا التي تعتبر في بلاد فارس مشرفة جداً وكرمه بتشريفات أخرى • لقد كان لزوبير ولد اسمه ميغاباذ قاد الفرس في حروب في بلاد مصر ضد الاثينيين وحلفائهم »•

هكذا كتب « شيخ التاريخ» العالم الأغريقي هيرودوت عن مدينة بابل وعن سكانها وعاداتهم وتقاليدهم •

عمقت رواية هيرودوت معارفنا عن البابليين ومدينتهم (« بوابات الالهة » الشهيرة) كما أنها وضحت معطيات الآثريين والعلماء الذين رمموا أبنيـــة هذه المدينة مستندين غالباً على الأبحاث الأثرية وأحياناً مكملين استنتاجاتهم بتصورات موضوعية غنية • ويقدم كل ذلك ــ جملة وتفصيلا ــ إمكانية الحصول على لوحة أكثر استكمالا لأقدم مدينة في التاريخ •

حدائق نبوخذنصار المعلقة وزوجتاه امينا وسمير اميدا

من لم يسمع أو لم يقرأ عن عجائب الدنيا السبع ؟ وتدعى إحدى هذه العجائب حدائق سمير آميدا المعلقة التي يعرفونها إما كملكة لبابل أو كزوجة للملك نبوخذنصر • أما الواقع فهو غير ذلك تماماً • ففي عام ٦٠٥ق•م دمر كل من كياكسر ملك ميديا ونابنوبالاصار ملك بابل دولة آشور وفيما بعد اتفقا على توطيد تحالفهما العسكري قدر الامكان وجعله أكثر استقراراً ومتانة وديمومة • ومن أجل تحقيق هذه الغاية قرر كلا الملكين ربط علاقتهما السياسية والعسكريـــة والدبلوماسية بصلات قرابة زوجية لولديهما (أميتا ابنة الملك كياكسر ونبوخذنصر ابن الملك نابو بالاصر وبعد ان تم الزواج انتقلت أميتا الى بابل عاصمة الدولة البابلية • وفيما بعـــد أخذت تشتاق لموطنها بشدة الى مياه أنهاره الباردة المتدفقة العذبة وجباله وغاباته الظليلة • وعندما أصبح نبوخذنصر بعد موت أبيه ملكاً لبابل علم بنستالجيا (★) زوجته العزيزة فحاول التفريج عنها بالهدايا والعيد وحفلات الاستقبال • وفي يوم من الأيام خطرت بباله فكرة ايجاد مرج شبيـــه بالذي كان عند آمينا

(★) مرض نفسي سببه الشوق والحنين الى الوطن ــ المترجم

في الوطن • فأمر باستدعاء كبير البنائين والمهندسين في مملكته وطلب إليه البدء بأسرع وقت ببناء « ميديا الصغرى » في بابل • وفعلا تم البدء بالسرعة الكلية بأعمال بناء مشروع « ميديا الصغرى » التي عرفت بالتاريخ كإحدى عجائب الدنيا السبع باسم جنائن سمير آميدا أو حدائق سمير آميدا المعلقة •

وبلغت المساحة العامة لهذه الحدائق ـــ ٢٠٠٠ متراً مربعاً تقريباً • وكانت تتألف هذه الحدائق من أربع مدرجات ، رفعت على دعائم (أعمدة) طول محيطها الدائري ٧٠ سم وتباعدت عن بعضها البعض لمسافة مترين • لقد وضعت هذه المدرجات على تل اصطناعي • كما ردم كل مدرج منها بطبقة سميكة من التربة الخصبة وغرس فيها مختلف أنواع الأشجار التي وفرت الجو الرطب والسكينة • وفي أعلى هذا المشروع تم بناء مسكن ، كجناح خاص يمكن لأميتا أن تستريح فيه وتتأمل منه المرج المحيط بها •

كما بني على المدرج الأخير للحدائق برج حيث وضعت فيها آلات لجر المياه اللازمة لري مازرع من أزهار وأشجار • وكانت تجر المياه من نهر الفرات وكي لا تتسرب من المدرجات وضع تحت طبقة التربة الزراعية صفيحة من الرصاص •

فقد كتب بيرس المؤرخ البابلي بيروس ، بأن الملك نبوخذنصر بنى مرتفعات صخرية وأعطاها شكل الجبال وغرس فيها مختلف أنواع الأشجار مكوناً بذلك ما يشبه حدائق معلقة وذلك كي لا تضجر زوجته التي نشأت في جبال ميديا ولا تتوق الى طبيعة بلادها الأصلية •

ولم تكن حدائق نبوخذنصر وأميتا المعلقة ، منشــأة معزولة، وجب ارتيادها بشكل رسمي وخاص بل كانت جزءاً من مجموعة القصر ولذلك يجب النظر إليها كاستمرارية للمجموعة المعمارية لمجمل القصر الملكي • وقــد قدم المؤرخ إكلينغــل ــ برانــدت « من ألمانيــا الديمقراطية » وصفاً هاماً لهذه الحدائق المعلقة : « تضــم المجموعة الملكية منشأة أخرى متميزة بشكل مطلق وفريدة من نوعهــا هي الجنائن المعلقة الشهيرة • فقــد بنيت في شمال وشرقي القصرمتاخمة للسور وبالقرب من بوابــة الآلهة عشتار • إنها تمثل أربع عشرة حجرة طولانية ومتماثلة تماماً واقعــة على جانبي الممر الــذي يخترقها • وتعتبر هذه المنشأة المبنية من الطوب والحجر المنحوت والمحمولة على أعمدة اسطوانيــة حرة مــن النماذج الأولــى للبنــاء في التاريــخ وقــد بنى في إحدى هذه الحجر بئراً مكوناً من حفرة مربعة مركزية وعلى أطرافه حفر طولانية ، وعلى ما يبدو كانت هناك قد ركبــت آلة لجر المياه وضخها للاعلى في المدرجات المبنية على الأعمدة المذكورة• كما أحاط هذا البناء سلم حجري امتد نحو الأعلى وخرجت آخر درجة منه إلى أعلى سور القلعة ، بجانب مدخل معبد الآلهة عشتار • أما المدرجات فكانت قد بنيت من قوالب الطوب ذات الأبعاد المختلفة ثم كسيت بطبقة من التربة الزراعية ، لتتمكن النباتات والأشجار من النمو عليها • فقد أمر الملك بإشادة هــذا الصرح الاصطناعي على شكل حدائق مدرجة لصالح زوجته التي كــانت من منشأ جبلي ، كي تستطيع التمتع بالهواء العليل في ظل الأشجار الوارفة • كما استخدمت الحجرات الواقعة تحت المدرجات بشكل ناجح كمستودعات باردة لحفظ المؤن» •

انقضت قرون ، والذكرى عن موقع الحدائق المعلقة ما برحــت

تجتذب الباحثين وهاقد تكللت التنقيبات بالنجاح وتمكن علماء الآثار من العثور على إحدى عجائب الدنيا السبع . لقد تبين أن البنــاء الضخم للمجموعة المعمارية هي تحت تل بابل الكبير ، والذي اعتبروه معبد الإله مردوخ ، إلا أن المعابــد كانت تبنى بحيث تطلّ زواياها على الجهات الأربعة للطبيعــة ، لكن هذا البناء كانت تواجهه المساحات على الجهات الأربعة المذكورة . وفي أعوام ١٨٨٣ ـــ ١٨٨٤ م أجرى ج. رسام تنقيبات أثرية في بابل وتوصل الى استنتاج بأن ما يقع تحت التل ليس معبد الإله مردوخ أبدا وعندما رفع العمال طبقات التربة عن هذا التل رأى العالم بأن مايقع تحت التل هو مصطبة من قوالــب الطوب منحدرة باستمرار من طرفيها نحو ضفة نهر الفرات ،أما القسم الخلفي من هذا البناء فكان عبارة عن جدار استنادي .

أخذ رســـام يدرس جدوى هذا البناء فتوصل الى أنه بناء حدائق سمير أميدا المعلقة الفخمة .

وبالرغم من أنه عرف الآن من الذي بنى هذه الأبنية ولمن بنيت إلا أنه لا يسعنا إلا أن نتساءل عن أسباب علاقة هذه الحدائق باسم سمير أميدا . وبنظرنا يوجد لذلك سببان . الأول ـــ أن سمير أميدا كانت بابلية الأصل وتزوجت من الملك الاشوري شمشي أداد الخامس وبقيت محبوبــة الشعب ، والسبب الثاني ـــ هو أن سمير أميدا بعد أن أصبحت ملكة ثم وصت ابنها القاصر (الحــدث) بالعرش أخذت تمارس نشاطاً عمرانياً مكثفاً ، لذا من الممكن تماماً بأن ذكراها حفظت في تسمية الحدائق المعلقة ذلك الصرح الفخم في بابل .

فمن هي سمير آميدا في واقع الأمر ؟ ولماذا حيكت عنها هذه

الكميـــة من الأساطير ؟ وهل كانت شخصية تاريخية أم أنها اسطورية؟ سنحاول الآن الاجابة عن هذه الأسئلة وغيرها •

غالباً ما تصادف اسم الملكـــة الاشورية في الشرقين الأدنى ، والأوسط حيث يطلق على التسميات المحلية للفنادق ودور السينما ، والحدائق بشكل واســع في الرقعة الممتدة من شواطىء البحر الأبيض المتوسط حتى أفغانستان • وفي (الاتحاد السوفياتي) على شرف سمير آميدا أطلق هذا الاســم على قرية تقع بالقرب من موقع مرصدبيوراكان الفلكي في أرمينيا • ومثل هذا التجاور ، يحمل معان رمزية سامية • إذ أنه في بيوراكان تم التوصل إلى اكتشافات فلكيـــة عظيمة فيعصرنا كما أن الرصف القفلوفي (★)للقلعة الصامدة هنا أصبح الكلمة الأخيرة الناطقة عن بناء المنشآت الدفاعية في العصور الغابرة والتي تنسب إلى سمير أميدا أيضاً •

وهنالك الكثير من الحكايا عن سمير أميدا ، سنورد بعضها • لم يكن بين كل ملوك الدنيا من تجرأ على مقارنـــة نفسه بالملك نين مؤسس الدولة الآشورية • لقد حكم مجمل آسيا الصغرى وأرمينيا وميديا كما قهر الدول المجاورة على البحر الأسود وبحر قزوين بما في ذلك أسقوثيا الشمالية وإيران الحالية وشبه الجزيرة العربية • وأصبحت حينذاك مدينة نينوى عاصمة للدولـــة الآشورية •

وكما يقال ، أنه من بين حاشية البلاط كان يوجد قائد عسكري شجاع اسمه وان أو وانيس الذي كانت زوجته سميرأميدا الرائعـــة

(★) هو البناء بالقطع الكبيرة من الصخصر دون ملاط للتماسك فيما بينها ــ المترجم ــ.

الجمال ، إذ أنهـا كانت ابنة الآلهة الآشورية ديركيتو وقد ولدت بالقرب من مدينة اسكالون (عسقلان ـ المترجم) وقام بإرضاعها سرب من الحمائم البرية .

ففي أحد الأيام عثر الرعاة في الباديـة على طفلة صغيرة فأخذوها إلى سماسو ناظر قطعان الملك والـذي تبناها ورباها كابنة له وفي إحـدى الصدف التقى القائد الملكي وان بها فجأة وأعجب بها كثيرا فتزوجهـا . لقـد أثارت سمير اميـدا إعجـاب الجميع بذكائهـا وجرأتها وجمالهـا وفتنت الملك الآشوري نين ببهائها فأخذها من وان لنفســه ، أما الأخير فأنهى حياتـه بيده حزناً على ذلك . لقد أصبحت سمير أميدا ملكـة آشورية وبعد وفـاة زوجها راحت تدبر شؤون البلاد بنفسهـا بالرغم من وجود ابنها ـ الوريث الشرعي للعرش الملكي . لقـد بنت مدينة الملوك بابل ذات الحدائق المعلقة والأسوار المنيعة والأبراج وكذلك الجسر الرائع على نهر الفرات والمعبد العظيم للالـه بيلو . لقد أمرت بفتـح سبع ممرات في جبال زغروس كي تمد طريقاً مريحـة الى ميديا حيث تم تأسيس العاصمة إكبتان . كما تـم جلب المياه بواسطة الانفاق الى القصر الملكي من البحيرات البعيدة . وفي الجبال وعلى جلمود رأسي كبير ذو ثلاثة قمم وبالقرب من المدينة القديمة بيخيستون أمرت سمير أميدا بنحت نصب كامل لها .

لقد فاقت الحملات العسكرية التيقامت بها سمير أميدا انتصارات الملك نين . فلم تحتل مصر وأثيوبيا وجزءاً من ليبيا فحسـب بل وكذلك قامت بتنظيم حملة ضد بلاد الهند إلا أن هذه الحملة لم تتوج بالنصر ، حيث تحطمت قوات سمير أميدا العسكرية على أيدي الجيش

الهندي ، فانسحبت سمير أميدا بعـد أن تكبدت خسائر فادحة .
وبعد العودة الى الديار لم تراود الملكة أحلام الحملات العسكرية بعد فحالك ابنها نيني (نينوس) المبعـد عن العرش مؤامرة ضدها ،وحين علمت بذلك تذكرت سمير أميدا النبوءة القديمة والتي تقول علـى أنه عندما يعادي الابن أمه الحقيقية يعني ذلك أن الآلهة الخالدة تدعوها إليهـا وعلى البشر أن يقدموا لها التحية والاجلال كمايقدمونها لبقية الآلهة .

وتنص الرواية على أنها بمحض إرادتها منحـت السلطة الملكية لنينوس أما هي فتحولت إلى يمامة بيضـاء وغادرت القصر مع سرب من الحمائم . ومذ تلك الأزمنة يذكرها الآشوريون كآلهة والحمائم اكطيور مقدسة . أما الروايـة الثانية فيقدمها الباحث ف . تشيريفانسكي في أوائل القرن العشرين في كتابه « المملكـة الغابرة » (عصر سمير إميدا) فسنقدمها لكم بأسلوبنا .

بعد أن أصبحت سمير أميدا ملكة لبلاد بابل قررت تنصيب ابنها نينياس (نينوس) ملكاً على آشور كي تتفرغ هي لاحتلال الأسواق والطرق التجارية للبلاد ، وقـد اختارت الهند هدفاً لذلك ، فقررت القيام بالحملة عليها براً وبحراً . فقد كان اليوم الذي تحرك فيه الجيش البابلي ضد الهند مسراً ومحزناً معاً . فهو مسراً لأن البابليين ظنوا أن سمير أميدا ستحتل الهند ومحزناً لأنهم لم يكونوا واثقين بالنصر .

لقد خرجت سمير أميدا إلى الجيش في عربة تجرها ست جياد تلتهب عدتها بريقاً من الذهب المزدانة به وعلى أطراف العربة تدلت القرب المملوءة بالمياه المغلية وجعب النبال والحراب ، كمـا رافقتها من جانبي العربة حراس بلباس من جلود الفهود وسار خلفها السعـاة

والكتبة والمتنبئون والكهنة والخدم . أما الجنود فساروا بعتادهم الفردي فقط دون كبوش الصدم وآلات دك الأسوار والسلالم والحبال فكان في حوزتهم فقط السيوف والخناجر والأقواس مع النبال كما حملوا معهم أيضاً بعض الماء المغلي واللبنه والأرغفة المخبوزة باللبنه .

وفي طريقها الى الهند تسلمت سمير أميدا رسالـة إعلامية ـ من رابومار القائد العـام للجيش ـ يعلمها فيها بأن قسماً من سفن الأسطول المتوجه بحراً نحو الهند قـد تحطمت إثر عاصفة بحرية ، إلا أن رابومار أعطى أوامره بمتابعة الابحار بغض النظر عن الخسائر الحاصلة . وكان علي رابومار حين وصوله الى الهند ، أن يبدأ فوراً باقامة معسكـر للجنود كي يكون جاهزاً لاستقبال سمير أميدا القادمة براً .

وفي أثناء ذلك انهمرت أمطار استوائية غزيرة أعاقت مسير الجنود إلى الأمام . وقبل وصولهم إلى المعسكر بعـدة تحويلات استقبل رابومار موكب سمير أميدا والقسم الآخر من الجيش التابع له . وحدثته أثناء ذلك عن العلاميين الذين عينوا أدلاء طريق لها تبين أنهم خونـة حيث أنهم اقتادوها إلى صحراء قاحلـة لا حياة فيها أبداً . وقد حدث ذلك لأن الملك العيلامي تقـدم للزواج منها أما هي فرفضت ذلك ، عندها أمر أولاده بأن يجروا قوات سمير أميدا الى الصحراء حيث الموت المحتم لهم .

إلا أنها تمكنت من إنقاذ جنودها وجلبهم الى ضفاف نهر الهند الكبير .

واستمر ملك العلاميين بانتقامه من سمير أميدا وبعث رسالـة الى ابنها نينوس في نينوى ، وعرض عليه فيها الصداقة والتحالـف والزواج من أخته مقابل أن يعلن الحرب على والدته سمير أميدا .

وافق نينوس على ذلك وجر قواته لحصار بابل ولكنــه قبل أن يحاصر المدينة أرسل اليها مبعوثاً شخصياً يطلب إليهم بتسليــم المدينة وجمع السلاح دون أي قتال وأن يقسموا على الطاعة الأبدية لآشور •كما أنه أصر على طرد سمير أميدا من البلاد وأن يسلموه مصير رابومار ويقدموا له خوة كبيرة •

لكن المجلس الشعبي في بابل رفض له ذلك ، حينذاك بــدأ نينوس حصاره للمدينة • إلا أنه لم يستطع السيطرة عليها غفلة ، فراح الآشوريون يضربون حولها حصاراً طويل الأمد • لكن ظهور سمير أميدا القادمة من الهند فجأة جعل نينوس يرفع الحصار عن المدينة ويسحب قواته بعيدا •

وكانت عودة سميرأميدا من الهند مرتبطة بالكوارث التي حدثت في نهر الهند إذ أن الأمطار الغزيرة وذوبان الثلوج الكثيفة من الجبال رفعت مستوى المياه في النهر عالياً ، فأطاحت بقسم من سفن البابليين الراسيــة فيه وكما استقبل السكان الهنود سميرأميدا كعدو غاز • وأجج العداء أكثر امراء الهنود الذين تمكنوا خلال شهرين من قدوم سميرأميدا الى ضفاف نهر الهند من تأسيس جيش كبير جداً •

فقد جمعوا في مكان ما عدداً كبيرا من الفيلة الحربية التي شدت الى ظهورها سلات كبيرة جلس في داخلها المقاتلون الهنود • ففي الهجوم الأول على معسكر سميراميدا شارك ثلاثمائة فيل حربي فكانت المعركة ضارية • فقــد حاول الشجعان من البابليين بتر خرطوم الفيلة، إلا أن المقاتلين المختبئين في السلات كانوا يقتلونهم بالخناجر الثقيلة •

لقد أخافت الفيلة المقاتلين البابليين وهدمت وسحقت كل المعسكر وراح مقاتلوا سميرأميدا يفرون من ساحة القتال •

فلا يبق بجوار سميرأميدا يقاتل إلا المرافقين الشخصيين لها وفي هذه الأثناء أخذ يقترب من مضرب سميرأميدا فيل عملاق يحمل أمهر الرماة الجالسين في برج عال يحمله على ظهره ، كانت القرون الضخمة لهذا الفيل العملاق مغطاة بالذهب ورقبته ملبسة بدرع واق ، ولم تكن تفلح بجسمه لا المزاريق ولا النبال ، فعندما اقترب هذا الفيل من مضرب سميرأميدا فانتبه له تورتان رابومار وبتر خرطومه بالسيف فهاج الفيل راكضاً وهبط الى الهاوية هو والمقاتلين الهنود الذين كانوا يحملهم .

استغل رابومار الفوضى التي وقع فيها المهاجمون فرفع سميرأميدا على ذراعيه ووصل بها بسلام الى مركبه . إلا أن الجيش البابلي حطم بعضه وتشتت بعضه الآخر . وعند المســاء أخذ الذين بقوا في عداد الأحياء يتجمعون ويعودون إلى مراكبهم .

لقد اعتبر رابومار أن سبب هزيمة الجيش البابلي هم العيلاميون فقرر الانتقام منهم ، فقسم ما تبقى من قوة اسطولة الى قسمين وأرسل قسماً من المراكب الى بلاد عيلام والقسم الآخر الى بابل .

وصلت فصائل البابليين الى معسكر الملك العيلامي الذي حاصرت قواته مع قوات نينوس مدينة بابل . لقــد دخلوا الى مضربه بالذات بعد أن انهو مقاومة حراســه وأخذوه أسيراً بعد أن فقأوا عينيه . لقد طالب البابليون من العيلاميين فك الحصــار عن بابل والعودة إلى أوطانهم مهددين إياهم ــ في خلاف هذه الحال ــ بجر ملكهم الأسير ، فخوفاً على ذلك انسحب العيلاميون إلى بلادهم .

أما نينوس فلم يهدأ له بال لأن بابــل تحكمها امرأة هي زوجة

والده سابقاً والآن هي حبيبة التورتانرابومار الفينيقـي مغتصـب السلطة في بابل • لقد قرر مواصلة الحرب وأمر بإغراق بابل بمياه النهر • ورداً على ذلك أمرت سميرأميدا بحفر أقنية صرف معاكسة إلا أنه لم ينهوا هذا العمل حتى كانت المياه الغاشمة قد اقتحمت المدينة جارفة كل ماتصادفه في طريقها •

لقد بعثرت المياه سفن التورتان رابومار فأغرقت بعضها وساقت بعضها الآخر إلى البحر • وفي خضم هذا الطوفان المرعب استشهد رابومار بذاته • وحاولت الجاريات نقـل سمير أميـدا إلى قمة زيقورات(★) ، إلا أنها رفضت ذلك وفي هذه اللحظة ضربت قصر سمير أميدا موجة عارمة من المياه رافقها صوت رعد هادر هدمت القصر وأخذت الملكة معها وهكذا فقدت حياتها في خضم تصارع الأمواج• لكن الشعب لم يرغب في تصديق خبر موتها واعتبر أنها في اللحظة الأخيرة تحولت الى يمامة جميلة وطارت إلى السماء لتتخلد إلى الأبد•

وبعد ذلك دخلت القوات الآشورية بقيـادة نينوس الى بابل، حيث أقسم هذا الأخير على تفانيه للشعب وأعلن الوحدة بين آشور وبابل •

والرواية التالية عن سميرأميدا يوردها العالم الأرمني المشهور م• خورينسكي وفيها يقول بأن سميراميدا كانت قـد وقعت في حب الملك الأرمني آرا الجميل • فبعثت اليه رسلا تدعوه عن طريقهم للاقامة في بلاد آشور والزواج منها وان يصبح فيما بعد ملكاً لآشور • إلا أن

(★) وهي برج مكرس للطقوس الروحية يتألف من ٣-٧ دورات تتصل ببعضها بواسطة سلالم ومشارف خاصة - المترجم - •

الرسل تلقوا رداً سلبياً على ذلك • عندئذ غضبت سميرأميدا وقررت الوصول إليه حرباً •وفي إحـدى المعارك استشهد آرا الجميل فحزنت عليه سميرأميدا ولم يكن لحزنها حدود فطلبت من سحرتها إعادة الحياة له من جديد ولكن ذلك كان من دون جدوى •

وبعد موت آرا الجميل أضفت سميراميدا حبها على مجمل أرمينيا وقررت أن تبني لنفسها هناك مدينة لتأتيها في كل صيف كي تستجم في تلك البقاع الرائعة •

لم تعجب نينوس ابن سميرأميدا تصرفات أمه (في البدء ـ حبها لآرا الجميل ، ثم لمؤسس المملكة الميدية زردشت) فقـد حاول اقناعها واستلام السلطة منها إلا أنه لم يوفق في ذلك •

وفي هذه الأثناء نشأ بين سميرأميدا وزردشت جدال شديـد تطور فيما بعد الى حرب حقيقية هزمت فيها سميرأميدا وراحت تتراجع فقرر نينوس القضـاء على أمه لكنها حين علمت بذلك سلمته السلطة بمحض إرادتها وتركته لشأنه •

هذه بعض الروايات الأسطورية عن سميرأميدا ، فهل كان هناك في الواقع سميرأميدا ؟ لقد تميزت مرحلة حكم ملوك أورارتو (القرن التاسع ـ الثامن قبل الميلاد) بحروب متواصلة ضد بلاد آشور • فمنذ عام ٨١٢ الى ٨٠٧ ق•م حكمت البلاد أم الملك الاشوري أداد نيراري الثالث والذي كان له حينذاك من ٥ـ٦ سنوات من العمر • وكانوا يسمونها شامورامات • ولا زال العلماء حتى الوقت الحاضر لا يمكنهم التوصل الى استنتاج موحد حول ترجمة هـذا الاسم شامورامات ساميراميس ، سميرأميدا • فغالباً ما يترجمونه بـ « الاسم الأعلى » أو « اليمامة » أو « سيدة القصر » •• الخ

لقد تعرفت شعوب أورارتو ولمدة تسع قرون متتاليـــة على منجزات الحضارة الآشورية في مجالات الفن العسكري وبناء المدن والقلاع والأقنية وعلى الثقافة الآشورية بأكملها . لقد تركت العظمة والقوة والغنى وبريق بلاط الدولـــة الآشورية أثراً عميقاً لدى سكان أورارتو ، وترك لديهم انطباعاً خاصاً ذلك الوضع الذي تبين فيه أن البلاد التي تحاربوا معها كانت تقودها امرأة ملفة تميزت بجمالها ، وذكائها ودهائها العسكري . ففي إبان حكمها تم القيام بعدة بعثات عسكرية الى أورارتو وميديا مما زاد من انتشار شهرة سمير اميدا وبلاد اشور . وكذلك اجتاحت أراضي دولة أورارتو أسوة بمن سبقها من الملوك الآشوريين . كما تجدر الاشارة الى أن فترة حكم سمير أميدا تميزت بنشاط عمراني واسع . فقد تم إشادة مجموعة من القلاع وفتح الطرق والأقنية واخضوضرت مدن عديـــدة . ولم يتخلف ملوك أورارتو عن سميرأميدا معتمدين على التوســع العمراني في بلادهم . وعلى سبيل المثال فقـــد بنى مينوا ملك أورارتو سلسلة من التحصينات على مشارف توشبي عاصمة دولته ، وأنهى بناء قلعة وان ــ أقام تحصينات منيعة على الحدود الشمالية للبلاد وحفر القناة الشهيرة التي وفرت مياه الشرب للعاصمة وقد سميت هـــذه القناة باسم قناةشميرام (سميرأميدا) ويعتبر م. خورينسكي أن هذه القناة قـــد تم حفرها في عهد الملكة سميرأميدا ، ويؤكد الأكاديمي ب.بيوتروفسكي أنهاحفرت من قبل مينوا ملك أورارتو وليست من قبل سميرأميدا . إلا أن الرواية الشعبية تنسبها للملكة سميرأميدا أيضاً . ومـــن المحتمل تماماً بأن التحصينات الموجودة في قرية شميرام في أرمينيا هي من منجزات الملك مينوا كما أنها منسوبة أيضاً للملكة سميرأميدا .

لقد أخذت شخصية إحدى أولى النســاء الحاكمات والتي قادت أعظم دولة في القدم تنمو عن طريق الحكايات والأساطير ونقل الوقائع إذ أن أساس كل هــذه الروايات هو ضمن مجمل النماذج والتغييرات والاحتمالات •

لقد أبقت شخصية سميرأميدا أثراً عميقاً في الثقافــة الروحية لشعوب كثيرة على وجه الكرة الأرضية كالروس والفرنسيين والعرب والأتراك وغيرهم • إذ أن هــذه الشخصية ألهمت ولا زالت تلهم الكثير من الكتاب والمؤرخين والفلاسفة والموسيقيين والفنانين في إبداعاتهم الفنية المختلفة • ومثال مؤلفي هذ هالابداعات هم العلمــاء كيتسي ، هيرودوت ، تيودور الصقلي ، سترابون ، م• خورينسكي والموسيقيين مثل غليوك،روسين والفيلسوف فولتر والفنان غويرجينو وغيرهم •

ومن المفيد الاشارة الى أنه انتشرت في روسيا حتى أوائل القرن الخامس عشر مخطوطة هي : « الاسكندرية ، رواية عن اسكندر المقدوني » كانت بطلتها سميرأميدا • وكان لهذه الرواية صــدى واسعاً لدى جمهور القراء آنذاك •

••••••••

عندما يحين موعد رأس السنة

لقد كتب أوفيدي ذات مرة متسائلا : « عجباً ، لماذا يكون رأس السنة في فترة البرد ؟ أليس من الأفضل أن يكون في الربيع الجميل؟» • وهل كان يحتفل بالسنة الجديدة شتاء في كانون الثاني دائماً ؟

كلا ليس دائماً ، ففي روما القديمة مثلا كان يحتفل به حتى السنة

٤٥ ق٠م في الأول من آذار ٠ أما الميديون فقــد احتفلوا بالسنة الجديدة (رأس السنة) في ٢١ آذار وفي روسيـا احتفل به في أيلول منذ سنة ١٣٤٢ وحتى ١٦٧١ م ولكن من أين وصل الاحتفال برأس السنة الى أوروبا في أيلول وآذار ؟ لقد وصلها ذلك من بلاد ما بين النهرين ٠ ففي كل سنة تبدأ هنا في ٢١ آذار كمحصلـة للاعتدال الربيعي زيادة مياه نهر دجلة ،وبعد اسبوعين من ذلك زيادة مياه نهر الفرات٠

وقد بدأت كل الأعمال الزراعية في بلاد ما بين النهرين في هذا الموعد٠ فقد استقبل سكان بلاد ما بين النهرين هذا اليوم بالفعاليات الاحتفالية والتنكرية والغناء والرقص ٠ وانتقل هذا الاحتفال كاحتفال ببدايــة السنة في آذار ــ نيسان الى اليهود الأسرى لــدى المـلك البابلي نبوخذنصر ومنهم الى الاغريق وعبر هؤلاء الى شعوب أوروبا الغربية٠

ففي شمال بلاد ما بين النهرين احتفل ببدايــة السنة الجديدةفي الخريف (ايلول) في بدايــة جمع المحاصيل الزراعية ٠ ومن المحتمل أن هذا العيد الخريفي انتقل عبر الأسقوتيين والاغريق إلى بيزنطـة ومنها الى روسيا ٠

وتنسب التقاليــد الاحتفالية بعيد رأس السنة ، حسب رأي العلماء الى الألف الثالث قبل الميلاد وبدؤوا يحتفلون به أولا في بلاد مابين النهرين ٠

فقــد استمر الاحتفال بهذا العيد مدة اثني عشر يوماً في نيسان (والواقع في ٢١آذار حتى ٢ نيسان ميلادياً) ٠ هكذا كان يبــدأ العيد في أول الاعتدال الربيعي ، أي في بداية الأعمال الزراعية ،وكما اعتقــد البابليون في بداية مرحلة تسلم مردوخ (إله السماء الصافية) مقاليد الأمور في الحياة ٠ لقــد كانت هذه الفترة تمثل لهم مرحلة

انتصار القوى البناءة الجديدة والآلهة على قوى الشر والدمار والموت.
لقد اعتبرت مجمل أيـام الاحتفال أياماً مقدسة يمنع فيها تأنيب الأطفال ـ معاقبة العبيد ، والقيام بالاعمال ودعوة المحاكم . ونحن نعتقد كما هي الحال لدى العالم الألماني غ . فينكلر المختص بالتاريخ الآشوري وكما ورد في إحـدى اللوحات الفخارية بأن هـذه الأيام كانت « ... أيام الحريـة اللامحدودة ، حين يكون النظام العالمي بأجمعه مقلوباً على رأسه . العبد يتحول الى سيد » .

لم تكن الاحتفالات في بابل لتبدأ مباشرة في بدايـة الأيام الاثني عشر ، بل كانت الأيام الأربعة الأولى منها بمثابة أيام للتدريب والتحضير . ففي هذه الأيام كان يقام في الساحات العامة للمدن وفي المعابد احتفالات لقراءة الملاحم وتمثيل المسرحيات ورواية الأساطير وتنفيذ بعض الطقوس الدينيـة . وكانت أكثر الفعاليات شعبية هي ملاحم عن غلغاميش وتحليق أتانا ، ومعجزات مردوخ ، والسـقوط إلى الجهنم ، وانقاذ عشتار وغيرها .

وفي صباح اليوم الخامس يخرج من معبد يزيد الواقع في مدينة بارصيبا بالقرب من مدينة بابـل موكب احتفالي لمباركة تسلم الاله الأعظم مردوخ زمام الأمور والتعبير عن الخشوع له . فمنذ هذا اليوم بالذات يعتبر بأن « فتيات العالم الباهي » (الأيـام الصافية) تدخل الى ملكوت السموات . أي منذ بدايـة الاعتدال المناخي تتكرس استمرارية النصف الصافي من السنة . فقد كتب العالم السوفييتي د . ريدر عن المشاركين في هذا الموكب الذي يخرج من مدينة بارصيبا بأنهم يرفعون « .. قارباً يعوم بـه إله القمر أو إله الشمس المحيط الأرضي . فهو يبدأ أولا باجتياز القنـاة ثم يركب القارب المحمول

على عجلات ويسوقونه في طريق احتفاليــة كبيرة (تمثل الجزءالعلوي من برج الأفلاك) في الساحــة المقدســة في بــابل « الــى ملكوت السموات » • فباســم هذا الكرنفال الاحتفالي ما يزال حتى الآن يسمى العيد الذي تنتهي به السنة القديمة وتبدأ بــه السنة الجديدة »•
كذلك كتب د • ريدر بأنه « في هذا اليوم بالذات كانوا يقومون بطقوس دينية مختلفــة ويعبرون عن هول الإله مردوخ • وكان الهدف من ذلك هو أن قوى ما تكبل مردوخ وتجره الى العالم السفلي (المملكة التحتأرضية ــ المترجم) الى داخل الجبال ، حيث يستجوب ويعذب حتى يسيل دمه • فتقرر الالهة ساريانيتوم القلقة على غياب زوجها مردوخ البحث عنه فتهبط الى العالم السفلي مما يضطر حارسه بأن يعيدوه من العالم السفلي الى الحياة ثانية •

ومن الجدير بالذكر أن الأساطير عن هول الإله مردوخ تــم استعمالها من قبل واضعي الأنجيل لاظهار هول السيــد المسيح أيضاً• فيكتب الأكاديمي ف ستروفه بأن « أي قارىء للنص الذي أوردناه يتذكر بشكل غير إرادي الرواية الانجيلية عن هول المسيح•

وهناك أيضاً توجد محاكمة له ، تعذيب قاس ، مجرم مايعدم مع الرب ، وامرأة يرتبط مصيرها به بشكل وثيق » • إن هذه التمثيليات الدينية ذات المنشأ البابلي والتي كانت تقام يوم رأس السنة الجديدة دخلت الى التقاليد المسيحية كتصورات دراماتيكية رئيســة تمثل في مرحلة الفصح ، وعيد الفصح بحد ذاته يصادف عيد رأس السنة عند الاشوريين والبابليين ، وقد رافق المسرحيات الدينية التي مثلت في اليوم الخامس من أيام الاحتفال برأس السنة البكاء والنحيب والتعبير عن حزن جميع الحاضرين على الآله مردوخ الــذي ما يزال آنئذ

معتقلا في العالم السفلي • بعد ذلك كان ملوك آشور وبابل يبدأون بطلب المغفرة أمام الآلهة والتكفير لهم عن الذنوب التي اقترفوها في السنة الفائتة • أما في اليوم السادس فكان الســادة والعامة من السكان يسافرون الى المدن الكبيرة وخصوصاً الى نينوى وبابل حيث يقيمون عند أقرباء لهم أو على مشارف القصور والمعابــد •

واليوم السابع من السنة الجديدة هو يوم قيامة الاله مردوخ وخروجه من تحت الأرض لقــد كان يجري ذلك بمساعدة آلهة أخرى • ففي هذا اليوم كانت تذبح كميــة كبيرة من الخنازير إذ أنها كــانت تعتبر لدى الاشوريين والبابليين رمزاً لأعداء الآلهة • وفي ليلة اليوم الثامن كان الاشوريين والبابليون يمارسون العرافة التنجيم عن حظهم في السنة المقبلــة • فقد كان يدعى الى كل بيت العرافون والمنجمون والسحرة • وفي صباح اليوم الثامن كان الكهنة في معبد إيساغيلا حيث يحفظ في السر تمثال ذهبي للاله مردوخ مع عرشــه يخرجونه الى الشارع المؤدي الى طريق « الموكب الاحتفالي وكانت تدعى بالطريق الاحتفالية على شرف احتفالات رأس السنة هذه والتي كانت تجري في هذا المكان بالضبط • والى جانب تمثال الإله مردوخ كان يخرج مجموعة من تماثيل الأرباب الأخرى الذين يقطنون معبد إيساغيلا • وكانت تنقل جميــع الآلهة والآلهات الى معبد آخر « بلاط المصائر » حيث يتلى النشيد الرئيسي الذي يمجد الاله مردوخ • وعندما كان يصل الاله مردوخ وبرفقته زوجته سربانيتوم الى معبد « بلاط المصائر» كان ينتظره هناك الملك بذاته ، حيث يقف على عتبة المعبد وينتظر متى سيبشره الاله مردوخ عن السنة القادمة •

وفي اليوم التاســع من السنة الجديدة ينقل تمثال مردوخ الى

معبد بابل الرئيسي (بيت أكيتو ـ دار القرابين) الذي يقع بالقرب من معبد « بلاط المصائر » ، وهنا يرقـد التمثال مدة يومين كاملين، حيث تجلب القرابين وتقـدم العطايا •وهنا كان يحتفل في مساء اليوم العاشر وليلة اليوم الحادي عشر من السنة الجديدة بانتصار مردوخ على تيامات ، حيث تقـام المأدبة في المعبد ذاته •ففي ليلة اليوم الحادي عشر كانت البلاد بأجمعها تحتفـل بعيد رأس السنة الجديدة • ففي هذه الليلة كانت تحـاك الحظوظ وتعقد مصائر البشر كذلك في هذه الليلة كما في ليلة اليوم الثامن ـ حسب اعتقاد البابليين ـ كانت جميع الآلهة تجتمع مرتعبة أمام الاله مردوخ الـذي كان يجلس الى مائدة من الذهب في مكان صاحب الرحمة باراكلبو • لقـد وقفت بقية الآلهة أمامه حانية الرأس خاشعة منتظرة ما سيقوله مردوخ عن مصير كل منهـا في هذه السنة الجديدة • وفي نهاية اليوم الحادي عشر ينقل تمثال مردوخ الى معبد « بلاط المصائر » ومن هنـاك الى إيساغيلا • وفي الطريق الى إيساغيلا كانوا يضعون التمثـال على القارب الذي عبر القناة به الى الفرات وعلى طول القناة امتدت الطريق المقدسة عين ـ بوريشابو حيث سار بها المشاركون في الموكب الاحتفالي من كهنة بمختلف درجاتهم (سانغو ـ الكهنة الرئيسيون ـ ، إنو ـ كهنة متقدمون باسيسو ـ الكهنة صاحبو المسحـة المقدسة ، ماكو ـ الكهنة مفسرو الأحلام وأخيراً بارو ـ الكهنة المتنبئون) وكذلك سكان بابل وضيوفهـا القادمون للاحتفال بالعيد • وعلى ضفاف نهر الفرات بقي الجميع ينتظر قدوم نابو (ابن الإله مردوخ) على قاربه• بعـد ذلك كان الموكب يعود الى معبد إيساغيلا حيث كان يجب إيداع تمثال الاله مردوخ • كما كان يحاول الملك أيضاً الدخول الى المعبد إلا أن الكاهن الأكبر كان يعترض سبيله مباشرة • ـ

وقد كتب العالم الروسي تواريف : « كان ينزع من الملك التاج والصولجان ولوازم ملكية أخرى وتوضع على صينية من رصاص وتقدم للاله • ثم يبدأ الكاهن الأعلى بضرب الملك الراكع على ركبتيه أمام المحراب المقدس وجلده بالسوط • فإذا بكى الملك فكان يعتقد بأن الحكم في السنة القادمة سيكون رؤوفاً وإن لم يبك فإن سلطته لن تستمر ويجب إيقافها • بعد ممارسة هذه الطقوس كان يدخل الملك الى المحراب أمام مردوخ ويتوجه اليه بالصلوات والوعود بأن يكون رهن إشارته • وكان يرد الكاهن الأعظم الى الملك ويعده بمساعدة مردوخ له وتقويته للنفوذ الملكي • وفي نهاية هذه المراسيم كانت تعاد للملك عدته ، فيتلمس الملك يد مردوخ في إيساغيلا وبذلك كانت تبارك سلطته الملكية في السنة المقبلة • وإذا لم يقم الملك بكل هذه الطقوس ، كان يفقد تسميته كملك على مدار السنة القادمة كلها وكان يدعى بالحاكم •

وفي هذا اليوم واليوم الثاني عشر كان يتكلم في الساحات والشوارع الخطباء والقراء والفنانون والمغنون والموسيقيون• والأكثر كان الموسيقيون والمغنون إذ كان عددهم في كل معبد لا يقل عن سبعة أشخاص وكانت المعابد في بابل ونينوى تحصى بالعشرات كما كان على جميع المغنيين حضور الاحتفال باليوم الأخير من عيد رأس السنة الجديدة • كانوا يعزفون ويغنون مع إيقاعات وعزف المزمار والطبول والدف والصنج والعود ذي الاحدى عشر وتراً والقيثارة •

وكان يختتم اليوم الثاني عشر « بزفاف » الاله مردوخ للالهة سارباتيتوم ، أما الملك فكان يعقد هذا الزواج ومعه الكاهن الأعظم ويباركانه •

لقد مضت آلاف السنين على الاحتفـال بعيد رأس السنة في بابل وتبنت هذا الاحتفال شعوب أخرى في أوروبا وآسيا . لقد فقد هذا العيد الكثير من مراسيمه إلا أن فكرتـه بحد ذاتها بقيت تنتعش حتى الآن . ففي دول امريكا اللاتينية لا زالوا يقومون بالكرنفالات سنوياً . حتى أن كلمة « كرنفال » بحد ذاتها هي الترجمة الحرفية للعبارة البابلية (سفينة البحر) .

ويصاحب هذه الكرنفالات كما كان رأس السنة الجديدة في بابل الرقص والحفلات الدينية والتنكرية وغيرها من الألعاب . ويعتقد العلماء أن وصول هذا العيـد الى أوروبا وأمريكا اللاتينية قد تم عن طريق روما القديمة . وكما كان يجري في بابل يجري الآن في مختلف الدول حيث تزين شجرة النخيل أو السرو أو أي شجرة أخرى تمثل قدوم الزمن الحديث ، والسعادة المتجددة .

هكذا ومن بلاد بابل البعيـدة ومنذ آلاف السنين الغابرة انتقلت هذه الفكرة إلى الشـعوب الأخرى التي عادة لا يراودها التفكير بذلك .

مراجعة الطبيب للتداوي

لقد لاحظ هيرودوت أثناء ترحاله في بلاد ما بين النهرين طريقة هامة لعلاج المرضى ، الذين صادفهم إبان ذلك . عندما كان الطبيب لا يستطيع انقاذ المريض الذي راجعه أو لم يتمكن من إيجـاد طريقة لعلاجه كانوا ينقلونه الى ساحة السوق حيث يراه المارة ويقدمون له النصائح للعلاج . فقـد حدثنا هيرودوت عن هذه الطريقة الغريبة في العلاج قائلا : « ... بعـد ذلك يقدم المارة النصائح للمريض ويشرحون له كيف أنهم تخلصوا من مثيل هذه العلـة ، أو رأوا خلاص

الآخرين منها • وكان يمنع المرور من جانب المريض بصمت ، وكل من يمر بجانبه يجب أن يسأله عن العلة التي أصابته » •

إن هذه الطريقة كانت موجودة منذ القدم لدى الاشوريين والبابليين وكانوا يلجؤون إليها في الحالات المستعصية جداً إذ كان الأطباء يقفون لا حول لهم ولا قوة في معالجة المرضى • بالرغم ــ للتنويه ــ أن مستوى الطب كان عال جداً ، لو أخذنا بعين الاعتبار بأن الحديث يجري عن ألفي سنة قبل الميلاد • عندما أصدر الملك البابلي حمورابي قوانينه الشهيرة والمعروفة باسم « شريعةحمورابي» فقد جاء في قوانين حمورابي مواد تحدد النظام الأساسي لمزاولة مهنة الطب في بابل ، مما يدل ــ دون أدنى شك ــ على أن الطب في مرحلة حكمه كان قد وصل الى مستوى رفيع • كما أبدى حمورابي اهتماماً كبيراً بالأطباء ــ الجراحين •

وهكذا ، يمكن أن نتصور الى أي درجة كانت تقدر معارف الأطباء الذين أمضوا سنوات عديدة من حياتهم للتعلم في المدارس الطبية المتخصصة ،وكيف خاطروا كثيراً في إجراء العمليات ، إذ أنه كان يعاقب على موت المريض بشدة حتى درجة قطع اليد •كما لم ينس حمورابي التنويه عن ذلك في قوانينه الشهيرة • ففي المادة ــ ٢١٨ ــ يكتب ما يلي : « إذا سبب الطبيب وهو يفتح بسكين برونزية جسد مريض ما الموت لهذا الانسان ، أو وهو يزيل الماء الأزرق « كاتاراكتا » من عين مريض ما بسكين برونزية تسبب في إعطال عين هذا الانسان ، فيجب قطع يده » •

لقد لعبت المدرستان الطبيتان المتخصصتان في أوروك وبارصيبا دوراً عظيم الشأن في تهيئة الأطباء في بلاد بابل • هاتان المدرستان

وغيرهما من المدارس الأخرى كانت مفتوحة ومعتمدة على حساب الدولة . وكان يستخدم في تدريس الطلاب وتخصص الأطباء كتب وكراريس ومراجع طبية كما كانت تصدر موسوعات طبية خاصة ، مما أتاح في تلك الأزمنة البعيدة الامكانية للاطباء الآشوريين - البابليين في تصنيف علوم تحديد الأعراض والأسباب والتشخيص ، والتنبؤ بالأمراض وعلاجها (سيمبتوماتالوجيا الأثيولوجيا والدياغنوزتيكا والبروغنوز).

لقد منع رسمياً في بلاد أشور وبابل فتح الجثة لغرض دراسة علم تصنيف الأعضاء (أنتوميا) لدى الانسان ، إلا أن الأطباء هناك أوجدوا لنفسهم طريقة أخرى لزيادة المعارف في تخصصهم ، فقد كانوا يذهبون الى ساحة الحرب حيث تمكنوا من دراسة اتوميا الانسان على جثث القتلى وفي الوقت ذاته قاموا بعلاج الجرحى واجراء العمليات الجراحية لهم وتضميد الجروح وغيرها . وهكذا ولدت تدريجياً الجراحة الميدانية (الطب العسكري) . وكان للادوية المستخرجة من الأعشاب والمنرالات ومواد الطعام والخضار والفواكه انتشاراً واسعاً هناك حيث بلغت كمية الأدوية المستخرجة من الأعشاب المئات .

وبهدف التداوي استقدمت أنواع مختلفة من النباتات بما في ذلك النادرة منها . كما جلبت أنواع أخرى ليس من الدول المجاورة فحسب بل ومن المسافات البعيدة جدا . أما الأنواع المحلية الأخرى فقد زرعت في حواكير خاصة . وكانت الأدوية المحضرة تمنح للمريض بوصفات طبية خاصة .

كما أعار الأطباء الآشوريون - البابليون اهتماماً كبيرا بأمراض

الحمية ، فقد كانوا يصفون لمرضاهم المحتاجين لطعام الحمية الفواكه كالتفاح والأجاص ، والخضار كالبصل والثوم والشمندر والجزر والحنطة الرومية وكذلك مختلف أنواع السموم والعصير والشراب • والأدوية الأكثر رواجاً كانت الزيوت وسحلب الفواكه وشراب الخمائر والدبس وشراب مستخلص الشعير وغيرها • ومما سبق ذكره نرى أن الوصفة الدوائية المعاصرة تعود بجذورها الى عمق آلاف السنين•

وبالاضافة للنباتات استخدم في تصنيع الأدوية مختلف أنواع الأسماك النهرية والبحرية ، ودم الحيوانات ، والحليب والقشطةواللحم والدهن وعظام الحيوانات والبيض والطيوروعسل النحل والأحجار الكريمة والجص والكلس والكبريت والشب والنحاس والأملاح المعدنية والقصدير والصوديوم •

وكان يعتبر الأطباء البابليون أن أحد أسباب المرض هو نشاط الأرواح الشريرة

أما مايخص الجن التي يزرع المرض في نفوس الناس فكانت تطرد بواسطة التعاويذ والجمل السحرية وصنع الأيقونات والتماثيل لها •

ويورد العالم السوفييتي س • توكوريف إحدى هذه التعاويذ التي تقول : هم سبعة ، هم سبعة

في هاوية تحت الأرض هم سبعة
في جوف الأرض ، نبتوا من الهاوية
ليسوا من الجنس المذكر ولا المؤنث
هم أعاصير مدمرة وزوبعة
لا يأخذون نساء ولا يلدون أطفالا مرضعة

لا يعرفون الرحمة ولا الشفقة
ولا يصغون الى صلوات الشفاعة .

وإن لم يجد كل ذلك نفعاً ، يتوجه الطبيب أو الكاهن أو حتى المريض بذاته الى آلهة الشفاء . ومن بينها غالباً ما يذكر اسم إله النار غيرو الذي كان يطهر بلهبه الانسان ويطرد منه المرض والجن والآلهة غولا ـ ام الانسانية والآلهة باو ـ الطبيب الأعظم والتي وهبت الحياة وعالجت الأنس بلمسة من يديها والآلهة عشتار ـ آلهة الخلق والولادة والشفاء . كما لم تنس عادة ذكر أسماء آلهة أخرى مثل مردوخ وزوجته ساربانيتوم ، وكذلك الآلهة نوسكو ونينغيرسو ونابو وشماش وسينا الذين كان يجب عليهم أن يقوموا بالتضرع ، والابتهال للاله أنو ليرسل العلاج ولينعم بالشفاء .

غير أن ذلك هو عمل الأرباب بالآلهة . أما الأطباء فكان عليهم في نهاية المطاف حل معضلات دنيوية كمعالجة المرضى . ولهذه الغاية كان لدى الأطباء الآشوريين والبابليين عدد غير قليل من الوسائل والأدوات مثل : المشارط والمنشار الطبي والملاقط والعدسات الطبية للذين كان بصرهم ضعيف والابر العلاجية ومبارد صغيرة وشاش وجبائر جاهزة وتدخين الكدمات والضماد ... الخ .

وقد مورس بشكل واسع في الطب الآشوري ـ البابلي تدليك الأرجل والصدر والظهر والقسم العجزي ودهن العضلات بمراهم مختلفة . وإذا كان ذلك لا يجدي نفعاً ، كان الطبيب ينصح المريض بممارسة التمارين الرياضية .

لقد جلبت المهارة للاطباء البابليين صيتاً واسع الانتشار في كل المشرق القديم . فقد كانوا يدعون الى بلاد مجاورة . وقد رافق

الأطباء البابليين دائماً في بلاد أشور وبابل الى مصر والمملكة الحثية وسورية وفينيقيا إله الطب نينغيشزيدا وهو على شكل ثعبان ملتف على صولجان إن رمز الطب هذا هو أقدم من الرمز الاغريقي بمالا يقل عن ١٥٠٠ سنة كاملة .

من المعلوم أنه بعد سقوط بابل عام ٥٣٩ ق.م تحت ضربات الملك الفارسي كير (من سلالة الأخمينين) توالى على احتلال هذه

ماالذي حل بالبابليين ..؟

المدينة ومجمل بلاد بابل مختلف الغزاة الذين استمروا في بلاد الرافدين حقبة طويلة من الزمن . وحل اسكندر المقدوني والسلوقيون محل الأخمينيين ، ثم جاء الأرشاكيون وتلاهم الساسانيون ثم أزيحت السلالة الساسانية على يد العرب المسلمين الذين سكنوا بلاد الرافدين منذ القرن السابع الميلادي . لقد اضمحل البابليون تدريجياً سواء بسبب الحروب أو الامتزاج مع الأجناس الأخرى إلا أنهم لم يبادوا عن وجه الأرض ويعتبر العلماء أن معتنقي مذهب ماندي (★) العرفاني في العراق هم أحفاد البابليين القدماء .

ويتفق الباحثون أساساً في هذا الموضوع حول دخول عناصر كثيرة من ديانة الاشوريين ـ البابليين وآثار عديدة لثقافتهم في تعاليم

(★)المانديون هم أصحاب مذهب ديني ظهر على ضفاف الفرات وتتشابه وجهه نظره مع كثير من المذاهب المسيحية في العرفانية والتنسك .ووفقا لتعاليم الماندية إن وجود الانسان مهدد من قوى الشر التي حجبتها قوى الخلق النيرة وأحد حاملي النور الى العالم هو ماندادغالي (وباسمه سمي هذا المذهب) ويعني جوهر الحياة . ويقدس المانديون يوحنا المعمدان كرسول بين الطريق الى مملكة النور ـ المترجم .

يعتقدون أنه يجب اعتبار المانديين من أحفاد البابليين القدماء، ويتمتع الرئيس الروحي لهذا المذهب (الكاهن الأول) بسلطة دينية ودنيوية كبيرة على أبناء قومه ويقودهم من خلال الكهنة .

والسمة الرئيسة لهذه الديانة هي عبادة النجوم ، حيث يحتفلون بأغلب أعيادهم ليلا على ضوء النجوم التي يسمونها « النور الأول أو النور الأزلي أو الاله بحد ذاته » .

وفي أثناء الصلاة يتجه المانديون نحو نجم القطب وينفون الوهية يسوع المسيح ويعتبرونه رسولا كاذباً ويفتخرون بأن إلههم المقدس أنوش قد كشف أمره . كما أنهم يؤمنون بأن أنوش قد ظهر على الأرض أثناء حكم الملك بيلاطس وقد شفى المرضى وأبصر العميان وأقام الموتى من قبورهم وبعد ذلك ذهب الى الجنة حيث يبقى حتى يوم الاخرة حينئذ يعود لينقذ الأناس الذين وقعوا في الخطيئة .

وفي الوقت ذاته يقدس المانديون يوحنا المعمدان أيضاً ويعتبرونه بطريركهم الأول والكهنة هم ممثلونه على الأرض . وقد دونت التعاليم الأساسية لديانة المانديين في عشر كتب وأقدمها كتاب سيدر (**) الرب وسيدر يحيى وهو كتاب يوحنا المعمدان مع الأناشيد والتراتيم ، وكتاب كولاستا وكتاب ديوان وهو خاص بالتراتيل . كما يوجد بين هذه الكتب العشرة كتاب عن الفلك وكتاب للصلوات والأناشيد والطقوس وغيرها .

وفي سيدر ربا (نجم الرب) ترد قصة « العالم منذ خلقه وحتى ٧٠٠٠ سبعة آلاف من عصرنا » . ويؤكد هذا الكتاب أنه

(**) سيدر Sidoris ومعناه المنجم ـ المترجم ـ .

في البدء كانت المعمورة مكونة من عالـم النور وعالم الظلمة وقد عاشت في عالم الظلمة المغمور بالميـاه السوداء الروح الشريرة (الجنية روخـا) وفي أحد الأيام زار عالم الظلمـة هابيل (ابن جوهرالحياة) الذي عبر هذه المياه السوداء وسيطر على قواهـا وقيدها بسلاسل ثقيلة • وقـد ولدت الجنية من هابيل ابناً دعوه أور وظهر لدىأور وأمه اثنا عشر كوكباً ومجموعة نجميـة (زودياك) • وبعد ذلكظهر من عالم النور مخلوق باسم أباتور الـذي أمره هابيل بتحويل المياه السوداء الى جماد وقد شاركت روخا في ذلك أيضاً • وهكذا وفق تعاليم ديانة المانديين تم خلق هذا العالم •

أما هابيب فقد جعل أبنـاء روخا شمساً وقمراً وكواكباً أخرى • بعد ذلك صنع جسـد آدم الذي نفث هابيل فيه الروح منخزينة الحياة • وذلك ممكن لاناس مختارين فقط ، أما الانسان العادي فيجـد خلاصة في خدمة شعبه • والاصغاء الى الكهنة والايمانبعادات وتقاليـد عشيرتـه فحسب • ويحاول الكهنة تعزيز هذه الفكرة في أوسـاط المؤمنين كي لا تتاح لهم الفرصة للاختلاطبالشعوب الأخرى ومن ثم فقدان مصدر عيشهم • وكمـا نرى من هذا المثال أيضاً أن العلاقة بين المانديين البسـطاء وبين كهنتهم هي نفس العلاقة بين الأغنياء والفقراء •

وتتشابه معابدهم في كل مكان إذ أنهـا تصنع من القصببعرض أربعـة أمتار وطول خمسة أمتار دون سقف كي تتسنى لهم رؤية السماء • وتطلى الجدران بالطين وتفتح فيها نافذتان احداهما الى الشرق والأخرى الى الغرب وباب من الجهـة الجنوبية •وفيوسط المعبـد يبنى مذبح من الغضار والى جانب هذا البناء يحفر مسبح

الانفصال • وكما تم ذكره يحتفل بالأعياد هنا ليلا على ضوء النجوم• واليكم كيف يحتفل الماندييون بعيدهم الرئيسي « بانشو » كما يصف ذلك المبشر الأمريكي ي• سويمر :

« قرابة منتصف الليل يتجه عباد النجوم رجالا ونساء الى ضفة النهر حيث يوجد المعبد الذي بني لتوه وهنا يدخل واحدهم تلو الآخر الى هذا الكوخ الصغير من الجهة الجنوبية للمعبد ويرتدون فوق المستنقعات « الرستا » وهو لباس أبيض مقدس ويتجهون نحو الأماكن الخالية ويجلسون على الأرض أمام المعبدويحيون الموجودين بكلمة « فليباركك الرب » ويجاب لهم « بركات الرب عليك أيضاً » هكذا يجلسون خاشعين ساكتين وأحدهم بجانب الآخر صابرين ينتظرون خروج موكب الكهنة •

ويقف أمام مدخل المعبد كاهنان في يد كل منهما فانوس ، لا يغضان الطرف عن الدب الأكبر منتظرين اللحظة التي يأخذ فيها الوضعية التي تشير الى منتصف الليل فيرفع كل من الكاهنين فانوسه مشيراً الى حلول ذلك•

وبعد دقائق يبدأ الاحتفال الذي ينتظره المؤمنون فيخرج الموكب الروحي يتقدمه أربع شمامسة يتلوهم أربع قساوسة في خنصر كل منهم خاتم من الذهب وفي أيديهم عكاز مصنوع من شجر الزيتون على شكل صليب ثم يخرج هؤلاء القساوسة الكاهن الأول المختار من قبل زملائه والذي يكون قد تنازل كلياً عن كل ملذات الدنيا ويخرج خلفه أربع شماسة آخرين ـــ أحدهم يحمل العكاز الأكبر أو الصليب الأكبر غانزيفرو والآخر يحمل الكتاب العظيم سيدرربا والثالث قفصاً يحوي على حمامتين والرابع يجلب قدراً من حبوب القمح ، والسمسم • ويتحرك الموكب بين صفوف المصلين •

يزيح الكاهنان الواقفان على مدخل المعبد ستارة الباب ويندفع الموكب الى الداخل ثم يوضع الكتاب المقدس سيدرربا على المذبح ويأخذ الكاهن الأكبر حمامـة حية من الشساس ويرفع يديه باتجاه نجم القطب مطلقاً إياها مع كلمات : « باسم الحي القيوم فليبارك النور البدائي ، النور الأولي ، صاحب الخلق الالهي » .

بعد ذلك يقف كل المصلين خلف الستارة بلباسهم الأبيض ثم يهبطون راكعين أمام نجم القطب الذي تأملوه ساكتين ... وعندما تنتهي المراسـم الدينية يقف الكاهن الأكبر في المعبد وينحر الكبش وينتظر حتى يسيل كل دمه ثم يوزع لحمه على جميع الموجودين في الكنيسة . ويجب أن تنتهي كل التراتيل قبل أن تبزغ أشعة الشمس في السماء » .

أن يصبح المرء كاهناً ذلك أمر صعب جداً ، إذ يجب عليه أن أن يتدرب على ذلك مدة ١٢ سنة وأن يبرهن على نقاوة دمه حتى ثلاث أجيال قبله ــ خصوصاً أن الكرسي الروحي يتناقل من جيل لآخر في الأسر ذاتها . وتمتد سيامة الكاهن الأكبر عـدة أيام وتترافق بمجموعة من المراسم التي يدخل في عدادها تعميد المسام في النهـر عدة مرات وكذلك تعميد موتاه بشكل رمزي وذلك يعني التنـازل الكلي عن ملذات الدنيا . ومن الجدير بالذكر أن الوجوه الروحية لدى المنديين يمكن أن يكونوا من النساء أيضاً كما كان لدى البابليين القدامى .

ويتمسك المانديون بدقة متناهية في سكناهم وكل مجالات حياتهم بالتعاليم والمراسيم المنقولـة لهم من قرون عديدة غابرة ، وتعتبر مخالفتها بالنسبة لهم خطيئة عظيمة ، إذ أنـه جاء في الكتب المقدسة قوله :

« ينقذ روحه ذلك الذي يحافظ على ولائه لعادات وتقاليد المشاعة »

لذلك يقطن المانديون بشكل دائم على ضفاف الأنهار ، كي يتمكنوا من القيام بالاغتسال بعدد المرات المكتوبة لديهم في المياه الجارية . إنهم لا يأكلون لحم البقر والثيران والجواميس والخيل إطلاقاً .

كذلك حافظ المانديون على مدى قرون عديدة على طقوس دفن الموتى فهم يودعون الميت ووجهه نحو نجم القطب ويلفونه بثوب أبيض ويضعونه في قفص كبير مصنوع من أغصان الصفصاف . والفقير منهم يقوم بإطعام الحضور مرة واحدة بعد الدفن . أما الأغنياء منهم فيقومون بذلك في اليوم الثالث أيضاً والسابع والخامس عشر والثلاثين والخامس والأربعين وفي اليوم الستين للوفاة .

أما ما يخص العادات المتبعة في احتفالات الزواج لدى المانديين فما زال كما كان عليه منذ آلاف السنين . حيث يرسل الشاب وفداً للمخطوبة الى أهل الفتاة . فيتفقون على المهر وفي اليوم التالي تذهب قريبات الخاطب الى الخطيبة ويجدلن في شعرها ثلاث نقود ذهبية ويلبسنها الخواتم الفضية والذهبية ويدهن يديها بالقرمز ويغمس قدميها في الحنة .

لقد كان البابليون القدامى يقومون بمثل هذه الشعائر ومن الممكن جداً أن ما لديهم الآن من عادات وتقاليد متوارثة فهي تأخذ بداياتها من تلك الأزمنة الغابرة بالذات . والعرس لديهم يمتد ثمانية أيام كاملة بمشاركة الكهنة ومع وجوب غسل العروس والعريس في النهر دون ريب .

من المدهش أنه الى أي درجة حافظ المانديون على طقوسهم وعاداتهم دون أي مساس . لقد حافظوا على لغتهم أيضاً التي قلما تأثرت باللغات الأخرى المحيطة بهم . ففي تجمعاتهم يتكلم المانديون بهذه اللغة فقط

رغم أنهم يعرفون اللغــة العربية بطلاقة • وتعتبر المناطق الجنوبية في العراق ومناطق نهر كارون في إيران هي الأراضي الأساسية لسكناهم وإقامتهم الآن والتي يصل تعدادهم فيها الى ستين ألف نسمة• ويشتهر المانديون كصاغة مبدعين ونجارين ماهرين وبنائي سفن وجبانين متفننين أي أنهم يمارسون بإتقان كل ما أشتهر به البابليون القدامى •

وبعد الكوارث والتقلبات التاريخية وبعد بضع آلاف من السنين خلت سقوط بابل صد هذا التجمع الصغير « المانديون » المتبقى من البابليين حملات الغازين بحراً محافظاً بذلك على جزء معين من ميراثه القديم وحاملا إياه مع تحديثات طفيفة الى أيامنا الحاضرة •

ــ المكتشفون الأوائل لمدينة بابل ــ
المدينة المنسية من قبل الالهة والبشر :

تتذكرون أننا كنا غالباً ما نقارن التوراة بالواقــع ونبين أن واضعيها اقتبسوا الكثير من الحكايا من الشعوب المختلفة • والآن نرغب بأن نبدأ لكم هذه الفقرة من الكتاب بنبوءات الرسل التوراتيين والتي ــ كما يؤكدون ــ كانت تصيب دائماً • ولنأخذ نبوءة ايشاعيا عن الهلاك الشامل والأبدي لبابل ، حيث يقول : « بابل هي زينة المملكة وفخر الكلدانيين وستهلــك بقدرة الرب كما هلكت سادوم (★)

(*) سادوم ــ هي احدى المدن الخمسة التي أحرقتها النار التي نزلت من السماء بسبب خطيئة أهلها العظيمة . وهي مضــرب الأمثال ، كما أن الخطيئة السادوية (الساديــة) اخذت تسميتها من كلمة سادوم . تهدمت هذه المدينة نتيجة البراكين والزلازل التي اجتاحتها وتقع انقاضها تحت الميــاه في جنوب بحر المبيت ــ المترجم •

وعامورة (**) لن تسكن أبداً ولن يكون فيها أي جنس من الأجناس ولن ينصب العربان مضاربهم ولن يستريح الرعيان بقطعانهم فيها . بل سترعى فيها وحوش الصحراء وستملأ بيوتها البوم وستسكنها النعام وستجول فيها الحيوانات الغبراء ستضج قصورهم بعواء ابن آوى وملاهيهم بالضباع » .

إلا أن البشر أخذوا يفكرون بطريقة أخرى ، فراح العراقيون يبعثون المدينة من الأطلال ويحولونها الى مدينة متحفية والى إحدى كبريات المدن السياحية في الشرق العربي . ولذلك وعلى مسافة مئة كيلو مترا الى الجنوب من مدينة بغداد الحالية وبالقرب من مدينة الحلّة . بدأت أعمال الترميم لاعادة الحياة لمدينة بابل الأسطورية والتي كانت تعتبر المركـز السياسي والثقافي والاقتصادي لدولة بابل إحدى أقدم دول العالم . لقـد عاش في هـذه المدينة وفق تقديرات العلماء ما يقارب مئة ألف نسمة . ويخطط لاعادة تشييد الحدائق المعلقة وبوابة الآلهة عشتار ومعبد مردوخ وبرج بابل الشهير والمسرح اليوناني المبنى على عهـد اسكندر المقدوني . ويستخدم الباحثون في ترميم هذه الابداعات معطيات المؤرخين القدامى أمثال هيرودوت الذي يخبرنا بدقـة عن أن ارتفاع برج بابل بلغ سبعين متراً ، ولكي تبدأ هذه الأعمال كان لابد من اكتشاف بابل وتحديد موقعها بدقـة ورسم حدودها ، مما لزم لذلك عشرات السنين . إذ أنه بعـد نقل عاصمة السلوقيين من بابل الى سلوقية أخذت المدينة القديمة تتضاءل بسرعة

(**) عامورة ــ اسم كنعاني معناه غرق ــ وهي بلدة في غـور الأردن دمرها ملك عيلام ، ثم تدمرت نهائيا بسبب غضب الله عليها من الفسـاد الذي وجد بين أهلها . ويظن انها غمرت بمياه بحر الميت عند وادي العسال ــ المترجم .

وتتحول الى خراب شامل • وقد ساعدت السلالات الفارسية : كالأرشاخيديين والساسانيين وكذلك الغزوات العربية المتعاقبة على بابل في القرن السابع الميلادي على اضمحلال كل ذكرى عن مدينة بابل تدريجياً وأخيرا حلت تلك اللحظة التي نسي فيها كثير من الناس أين كانت تقع مدينة بابل ولم يبق سوى التوراة التي « تجلدها بالسيان » وتذكرها باحتمالات مختلفة دون أي حياء في التعبير عن ذلك •

وتعتبر مدينة بابل حسب آراء واضعي التوراة مدينة « ضياع العالم » حيث تمت « البلبلة » وكذلك بالعكس عمل الكثيرون من أجل نشر المعلومات الحقيقية عن بابل وسكانها مثال ذلك « السائح » العظيم في الأزمنة الغابرة « شيخ التاريخ » هيرودوت وكذلك سترابون وتيودور الصقلي وغيرهم •

ولكن بغض النظر عن كل ذلك راحت ذكراها تضمحل شيئاً ، فشيئاً ولم يبق منها على مشارف القرن العشرين سوى قرية صغيرة •

ففي عام ١١٦٥ م زار الجوالة الاسباني ب • التوديللي هذه المنطقة وكتب بأن بابل هي أطلال مدينة مهدمة على مساحة ستين كيلو مترا مربعاً • إذ تقع هناك أطلال قصر نبوخذنصر • وفي بداية القرن السابع عشر الميلادي وصل الى هذه الأطلال الرحالة والتاجر الايطالي ب • فاللي وجلب معه الى إيطاليا رقيمات فخارية مكتوبة بالخط المسماري إلا أن أول وصف لأطلال بابل وضعه وكيل الشركة البريطانية أوستن هند في بغداد السير ك • ريج •

كما عمل في هذه الأماكن الرسام الانكليزي المشهور ر • بورتر الذي وضع خلال سنوات ١٨١٧ ـ ١٨٢٠ م رسومات عديدة عن أطلال بابل القديمة •

وقد لفتت مواد كل من ك • ريج و • ر • بورتر انتباه مكتشف

نينوى عاصمة بلاد أشور الباحث العريق غ• ليبارد ، الذي قام سنة ١٨٥٠ بحفر عــدة أماكن في تلال الأراضي الواقعة ضمن حدود بلاد بابل القديمة • إلا أن غ• ليبارد لم يعثر هنا لا على التماثيل ولا على النقوش الأثرية ، كما كان يتوقع بل عثر العمال فقط على « رقيمات فخارية »وأشكال نصبية وأختام الخ •

أوقف غ • ليبارد المصاب بخيبة أمل أعماله التنقيبية وحل محله منقبون ألمان وأعظمهم كان العالم ر • كولديفيه •

ففي البداية قام ر • كولديفية برحلة استكشافية الى تلك المنطقة واليكم ما يكتب عن ذلك إ•كلينغل ــ براندت : « إثر عودتــه الــى برلين مباشرة دعا كولديفيه للقيام بحفريات في تلال بابل حيث عثر هو كما عثر ليبارد من قبله على أجزاء من نقوش مطلية بالخــزف تعتبر حسب رأيه زينة لبنا ءهام ومما كان لــه تأثير مبــاشر علــى القيام بالحفريات أيضاً ان أهمية اسم هذه المدينة أخذت تجذب إهتماماً أكثر فأكثر • فكان أن أخذ مجمع الاستشراق الألماني المؤسس قبل ذلك الوقت بفتــرة قصيرة على نفقــة بعض الوجوه والشخصيات الاجتماعية وكذلك الصندوق الامبراطوري على عاتقه مهمة تمويل التنقيبات وأوكلت الى روبيرت كولديفية رئاســة هذهالبعثــة وفي آذار سنة ١٨٩٩ توجه مع فالتر اندريه ومعاونين آخرين الــى منطقة العمل •

وبعد انطلاقهم من حلب اجتازوا مع القوافل البادية السورية متجهين نحو مدينة بغداد • وفي تلك الأزمنة كان على المنقبين أن يتعلموا بالاضافة لاختصاصهم فن ركوب الخيل واستعمال الأسلحة النارية ، إذ أنهم كثيرا ماكانوا يصطدمون مع محاربين من البدو الرحل »•

وقد ترك لنا ف • أندريه في مذكراته وصفاً مسلياً لهذه الرحلة

التي طالت ستاً وعشرين يوماً : « لقد تحركت قافلتنا المؤلفة من ٣٠ دابة تقريباً في مسيرها وكانت الأجراس الكبيرة المعلقة في رقاب البغال تصدر ضجيجاً مزعجاً للغاية • لقد ركبنا البغال طوال النهار وعند الساعة السابعة مساء والوقت ليلا ممطراً وصلنا بأوساخنا الى الخان (دار للاستراحة) حيث كانت المياه متوفرة • ففي غرفة ذات جدران طينية فرشنا فراشنا السياحي ونمنا بشكل جيد • وفي الصباح حيث الظلام كان ما يزال يخيم لم يكن باستطاعتنا فك عقد البغال والخيل المربوطة وفي التاسع من شباط تحركنا نحو دير حيفا بمحاذاة الأراضي السهلية وفي أثناء الليل كان الصقيع يغطي الأراضي كلياً وفي إحدى المرات انخفضت درجة الحرارة الى ٤ ـ ٥ درجات مئوية تحت الصفر وبكلمة ، كانت الفروقات الحرارية بين الليل والنهار تصل حتى ٢٠ م° » •

بعد اجتياز جملة من الصعوبات وصل أعضاء البعثة بسلام الى بغداد وبعد عدة أيام من الاستراحة هنا توجهوا الى بابل الواقعة على بعد يقارب مئة كيلو متراً ، ولزم لاجتياز هذه المسافة مدة ثلاثة أيام أخرى •

كان ر • كولديفيه مهندساً معمارياً وقد وصل الى بابل وهو ذو خبرة وتجربة بالتنقيبات إذ انه شارك في دراسة المعبد الاغريقي القديم وفي عدد من البعثات الأثرية الى الشرق الأوسط • إلا أنه هنا في بابل عثر على عمل يكفيه مدى حياته • وتحت قيادة كولديفية بعثت في مدينة بابل الحياة الجديدة ، وهكذا تكلمت الأطلال وراحت تبوح لنا بأسرارها •

لقد بدأت الحفريات من أحد المعابد والمسمى بمعبد القصر والذي كان يسدل الستار على جزء من المنشآت الدفاعية وكذلك قصر نبوخذ نصر

(من طرف البرجين الشمالي والجنوبي معاً) • وكانت الكميات الهائلة من حطام القرميد المغطي بالنقوش تدل على أنه في هـذا المكان كانت تشمخ في يوم ما بناية رسمية عامة • وفي ٥ نيسان ١٨٩٩ كتب كولديفية بهذا الصدد لأحد أصدقائه : « لا زلت أحفر أربعة عشر يوماً متوالية وقد تمكنت من هذا المشروع كلياً أنت تعلم بأنني اقترحت بدء الحفريات من القصر لقرميده المنقوش والآن عثرت عليها •

يتألف القصر من برجين مستديرين وقد زين الشمالي منهما بالنقوش ، لقد بدأت العمل منه ، إذ أنـه محاط بجدار ذو قياسات ضخمة • وقد بني الوجه الخارجي له من القرميد المشوي والمبنـي بالاسفلت وقد مليء الجدار من داخله بالرمل النهري ، وقد كانت سماكة الواجهة الخارجية لجدار القرميد نحو سبعة أمتار تقريباً وسماكة الرمل المردوم لا زالت حتى الآن بحدود عشرة أمتار • وبالتالي كانت سماكة الجدار تزيد عن ستة عشرة متراً تقريباً ، وحتى الآن لم أصادف في حياتي مثل ذلك أبداً » •

وقد لاقى الباحثون من الصعوبات في بابل مالم يلقوه في مكان آخر مطلقاً وقد وصفهـا كولديفية بتعبير صادق جدا : « إذا كان كثير من الأطلال الانتيكية مغطاة بأكوام من الحطام والأوساخ والتي يصل ارتفاعها من مترين الى ثلاثة أمتار وأحياناً الى ستة أمتار فان ما يجري هنا هو إزالة أكداس الحجارة بارتفاع اثني عشر متراً وأربعة وعشرين متراً • إن سعة انتشار الحطام تسـاوي تماماً لمجمل هـذه المساحة الشاسعة والتي كأنها لم تسكن أبداً » •

ولقد كتب إ. أكلينغيل ـ براندت بأن المنقبون قـد كوفئوا على جهودهم باكتشافهم لتماثيل أثرية رائعة • « بعضها كان معروف من خلال التوراة أو من خلال وصف المؤلفين القدامى ، أما العثور على

البعض الآخر فكان مفاجأة تامة . ومن بين هذه المنشآت الشهيرة التي لفتت انتباه العالم وأثارت الاهتمام لدى الجميع كانت الحدائق المعلقة وبرج بابل الشهير . وفي النتيجة لم ينقب عن مابناه الملوك كالمعابد والقصور والحصن فحسب بـل وكذلك الأحياء السكنية مما ساعد على تكوين تصور واضح عن حيـاة سكان العاصمة . لقد عثروا فيها على أدوات الاستعمال المنزلي والزينة وغيرها وكذلك على مئات المدافن مما يقدم صورة عن طقوس الدفن وكيف أن أولئك الناس كانوا يحضرون لأنفسهم الاقامة في المدافن . لقد نقب ر . كولديفية بشكل رئيسي بابل عهد نبوخذنصر الثاني أي القرن السادس قبل الميلاد في مرحلة العظمة والمقدرة الكبرى لهذه المدينة ... وفي مجرى التنقيبات تمت دراسة طبقات في بعض الأماكن أقدم من ذلك بكثير تعود الى الألف الثاني قبل الميلاد إلا أن المياه الجوفيـة أعاقت التنقيب عنها بشكل مفصل . لذلك نستطيع الحكم على مرحلة حمورابي فقط على أساس الاكتشافات المتفرقة التي تمت بالصدفة .

لقد توقفت التنقيبات الألمانية فجأة في العراق بسبب التدخل الانكليزي أثناء الحرب العالمية الأولى ومن المساحـة الشاسعة للمدينة كانت قد تمت حتى ذلك الوقت دراسة الأماكن الهامة فقط . وبعد الحرب العالمية الثانية قامت مؤسسة حفظ الآثار العراقية باجراء بعض التنقيبات في بابل وكذلك ترميم المباني الرئيسة المكتشفة . لذلك لا زالت مدينة بابل حتى اليوم تجتذب الكثير مـن الزوار ولابد من تقديم الجهود الطويلة الأمد والاعتمادات المالية الكبيرة حتى يتم تنقيب مجمل المدينة ».

لقد كانت المدينة الداخلية أي ذلك القسم الواقع ضمن سور المدينة هو القديم فيها وكان يقع على الضفـة اليمنى لنهر الفرات وهو

بشكل مربع غير منتظم طول ضلعه بحدود الكيلو مترين أما القسم الأقدم من المدينة فكان يقع في الجزء الشرقي منها • وقد أشاد التحصينات هنا الملكان نابو بالاصار ونبوخذنصر في مرحلة ٦٢٥ وحتى ٥٦٢ق م فقد وسعوا المدينة باضطراد حتى وصلت مساحتها الى دائرة بقطر ٨٠كم مثل هذه المساحة كانت تتسع لمدينتي لندن وباريس في بداية القرن العشرين •

ولا شك أن الاكتشاف الرئيسي الذي قام به ر• كولديفية هو القصر كما يسميه العرب المحليون وهو تل ذو تحصينات واسمه إميغور بيل ونامبتي بيل وله حاجز ترابي كبير كانت تسير عليه المواكب حيث تقع بوابة الآلهة عشتار • وفي تل القصر عثر كولديفية تحت طبقات الرمل والحصى على قصور حمورابي وخلفائه • والى الجنوب من هذا التل تم العثور على قصر الملك البابلي نبوخذنصر وقد تم بناؤه من الطوب غير المشوي وقد قال نبوخذنصر في المخطوطة الموجودة في هذا القصر : « لقد وضعت أنا يدي حتى أبني قصراً لتقيم عظمتي في بابل » وبالاضافة لهذا القصر كان نبوخذنصر قد بني قصراً آخر وقد بناه وفق مخطوطته خلال خمسة عشر يوماً فقط •

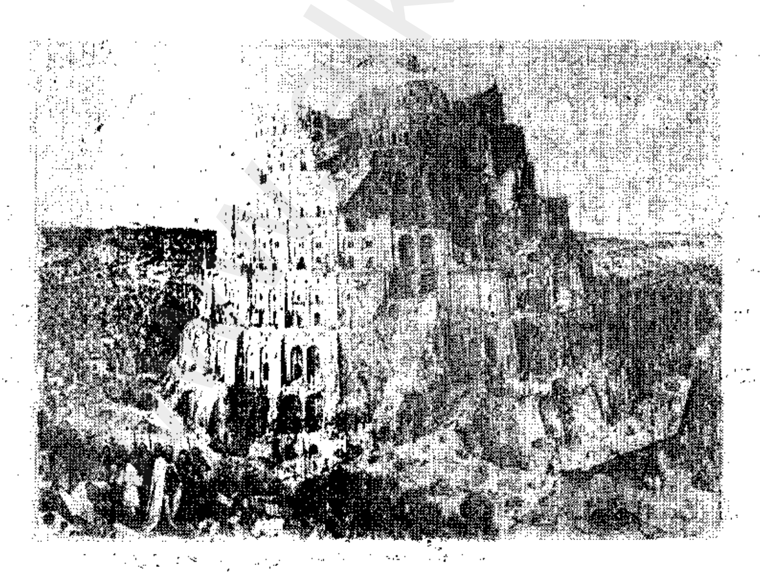
كما عثر المنبقون في الجزء الشمالي من المدينة على قصر ثالث إلا أنه صيفي حيث كانت تقع الحدائق المعلقة ذات الشهرة العالمية الواسعة وكذلك قام المنقبون بالحفريات الى الجنوب من تل القصر في المكان المسمى بتل عمران بن علي • وقد اكتشف كولديفية هنا سنة ١٩٠٠م معبد بابل الرئيسي (إيساغيلو) لقد تم بناء هذا الحرم القديم منذ الألف الثالث قبل الميلاد وهدمه الملك الآشوري سنحريب •

وقد أعاد نابو بالاصار ونبوخذنصر بناء إيساغيلو مرة أخرى • كما كانت تقع بالقرب من الحرم أيضاً الزيقورات وهي برج مدرج ذو سبع

طوابق • كان يصل ارتفاعها الى مئة متر • إن هذه الزيقورات هي برج بابل الشهير • كما عثر الباحثون في أساسات هذا البرج على كتابة مسمارية تقول بأن هذا البرج قد بني لتصل قمته الى السماء •

بالاضافة لذلك عثر كولديفية في بابل على « رقيمات مسمارية » عديدة تحمل رسائل وكتب ووثائق دبلوماسية وقرارات مختلفة ومقولات وأساطير كثيرة •

وبهذا الشكل انتشل كولديفية وزملاؤه مدينة بابل من العدم ووضعوا مقدمات مناسبة للدراسة اللاحقة لثقافة وحياة مدينة عظيمة العراقة • فقد برهنوا كذلك على أن تنبؤات التوراة لم تتم وأن بمقدور البشر بواسطة عملهم الواعي دحض تنبؤات العهد القديم • كما يتم حالياً على أيدي العمال العراقيين انبعاث المدينة العريقة بابل ، التي تنبأ لها نبي التوراة ايشعيا بالهلاك ولكن لم يتم ذلك •



الباب الخامس

الامبراطورية الاشورية ـ بلاد الاله أشور

لقد أخضع فراورت لسيطرته شعوباً كثيرة
حتى شن أخيرا الحرب على الأشوريين
على أولئك الأشوريين بالسبط الذين عاشوا في
نينوى وسيطروا بما قبل على الجميع .
(هيرودوت : التاريخ في تسع كتب)

كيف اكتشف الأوروبيون بلاد أشور

لقد عرف الأوروبيون بلاد آشور قديماً . وتشهد على ذلك المعطيات المتوفرة لدى مؤرخي وجوالة العصر القديم . ويمكن العثور على مواد متعددة عن هذه البلاد لدى الكسندر المقدوني الذي حصل عليها أثناء حملته العسكرية على بلاد ما بين النهرين . كما توجد شواهد عديدة لدى هيرودوت (٤٩٠ ـ ٤٨٠ ـ ٤٢٥ قبل الميلاد) الذي زار بلاد أشور بعد ١٥٠ سنة خلت سقوطها . ولقد قام بوصف لباس وعادات وتقاليد ومهن الاشوريين .

وهناك مؤرخ إغريقي آخر هو السياسي والقائد العسكري كسينوفونت (حوالي ٤٣٠ ـ ٣٥٥ ـ ٣٥٤ ق.م) المشارك في حملة كير الأصغر ضد أرتوكسيركس الثاني (وهو ملك فارسي من سلالة الأخمينيين) فقد كان كسينو فونت أحد القادة الذين أمروا أمروا بانسحاب عشرة آلاف مقاتل من المرتزقة الأغريق من ضواحي مدينة بابل والتمركز في أراضي بلاد أشور للتربص بميديا . فلقد قابل السكان الآشوريين في مدينتي كلخو ونينوى وسمى هاتين المدينتين بأسماء لاريسا وميزوبيلا (*) على التوالي .

(*) وتعني بالاغريقية : لاريسا أي الروح التي تبارك البيت والعائلة أما ميزوبيلا أي بين الشطين ـ المترجم

ففي أثناء حملة الكسندر المقدوني الشهيرة على بلاد الرافدين القديمة ضد الملك الفارسي داري الثالث (داريوس الثالث) ،جرت معركة دامية عند غافغاميلا بالقرب من مدينة أربايلو .

وفي وصفه لحملة الكسندر العظيم كتب المؤرخ الأغريقي إريان « ٩٥ ـ ١٧٥م » واصفاً حملة الكسندر العظيم بأنه بعد أن عبر نهر دجلـة وأراح جيوشه « ٤٠٠ زحف من خلال بلاد أشور ، وكانت على يمنيه جبال الهوردي وعلى يساره نهر دجلـة » .

وبعد احتلاله لبلاد الرافدين أخـذ الكسندر المقدوني يبني المنشآت المائيـة ويرمم القديمة منها مستخدماً بذلك عمل الآشوريين بشكل قسري .

كما وصف العالم الاغريقي الجغرافي والمؤرخ المشهور سترابون (٦٤ ـ ٦٣ ق.م . وحتى ٢٢ ـ ٢٤ ميلادية) عاصمة الآشوريين القديمة مدينة أشور . ففي عمله (الجغرافيا) في ١٧ كتاب اشار الى أن سكان هذه المدينة أعيدوا الى هناك بعـد احتلال بلاد الرافدين من قبل الملك الفارسـي كيرالأول فهم الذين أعادوا ترميم معابد الإله أشور وسجدوا له .

وتجول المؤرخ الاغريقي ديودور الصقلي (حوالي ٩٠ الى ٢١ ق.م) كثيرا وكانت حصيلة تجواله وملاحظاتـه مؤلف « المكتبة التاريخية » . وقد تألف هذا العمل من أربعين كتاباً وصلنا منها كاملة الكتب من الأول وحتى الخامس ومن الحادي عشر وحتى العشرين . وما تبقى وصلتنا مجزءة . فقـد وضع ديودور الصقلي في كتبه هذه تاريخ الشرق القديم واليونان وروما منذ أقدم العصور وحتى القرن الأول قبل الميلاد (. وتحتل المعلومات عن حياة الملكة الاشورية سميرأميدا وعن الحروف المسمارية « الاشوريـة » على

الرقيمات الفخارية مكاناً واسعاً في مؤلفه هذا ، فهذه المعلومات وغيرها من معلومات الفلاسفة والكتاب والشعراء الاغريق وفيما بعد الرومان القدامى عرّفت عالم العصور القديمة على بلاد اشور .

ومن بين الأوروبيين عمل العلماء والكتاب والشعراء الروس كثيرا على نشر المعارف عن بلاد اشور وما بين النهرين . ومع ذلك فان مساهمة الروس في أبحاث بلاد الرافدين القديمة تكاد لايذكرها أحد وإذا ذكرت فبايجاز شديد . لذلك رأينا من المفيد ذكر ماقدمه الباحثون الروس في دراستهم لبلاد ما بين النهرين . وجدير بالذكر بأن مؤلفاتهم المكتوبة عن الحضارات القديمة ظهرت قبل مؤلفات الأوروبيين الغربيين .

فلنأخذ على سبيل المثال الرواية المنسوبة لزمن حكم فلاديمير أمير دولة كييف ـ روس . فكما هو معروف بأن فلاديمير قبل أن يأخذ الأرثذوكسية من بيزنطة معتنقاً لدولته ، فكر ملياً ووزن كل الأمور التي هي « مع » أو « ضد » ذلك . فأرسل سفراء الى دول عديدة من العالم بهدف دراسة الديانات لاعتناق إحداها والتي هي أكثر مناسبة لروسيا . ومن بين الدول والمدن التي زارها السفراء الروس كانت بلاد الرافدين ومصر وروما وأورشليم وبابل . كذلك أرسل القيصر الكسي ميخائيلوفج في مرحلة حكمه سنوات (١٦٢٩ ـ ١٦٧٦ م) الى دول المشرق ناسك « غار ثالوث سيرغي (★) » .

(★) غار ثالثوث سيرغي ـ كان دير للناسكين فيمدينة سوزدال ((حاليا)) وتبعد مسافة ٧٠ كم شمال مدينة موسكو . أسسه سيرغي رادونيجسكي في أواسط القرن الرابع عشرميلادي لعب دورا هاما في الحياة السياسية لروسيا بين القرنين الرابع عشر والثامن عشر الميلادي والان هو المقر الرئيسي لبطركية الكنيسة الروسية الأرثذوكسية وفيه تقع الأكاديمية الروحية والمدرسة الثانوية الدينية ـ المترجم

أ• سوخانوف للتعرف على المعابـد المسيحية • ففي عام ١٦٤٩ م غادر أ• سوخانوف موسكو متجهاً الى الشرق ، زار مجموعة من الدول الشرقية من بينها بلاد الرافدين • وفي أثناء رحلتـه كتب مذكراته اليومية « بروسكينارية » حيث تكلم للاجيال القادمة من بعـده بأنه رأى في هذه البلاد ما أثار مشاعره واعجابه • وتحـدث بدهشة كبيرة عن الجبال والغابات والأنهار في الأرض • ويكتب عن نهر الفرات بأن هذا النهر يجري وسط ضفاف عالية وشديدة الانحدار كما أن مياهه غزيرة جداً •

كذلك رأى هذه البلاد إنسان روسي آخر وهو ف •دوروخين الذي وصلها دون إرادتـه بل كأسير لدى الأتراك وهو « ابن العائلة الحاكمة » لمدينة يلتسا • لقد وقع في الأسر سنة ١٦٦٠ إبان الحرب مع الأتراك ، وبقي في الأسر طويلا ــ مدة ١٧ عاماً ــ وبوصفه أسيراً مطارداً من مكان لآخر تمكن من رؤية كل الامبراطورية العثمانية بما فيها بلاد ما بين النهرين التي كانت تعتبر إحدى محافظاتها «ولاياتها» •

كما انتشرت في الفترة الممتدة ما بين القرنين السابع عشر والثامن عشر الميلاديين اعداد كثيرة من كتب « الكسموغرافيا » وكان أضخم هذه الكتب بعنوان « كسموغرافية العالم والدول العظمى» حيث كرست المقدمة وهي بعنوان « عن الدولة البابليـة » ــ لبلاد ما بين النهرين والحضارة الآشورية ــ البابلية •

كذلك كان لأعمال العالم الروسـي البروفيسور بريوزين ١٨١٨ ــ ١٨٩٦ م المدرس في جامعـة قازان ومن ثم في جامعـة بتربورغ تأثيراً واسعـاً على التعريف بالحضارة الآشورية • فقـد صدر له في أعوام ١٨٤٩ ــ ١٨٥٢ عمل « جولـة في الشرق » ، حيث يصف فيه عثوره على رقيمات مسمارية وبدراسته لها يصل الى استنتاج

مفاده : « إن الرقيمات المسمارية مقارنـة بقدمها وتنوعها وأهمية أماكن العثور عليها ونظراً لأهميتها التاريخية فإنهـا تحتل المكانة الأولى من بين التحف الشرقية بأجملها » .

لقد شغف بريوزين كثيراً بفك رموز الكتابات المسمارية وكتب عمل « النقوش المسمارية في المنظومة الثانيـة » . ويعتبر العلماء هـذا العمل من أهم الأعمال في فك الأحرف المسمارية .

لقد زار بيريوزين دور شاروكين ـ قصر سرغون الثاني حيث تقع الآن قريـة خورساباد . كما أنه أصبحت مكتشفات العالم الأثري الفرنسي ب . بوتا معروفة الآن ويعرض الكثير منها للمشاهـدة . لقد درسها بيريوزين بعمق وتوصل الى استنتاج أن : « هـذه التكوينات تنطق بحيوية لصالح الفن الاشوري، حيث حفرت هنا انتصـارات المحارب الشهير بفن رفيـع المستـوى يزهو على جـدران مدينـة بيرسيوليس حتى لو أن رخاوة الحجر الموصلي يسـهل العمل فيها ؛ وقـد نقشت على بعض القلاع كتابات مسمارية مختلفة وعلى مايبدو أنها تعني أسماء تلك القلاع لذلك إن إمكانيـة قراءة الأحرف المسمارية الآشورية تعتبر محتملة جداً » .

لقد اعتبر العلماء الروس أن المسمارية تخبىء في جوفها ثراء ضخماً وأسراراً كبيرة قادرة على أن تكشـف للبشر ماضيهم وهذا يعني الفهم الجيد للحاضر والمستقبل . ومن بين هؤلاء العلماء يمكن تسمية ف . ديتيل «١٨١٦ ـ ١٨٤٨م » بروفيسور اللغة التركيـة في جامعة بتربورغ . لقد قـام هذا العالم برحلات عديدة الى بلاد إيران وسـورية وتركيا وفلسطين ومصر والى دول أفريقية أخرى . كما قضى فترة طويلة في بلاد ما بين النهرين . في مواقـع مدينة نينوى (الموصل ـ حالياً) ودرر شاروكين المكتشفة من قبل ب بوتا .

وهنا كان من أوائل الرحالـة الذين شاهدوا غنى الملك الآشوري سرغون الثاني. فقـد راح يدرسها واقترح على العالم الأثري الفرنسي بأن اكتشافه لا ينسـب للعاصمة نينوى بل لمدينة ما غيرها . إلا أن بوتا لم يتفق معـه على ذلك واعتبر نفسه مكتشف نينوى واتضح أن ديتيل هو أكثر حداقة وأحق ، إذ أن المكتشفات اللاحقـة للاثري الانكليزي غ. ليبارد اكدت استنتاجه هذا .

أما توقع ف . ديتيل الآخر كان اشارته الى التلال الواقعـة في محلة نمرود على بعـد ٤٠ كم الى الجنوب من مدينة الموصل . فبرأيه أن هذه التلال تخبىء أسراراً أهم من تلك التي اكتشفها بوتا . ففي ملاحظاته التجوالية كتب ديتيل بانـه كان مندهشـاً بالحطام المنتشر على مدار التلال هذه مما دفعه للتنقيب في تل نمرود .

هكذا نرى أن العالم الروسي سبق الانكليزي ليبارد بفترة طويلة في اكتشافه لتل نمرود ، ذلـك التل الذي كانت تقع عليه إحدى أقدم عواصم الدولة الآشورية ألا وهي مدينة كلخو .

وبكل ثقـة يمكن وضع اسـم ن .ليخاتشوف (١٨٦٢ ـ ١٩٣٦) في مصاف أولئك الذين عرفوا روسيا وعالم علمائها بابداعات الشرق وبلاد الرافدين . فمثلا تعتبر أعماله في أصول الكتابة وإشاراتها مرجعاً هاماً في تأريخ التدوين . لقد جمع أجداده أكبر مكتبـة في القرن السابع عشر في روسيا وراح هو يزيد محتوياتها أكثر فأكثر حتى ضمت رقيمات مسمارية (كتب فخاريـة) . لقد وضعت هذه «الكتب الفخاريـة » المجلوبـه من بلاد مابين النهرين تحت تصرف (شيخ الأسيريولوجيا الروسية ن. نيوكولسكي (١٨٤٨ ـ ١٩١٧) الذي جعل روسيا إحـدى المراكز الرئيسة لدراسة التأريخ الاشوري. لقد قام هذا الأخير بعمل ضخم في مجال المقارنـة والتناظر في المسمارية

السومرية والكتابة التصويرية ونشر ما يقارب ـ ٩٠٠ ـ لوحة مسمارية في الحسابات الاقتصادية التي تنسب للالف الثالث قبل الميلاد ، وبدأ يدرس منابع ظهور الكتابة المسمارية •

ومن بين أعماله يمكن ذكر « النقوش المسمارية فيما وراء القفقاس » « وثائق الحسابات الاقتصادية في عصور كلدو القديمة من مجموعات ن • ليخاتشوف » (مهام العلوم الأثرية والتاريخية الروسية في فلسطين ومابين النهرين وفقاً للاحداث العالمية المعاصرة) « بابل القديمة » وكثير غيرها •

كما يمكن ذكر العالم الروسي ف • غولينيشف (١٨٥٦ ــ ١٨٤٧) الذي هاجر الى مصر عام ١٩١٥ وأصبح مدرساً في جامعة القاهرة • ومن أهم كتبه « تجربة وضع جداول المعجم الآشوري » وغيره •

وقد ربطت ف • غولينيشف أواصر صداقة وتعاون وعلاقات حسنة مع المستشرق الروسي الكبير ب •طورايف (١٨٦٨ ــ ١٩٢٠) الذي يعتبر مؤسس المدرسة الوطنية لتاريخ وأدب الشرق القديم • إنه صاحب العمل الخالد كتاب « تاريخ الشرق القديم » كما أن إحدى اكتشافاته هي استنتاجه بأن سكان نينوى وأشور لم يبادوا ولم ينتهوا دون أثر يذكر ، لقد كتب بأن « نينوى واشور لم يمحو عن وجه الأرض كما يروق للبعض الحديث عن ذلك • فبالاستناد للمعلومات الأولية لدى كسينوفونت الذي لا يحدد موقع نينوى في « أناباسيس » يؤكد بأن اشور في حفاظها على تسميتها أثور كانت إحدى المقاطعات الفارسية ومدينة نينوى ظهرت إبان حكم الأباطرة الرومان بشكل مستعمرة عسكرية Claudiopolis Ninevia

ومن جملة الشعراء الروس الأماجد الذين عرفوا روسيا بالتاريخ

الآشوري ـ البابلي نذكر ف . بريوسوف (١٨٧٣ ـ ١٩٢٤م) صاحب قصيدتي « أسر حدون » و« الراعي الكلداني» هاتان القصيدتان ترجمتا الى لغات عالمية عديدة نرد بعضاً من إحداهما :

أسر حدون ، نقش أشوري

أنا قائد ملوك الأرض أنا الملك أسرحدون

إليكم أيها السلاطين والقادة أقول : اللويل

في لحظة استلامي السلطة ،خيم فوقنا « سيدون»

سيدون بطحته أرضاً ورميت الحجارة الى البحر

ولمصر أصبح كلامي قانوناً

وأبنت لعيلام مصيرها بنظرة واحدة

وأشدت عرشي الكبير على عظام الأعداء

إليكم أيها السلاطين والقادة أقول أنا : اللويل

فمن سيسبقني ؟ ومن له أن يكون مثلي ؟

فمآثر الناس جميعها هي كظل في حلم عابر

التفكير بالمآثر هو كتسلية طفولية

لقد اجتثثت حتى القاع كل المجد الأرضي

وهاأنا أقف وحيدا مرتو بالشموخ

أنا قائد ملوك الأرض ،أنا الملك آسرحدون

وهكذا باختصار كان دور العلماء الروس في دراسة بلاد مابين النهرين كما كانت هذه حكاية تأثير ثقافة بلاد اشور وبابل على ثقافة روسيا .

والآن سنتكلم عن العلماء الأوروبيين كيف اكتشفوا بلادالرافدين القديمة . وبودنا قبل كل شيء أن نبدأ ذلك بقصة الايطالي بيترو ديل فاللي الذي جاء ذكره فيما سبق .

ففي عام ١٦١٤ قام ب • فاللي بزيارة الى دول الشرق بـدءاً من تركيا وعبوراً بمصر وإيران وحتى الهنـد • وأثناء رحلته كان يبعث بالرسائل عن انطباعاته الى أصدقائه ومعارفه وحين عودته الى إيطاليا يصدرها في كتب وثقائية •

وفي عام ١٦١٦ زار فاللي بغداد (المركـز السياسي لبلاد مابين النهرين) وطالت زيارته لها • فهناك تعرف على فتاة آشورية تدعى ماريا وأحبها حباً جماً وطال في إقناع أهلها للزواج منهـا •لقدكان أهلها من أتباع الكنيسة الشرقية • إلا أن حياتهما معاً لم تدم طويلاً فقد توفت ماريا أثناء الوضع ، لقد أحبها بتفان حتى أنـه قرر عـدم التخلي عنها حتى وهي ميتة فبطلب منه دهنت جثتها بالبلسم وأخذها معه الى إيطاليا حيث طال طريقه مدة خمس سنوات كاملة •

يعتبر ب • فاللي أحد الأوروبيين الأوائل الذين أشاروا بدقـة الى موقع مدينة بابل وقاموا بعمل ناجـح في فك رموز الأحرف المسمارية •

وكما يلاحظ العالم الألماني إ•دالخوفر : « تشهـد المحاولات المتعددة لاستنباط استنتاجات ما من تكرار بعض الاشارات على أن ب• فاللي ــ طبعاً بشـكل لا إرادي ــ استخدم طريقـة مركبه لفك الرموز ، ونتيجـة لرحلته المعرفية ولمساهمته الأخرى اختير هذا الباحث ليكون ضيف الشرف لدى البابا أوربان الثامن في روما» •

وحين عودته الى وطنـه أخذ فاللي معه « كتباً فخاريـة » ،رقيمات ذات كتابـة آشورية ــ بابلية مسمارية • ونشر إحـدى هذه النقوش في كتابه وللاستطلاع نرد هنا جزءاً منها : ــ



إن ب. فاللي يشر الى اللغة التي تعود إليها هذه الكتابة .
وبعد التثبت من مقاييس رموزها فقط . يقدم افتراضاً بأنها شبيهة بالرموز الأوروبية مفككة الواحدة عن الأخرى وغير متصلة في كلمات وفي أماكن كثيرة في هذه الكتابة تتكرر مجموعة من الرموز .هذه النقوش هي أولى النصوص المسمارية التي تعرف عليها الأوروبيون وأشار ب. فاللي بأنه تجب قراءتها من اليسار الى اليمين .

وفي عام ١٦٣٤ م تتعرف أوروبا ثانية على الأحرف المسمارية في النصب الآشورية ـ البابلية وهي على شكل نصوص مؤلفة من ثلاث سطور نسخت أثناء رحلة الانكليزي ت. هربرت الى الشرق الأدنى . لقد نشر هذه النصوص المؤلفة من ثلاثة سطور في كتابه الذي صدر في لندن . ففيه يحكي هربرت الى جانب انطباعاته عن مشاهداته هناك بأنه قدم وصفاً لمدينة بغداد ومقاطعات أخرى من بلاد ما بين النهرين .

لقد كتب ت. هربرت في كتابه بأن الآثار الشرقية تسرق وتهدم ويجب انقاذها إذا أردنا أن نحافظ عليها للاجيال القادمة .

لقد كان يشجع الولع بالشرق وبالأثريات الشرقية في ذلك الزمن بكل السبل . إن اكتشاف بلدان جديدة وشعوب أخرى لم يلفت انتباه العلماء فحسب بل ورجال السلطة أيضاً ، هذا ماجعل الملك الدانمركي فريدريك الخامس أن يرسل في عام ١٧٦١ م بعثة الى الجزيرة العربية والى بلدان مجاورة أخرى . كانت البعثة مؤلفة من خمسة أشخاص برئاسة ك. نيبور (١٧٣٣ ـ ١٨١٥) ابن الأسقف وأب المؤرخ الشهير المقبل ب . نيبور .

بالاضافة له دخل في عداد اللجنة كل من البروفيسور ف.هافن الأخصائي في اللغات الشرقية والطبيب هـ . كرامير والفنان والخزفي

غ• باورينفايند والبروفيسور ب• فورسكول الأخصائي في التاريخ الطبيعي •

لقد انطلق أعضاء البعثة هذه في بداية عام ١٧٦٠ من كوبنهاغن بحراً الى القسطنطينية ومنها الى القاهرة وفقط في عام ١٧٦٢ وصلوا الى اليمن التي كانت الهدى الأساسي للرحلة وهنا في مدينة مخا تبدأ سلسلة الحوادث المأساوية لديهم فيتوفى أعضاء البعثة الواحد تلو الآخر ففي ٥ أيار ١٧٦٣ يتوفى البروفيسور هافن وفي ١٠ تموز في مدينة بامير يتبعه البروفيسور فورسكول ثم يليهما بالوفاة الفنان باورنفايند بتاريخ ٢٩ آب أثناء إبحارهم الى الهند أما اكرامير فيتوفى بتاريخ ١٠ شباط ١٧٦٤ في مدينة بمباي في الهند وبقي نيبور وحيداً • وبغض النظر عن الألم الذيألم بـه يقرر كرامير متابعة برنامج البعثة وهو الرحلة من بمباي الى البصرة المرفأ الجنوبيلبلاد مابين النهرين ومن ثم الابحار الى الدانمرك عبر مرافيء سورية •

ونعثر عليه مرة أخرى في إيران في آذار عام ١٧٦٥ بين أطلال مدينة بيرسيبوليس العاصمة القديمـة للملوك الفرس والتيأحرقتها قوات الكسندر المقدوني إنه ينسـخ في إيران وفي بلاد ما بين النهرين كل ماهو مدهش من الرقيمات الفخاريـة المسمارية • لقد جمع منها كميات كبيرة فاقت كل ماجمعه العلماء الأوروبيون من قبلـه •

وبعد سنتين من ذلك يصلك• نيبور الى بلاده بسـلام ويجلس ليخط كتاباً عن رحلته ويعد عملا تحضيرياً لنشر مذكرات البروفيسور فورسكول • لقـد اختار لكتابه الذي خرج بجزأين في سنوات ١٧٧٤ و ١٧٧٨ عنواناً « مساهدات رحلـة في الجزيرة العربية ودول مجاورة أخرى » • أما الجـزء الثالث فقد رأى النور بعد وفاته سنة ١٨٣٧ وهو بعنوان « رحلـة في سورية وفلسطين » • ففي بعض

النقوش الفخارية المجلوبة الى الدانمرك رأى نيبور أنــه يوجد ثلاثة أنواع من الخطوط المسمارية وقد اتضح فيما بعد أن احداها نصوص فارسية وأخرى عيلامية وثالثة آشورية ـ بابليــة ويتشابه النوعان الأولان مع الكتابة الآشورية ـ البابلية المسمارية كان ذلك اكتشاف عظيم استخدمه فيما بعــد العلماء الأسريولوجيون في فك رموز الكتابة المسمارية •

وبعد رحلــة نيبور وصل الى بلاد مابين النهرين ـ وبالأحرى ـ عمل فيها أسقفاً لدى الطوائف المسيحية الكاثوليكية أحد الاباء الفرنسيين منذ سنة ١٧٨١ وحتى سنة ١٧٨٥ م • حيث جمع الكثير من الرقيمات والاسطوانات وحطام الجرار وأرسل الجيد منها الى فرنســا •

أما الخطوة اللاحقــة في تكديس المعلومات في أوروبا عن بلاد الرافدين فقــد قام بها « بهلوان الشرق » ـ كما سموه ـ الانكليزي ك•ج•ريج وكيل شركة (أوســت أينديـن كومباني) في بغداد • ففي عام ١٨٢٠ وضع خطــة عمل له بالقرب من الموصل على نهر الدجلة وقام باجراء الحفريات والتنقيبات وعثر على الكثير من الرقيمات «واللوحات الفخاريــة » وغيرها بالاضافة لذلك وضع ريج كتاباً ومذكرات عن بلاد الرافدين •

لقد أيقظت الكتب والمنشورات عــن أثريــات بلاد الرافدين الحكومات في فرنســا وانكلترا والمانيا وفيما بعــد الولايات المتحدة لارسال بعثاتهــا العلمية الى هناك • وعلى إثر ذلك افتتحت الحكومة الفرنسية في الموصل ملحقية قنصلية وعينت فيهــا الرحالة المجــرب والذي يتقن اللغــة العربية ب بوتا الايطالي من تورينو •

كما أن كتب ريج جعلت غ•ليبارد الفرنســي الأصل والبريطاني الجنسية أن يقوم برحلــة الى بلاد مابين النهرين ويطلب من السفير

البريطاني لدى الامبراطورية العثمانية تمويل مشاريع التنقيب عن الآثار في بلاد الرافدين .

بعد موت ريج المفاجىء والمأساوي إثر اصابته الكوليرا قامت أرملته بنشر كتبه ، التي ضمنها نسخ يدوية عن النقوش المسمارية. وعندما طالع العالم الفرنسي يو . مول هذه الكتب وصل الى استنتاج دفعه كي يتوجه الى حكومته يطلب بدء التنقيبات الأثرية لمدينة نينوى عاصمة بلاد أشور الواقعة على مسافة غير بعيدة من مدينة الموصل الحالية .إذ أن مقتنيات ريج تدل على أنه قد عثر عليها وبقي حفرها فقط .

لقد كان استنتاج مول ضرورة إرسال بعثة أثرية فرنسية بصورة مستعجلة الى هناك والقيام باكتشاف بلاد آشور لفرنسا . وقد اقترح أن يترأس البعثة الايطالي ب بوتا الذي كان له سنوات طويلة في فرنسا .

حيث حصل هنا على التعليم العالي وأصبح طبيباً وينهي دفاعه عن أطروحته في دراسة اللغة العربية . وفي أعوام ١٨٣٠ ـ ١٨٣٣ أصبح ممثلا دبلوماسياً لفرنسا في مدينة الاسكندرية وفي عام ١٨٣٦ قام برحلة الى اليمن بتكليف من ادارة حديقة النبات الباريسية . وهكذا ، عندما حان الوقت لاختيار من سيرسل الى بلاد الرافدين فالرأي كان موحداً حول ب بوتا الدبلوماسي المحنك والخبير بالبلدان العربية .

يتجه ب بوتا مباشرة الى الموصل وبعد فترة وجيزة يكون جاهزاً على رأس عمله في أماكن التنقيب . وبعد عدة أيام من الحفر استبانت لبوتا المندهش صالات لمجمع سكني كبير ، بالضبط إنه كما توقع قصر ملكي ولاشك . لقد كشف الخندق المحفور للعالم الأثري مقطعاً

حجرياً منقوشاً على الجدران بصور احتفالات رسمية ولأناس راكعين أمام الحاكم • إن وجود صورة الانسان منقوشة على هذه المقاطع هي التي أثارت الدهشة والاعجاب ، ومن الممكن أن يكون هذا الانسان هو الملك •

لقد كان مصوراً بمقطع جانبي ذو لحية كبيرة سوداء مجعدة جميلة وشعور مسترسلة حتى الكتف كذلك كانت مجعدة • وكان عنده كاسية للرأس كبيرة الحجم تشبه التاج إلا أنها كانت بشكل مخروطي • وقد زينت وجهه عينان كبيرتان وفي شحمة أذنيه حلق ينتهي بصليب معقوف ، لقد افترض ب بوتا أن أمامه أحد الملوك الآشوريين ، أما القصر الذي عثر عليه فهو ديوانه في نينوى •هذا مما دفعه لارسال برقية الى أكاديمية العلوم في باريس يعلمهم بأنه اكتشف نينوى • لقد أثارت اخباريات ب• بوتا ضجة كبيرة في عالم العلوم •

لقد لفتت أعمال ب • بوتا وكتب ربج انتباه الحقوقي الشاب اللندني غ•ليبارد الى نفسها • وهكذا رفع ليبارد أعماله الحقوقية وسافر الى الشرق الأدنى مرتين سنوات ١٨٤٠ و ١٨٤٢ م • وفي عام ١٨٤٥ م بدأ ليبارد أعمال التنقيب عن المدينة الأثرية كالخو (نمرود حالياً) •

لقد كانت العاصمة الثانية لبلاد آشور وتبعد ٤٠كم جنوب ـ شرقي دور شاروكين • وفي اليوم الثالث من العمل حمل العالم ليبارد نجاحاً باهراً ، لقد كشف العمال العرب في أعماق التراب عن تمثال أسد بحجم كبير وذو رأس بشري لقد فروا هاربين من رعبهم وبصعوبة أقنعهم ليبارد ليتابعوا أعمال التنقيب • وهكذا كان بانتظار ليبارد سلسلة من النجاحات في عام ١٨٤٦ وكان أولها صخرة من البازلت

الأسود وقد نقشت عليها خطوط مسمارية ولوحات تصويرية كبيرة ٠ أما الاكتشاف الآخر فكان في مدينة كلخو ٠ حيث عثر على مسلةمنقوش عليها رسم الملك الآشوري شمشي أداد الخامس الـذي حكم فيالقرن التاسع قبل الميلاد ٠ لقد حمل شمشي أداد الخامس على تاجه صورة القمر (الاله سين) ونجمه الآله عشتار (فينوس) ٠ وعدا ذلك كان على صدره صليب مما أثار دهشـة ليبارد وزملائه ، إذ انهميدركون أن الصليب هو رمز الديانة المسيحية وليس رمزاً للوثنيـة ٠ لقد ضب ليبارد هذه الآثار وغيرها بشكل جيـد وأرسلها الى المتحف البريطاني في لندن ٠ كل ذلك بعث السعادة الى قلب ليبارد إلا أنـه يدرك أنه لم يعثر على نينوى لذلك يشتد توقاً نحو الهـدف ، لقد جذبه تل كوينجوك ذلك الركام الضخم بطول يزيد عن ٨٠٠ موعرض ٥٠٠ م وارتفاع ٣٠ مترا ٠ لقد بـدأ التنقيب هنا بالضبط ب ٠ بوتا الذي حفر خنادق عديدة وغير أماكن الحفر باستمرار ولكن دون جدوى ٠

باشر ليبارد التنقيب في كوينجوك وهو يحمل تجربة التنقيب في كلخو فراح يحفر خنادق عميقة ولم يجعلـه النجاح ينتظر طويلا ٠ لم يمضي شهر حتى تمكن من العثور على تسـع صالات من قصر ، لقد كانت مواضيع الاوحات الصخرية من أشخاص وحيوانات وطيور ومناظر أخرى تشبه ما اكتشفه في كلخو كالتوأم ، حينها كان ليبارد أول أوروبياً تطأ قدماه قصر أشور ناصير بعل الثاني وسلمنصر الثالث والآن في كوينجوك أصبح ليبارد أول من دخل قصر سنحريب وشمشي أداد الخامس وأشور بانبعل ٠ إن الملك الآشوري سنحريب (٧٠٥ ــ ٦٨١ ق٠م) لم يرغب بأن تكون مدينة كلخو عاصمة شور وقرر نقلهـا الى نينوى ٠ وإبان حكمه تحولت القرية الصغيرة المتواضعة والمبينة

في الألف الخامس قبل الميلاد الى عاصمة لدولـة عظمى في العصور الغابرة ألا وهي أشور . فقـد ضرب حول نينوى سوراً ضخماً بارتفاع ٣٠ مترا وبطول ١٣ كيلو مترا وله ١٥ بوابة ، ووضـع أمـام كـل منها نصباً لثور مجنح ذو رأس بشري كي يحرسوا الهدوء والأمن في مختارته نينوى ، كما أنه اهتم أيضاً بألا تغرق مياه نهر دجلـة العاصمة في فصل جريان السيول لذلك قام بتحصين ضفاف النهر بقوالب وصخور وحجارة كبيرة ،أما في المدينـة فقد أمرر نهو خوسير الذي كان يجري في ١٦ قناة متوازية ، فليروي ظمأ السكان والأشجار والحدائق بالمياه الجبلية الباردة وألا يغرق المدينة يوماً ما . فقـد شيدت المدينة وشوارعها وبنيت وفق مخطط خاص موثق من الملـك نفسه وقد سمى الشارع الرئيسي فيها بالشارع الملكي فقد كـان عريضاً ومستقيماً زرعت بمحاذاته أشجار كثيرة وكان يؤدي في النهاية الى القصر الملكي الذي ضم ٨٠ غرفة باستثناء غرف الخـدم .

وهكذا تم اكتشاف نينوى على يدي لييارد وتلميذه خ.رسام. وفي عام ١٨٥١ م يصدر لييارد كتابـاً عن ذكرياته أثناء التنقيب بعنوان (نينوى وبقاياها) وفي السنة اللاحقة لاصداره يترجم الى عدة لغات عالمية .

بالاضافة لذلك يصدر هذا العالم كتباً أخرى مثل (نينوى وبابل) المغامرات المبكرة في بلاد فارس وسوزي وبابل . توفي لييارد سنة ١٨٩٤ م عن عمر يناهز ٧٧ سنة وكان من بين مشيعيه تلميذه الآشوري الأصل خ. رسـام الذي أنهى دراسته في جامعة اكسفورد وعاد الى وطنـه في بلاد مابين النهرين الى مدينـة الموصل . وهكذا أصبح أول آشوري مختص بالتاريخ الآشوري (الأسيريولوجيا) وأصبح بإمكانه

قراءة الخطوط المسمارية لذلك يكلفه المتحف البريطاني بمتابعة اجراء التنقيبات في أطلال نينوى •

وهنا يضع رسام لنفسه هدف العثور على قصر دورشاروكين: « دار المواعظ والنصائح » كما سموه حينذاك ، وقلما أعار اهتماماً للوحات الصخرية والنفائس المصنوعة من الذهب والعاج •

كان عليه العثور على مخبأ الحكمة الآشورية ـ البابلية القادرة على كشف أسرار الأزمنة الغابرة لهذه البلاد ،ألا وهي مكتبة أشور بانيبعل ويعثر عليها فعلا • وبغض النظر عما كتب على (الكتب الفخارية) لهذه المكتبة التي ضمت ثلاثين ألف كتاب من تهديد ووعيد وكلام مثل : (كل من يتجرأ على إخراج هذه الرقيمات ••• فليعاقبه أشور بكراهيته وكذلك بيليت ، أما اسمه وخلفاؤه فليطويهم النسيان في هذه البلاد) • وهكذا يدخل خ• رسام هذه المكتبة قبل غيره سنة ١٨٥٤ •

لم يكن رسام رجلا شكوكاً إلا أنه كانت تنتابه دائماً فكرة أشور بانيبعل بالتحذير من إخراج الرقيمات وإخلاء مكتبته كلياً • ومع ذلك كان يرسل باستمرار شحنات من « الكتب الفخارية » الى المتحف البريطاني • وفيما بعد ، ولما أصبح دبلوماسياً انكليزياً لدى الامبراطورية الأثيوبية أمضى أربع سنوات طوال في سجن هذه البلاد لأنـه طلب من الامبراطور الأثيوبي اخلاء سبيل الجنود الانكليز الأسرى لديه، حينها تذكر باستمرار كلام أشور بانيعل •

يدعى رسام بعـد خروجه من السجن للعمل في المتحف البريطاني بصفة حافظ • وهناك يفكر بالكتابة عن مشاركته في التنقيبات الأثرية في بلاد الرافدين • ويتحقق حلمه هـذا سنة ١٨٩٧ ويخرج كتابه « أشورية وأرض نمرود » الى النور •

مدن بلاد اشور وكنوزها

لقد ضمت مدن بلاد أشور كنوزاً فريدة من نوعها ، صنعتها أيدي الكادحين الآشوريين أعداد عديـدة من العبيد. واستثمر الملوك الآشوريون الحربيون شعبهم وأسراهم أبشع استثمار في بناء القصور والطرق والجسور لتمجيد فخامتهم وتخليـد اسمهم . لقد عمل آلاف من الفنانين والنحاتين والحجـارين والحرفيين وصانعي السجاد والزجاج والسـلاح والحدادين والنجارين ليل نهار ليلبوا طلبات البلاط الملكي ومن أجل لقمـة خبزهم . لقد ظن الملوك أنهم يبقون منقوشين في الصخر والمرمر وفي اللوحـات الى الأبـد وأنه لن تتكلم الأجيال القادمة إلا عنهم فقط .

ولكن ، من خلد نفسه هم أولئك العاملون المهرة في بلاد أشور، ونتذكرهم حصراً عندما نتمتع برؤية نصب رائع لحضارة تلك الدولة القديمـة . وتساعدنا الاكتشافات الأثرية أكثر في التعرف بعمـق وتنوع على ما خلقته أيدي أولئك المهرة في العواصم الأربع لدولة أشور القديمة وأولها وأقدمها هي مدينـة أشور وبعدها كلخو ثم نينوى وأخيراً دورشاروكين . بهذا الترتيب بالضبط تناقل الملوك عواصم البلاد .

ولكي نقوم برحلتنا في هذه العواصم بنجاح سننطلق من أطلال مدينة نينوى (الموصل ـ حالياً) مع جريان نهر دجلة الى الأسفل وبعد ١٠٠ كم نقترب من موقع أول عواصم بلاد أشور ، وإذا نظرنا الى خريطـة بلاد مابين النهرين فإنـه يمكن التبين من أن موقع مدينة أشور أكثر جنوباً من العواصم الأخرى لأشور وتقع على نهر دجلة أيضاً .

مدينة آشور
(قلعة شركت ـ حاليا)

إن هذه المدينة هي مهد الشعب الآشوري وقد سميت بهذا الاسم على شرف الاله آشور ،وإن سكان هذه المدينة هم الساميون القادمون الى هنا من شبه الجزيرة العربية ومن سورية وأقاموا هنا وراحوا يعبدون الاله آشور وباسمه سموا بالآشوريين (آتورايه) . لقد بنيت هذه المدينة على تل صخري وعلى الضفة اليمنى لنهر دجلة الى الأسفل قليلا من التقائه بنهر الزاب الأكبر وهنا في هذه المدينة أشاد الساميون المعابد لالهم آشور .

ويرجع أحد النقوش المسمارية لهذه المدينة الى مرحلة حكم الملك الآشوري شمشي أداد الأول الذي عاش حتى سنة ١٨٣٥ ق.م تقريباً والذي يسمي نفسه فيه بـ « ملك العالم » . وهنا يتكلم عن انتصاراته في بلاد لبنان الواقعة على شاطىء البحر العظيم (البحر الأبيض المتوسط ــ حالياً) .

وبوقفة على أطلال مدينة أشور على أن نساهم ــ ولو ذهنياً ــ في تلك الأعمال التي قام بها الآثاريون بما فيهم غ. ليبارد . إن هذا التقمص الحي سيساعدنا في تصور الصعوبات التي صادفها أولئك العاملون هنا . لقد قام ليبارد وزملاؤه ومرافقوه بأعمال مضنية ، وخطرة ولكن بنفس الوقت هامة جداً للعلم . وبعد ليبارد تابع أعمال التنقيب هنا كل من خ. رسام والعالم الأثري الألماني ف.أندريه ، والأخير يصف لنا الصعوبات الجمّة التي صادفها القادمون الى مدينة آشور من العلماء والعمال .

وبغض النظر عن الظروف اللاانسانية تابع ف . أندريه الأعمال المباشرة بها من قبله وحفر مدينة أشور وعثر على قصور جديدة

للملوك الاشوريين . لقد كانت هذه القصور مكسية بألواح من المرمر ذات مقاييس كبيرة ملونة بالأحمر ـ الأرجواني وزواياها مقلمة بالأبيض والأسود ، ونشاهد على هذه الألواح إبداع مخلوقات ذات رؤوس نسور وبشر . ومع ذلك فان الرؤوس البشرية مزينة بالقرون على شرف الشهر الفتي الذي اعتبر مقدساً ، وبين يدي أحد هذه المخلوقات يقف جدي الماعز .

لقد تمكن أندريه من قراءة الكتابة المسمارية وحاول ترجمتها وقد قرأ إحدى هذه الكتابات المنقوشة على عمود والعائدة لمرحلة حكم الملك الاشوري تقلت ـ نينورت الأول وتعني (أملي هو أن أكون سيد الأرض) . وعلى هذا العمود أيضاً وجدت نقوش لأشخاص يحملون بأيديهم رايات وطارات ليست ذات أربعة أشعة بل ذات ثمانية .

وبعد ذلك عثر في مدينة أشور على أضرحة للدفن ، كانت هذه غرفاً بطول ٧ أمتار وعرض كذلك وذات أسقف مقنطرة لارتفاع ٤ أمتار وعلى الجدران عملت رفوف لوضع الفوانيس .

وفي أحد الأضرحة تم العثور على تابوت حجري مخرب ، ومسروق ويحتمل أن يكون ضريح ملكي مع تابوت ملكي (مفجر) بواسطة إشعال النار عليه ثم إطفائها بالماء البارد وبالفروق الحرارية (ينفجر) الحجر ثم ينهب التابوت من كل ما فيه . لقد أرسل أندريه بقايا هذا التابوت الى برلين حيث أعيد تركيبه . لقد بلغ وزنه ١٨ طناً وطوله يقارب ٤ أمتار وارتفاعه مترين ، وعندما تم ترميم هذا التابوت تمكن علماء الأسيريولوجيا من قراءة اسم الملك صاحب هذا التابوت. لقد كانت الحروف تقول : (قصر أشور ناصربعل ملك الكون وملك أشور وابن أداد نيراري ملك الكون) . بالاضافة لذلك عثر ف . أندريه

على زيقورت وهو البرج المدرج مع البناء المتواصل حتى نهر دجلة ذاتـه .

كما تم العثور على ضفاف دجلـة على مرسى كانت ترسي فيها القوارب المقدسة الكبيرة التي كانت تحمل المصلين وتماثيل الآلهة المستخدمة في احتفالات عيـد رأس السنة الجديدة . كما اكتشف أندريه بأن (مساحة قدرها ١٦ ألف متراً مربعـاً في أرض حجرية حفرت فيها بايعاز من الملك سنحريب حفراً عميقة وصلت فيما بعد بأقنيـة جوفية وبعد ذلك ردمت كل هذه المساحة بتربة جيدة للزراعة وغرست بالأشجار التي توفرت لها رطوبـة غزيرة من الأقنية الجوفية (وهو ما يعرف الآن بالري بالتنقيط تحت التربة ـ المترجم) ، كما تم تحضير مدخل المعبد ورواقه بهذه الطريقة أيضاً .

والأهم من كل ذلك كان ـ من وجهة نظر علماء الآثار ـ المعبد القديم المكرس للالهة عشتار .

كلخو (نمرود حاليا)

تم تأسيس العاصمة الآشورية كلخو على أيدي الملك أشور ناصر بعل (٨٨٥ ـ ٨٦٠ق٠م) لقد نقلها من مدينة أشور الى هنا في هذا المكان حيث تقع الى الشمال من العاصمة الأولى لبلاد أشور بما يقارب ـ ٦٠ ـ كيلو مترا .

لقد أوعز الملك أشور ناصر بعل ببناء القصور والمعابدوالزيقورات والمنازل السكنية وتمديد الطرق وأقنية الصرف في العاصمة الجديدة. كما قرر سلمنصر الثالث (٨٦٠ ـ ٨٢٥ ق٠م) خليفـة أشورناصربعل إشادة قصره الخاص في مدينة كلخو وقد اشتهر بالقصر الرئيسي، لقد رممه وأعاد بناءه بشـكل كامل تقريباً أحد الملوك الآتين فيما بعد وهو تقلات بلاصر الثالث « ٧٤٥ ـ ٧٢٧ ق٠م » . وفي الجـزء

الجنوبي الغربي من المدينة بنى الملك الآشوري أسرحدون (٦٨١ ـ ٦٦٨ ق٠م) قصره الذي استعمل في بنائه مواد بناء من قصور أخرى في كلخو ٠

لقد كان غ٠ ليارد أول الأوروبيين ـ كما تم الحديث أعلاه ـ الذين بدؤوا التنقيب في كلخو ٠ لقد عثر على سبع قصور ولكن أهمها للمؤرخين وعلماء الآثار كان قصر أشور ناصربعل ٠ ومن بين ماعثر عليه كان هناك اللوحات الحجرية والمسلات والكؤوس البرونزية ونصل السهام كما عثر على كأس مطعمة بالعاج وعلى مرآة ومواد أخرى ٠ ولكن أهم اكتشافاته كانت الثيران المجنحة والأسود التي كانت تقف عند مداخل القصر الملكي بمثابة الحرس ٠ لقد عثر ليارد في هذا القصر على ١٣ زوجاً من هؤلاء الحراس ٠ ويصف ليارد في كتبه طريقة نقل هذه الأنصاب كما شاهدها مرسومة على اللوحات الحجرية٠ فهكذا كانت الأسود أيضاً توضع على قاعدة خشبية أو على عربة ويجرها العمال بحبل الى القارب الذي كان ينتظرهم في نهر دجلة٠

وفي أثناء التنقيب كان هناك حديث تناقلته أجيال السكان المحليين فيما بينها عن حجر أسود ضخم ٠ وكم كان مدهشاً عندما انتشله العمال العرب من بين الأنقاض إذ تبين أنه بازلت أسود قاتم ارتفاعه يزيد عن المترين مزيّن بشكل رائع ومكسي بالكتابة المسمارية ٠وبعد سنتين قرأ العلماء الرموز المسمارية عليه واتضح أنها نصوص عن انتصارات الملك الآشوري سلمنصر الذي حكم البلاد في القرن التاسع قبل الميلاد ٠

وتلت هذا الاكتشاف اكتشافات أخرى للقصور والمعابد والزيقورات ٠ وتعددت المعروضات الدرجة لم تتسع معها المتاحف البريطانية لها ، لذلك قرر المتحف البريطاني على ليارد إيقاف العمل

هناك مؤقتاً وقـد دام هذا التوقف مدة ٢٥ سنة •

وبعد ليبارد عمل في كلخو الآثاريون الألمان الذين حلوا فيما بعد محل الانكليز كلياً • ومن بين هؤلاء يمكن تميـز م• ميللون لقد راح ينقب عن القصر الشمالي الغربي حيث عثر على مسلة أشور ناصربعل الثاني مع تصوير للملك ذاتـه ونقش مسماري كبير عليها، حيث يتحـدث هذا النقش عن الاحتفالات المكرسة لافتتاح هذا القصر عام ٨٧٩ ق•م • وقـد شارك في الموكب الاحتفالي على شرف هذا الافتتاح ٧٠ ألف شخص من دول عديدة في العالم نزلوا ضيوفاً لدى سكان هذه المدينة والبالغ تعدادهم آنذاك ــ ٨٦ ــ ألف نسمة ، لقد كانت إحدى أضخم المدن في العالم لذلك الوقت •

وفي القسم الشرقي من القصر عثر ميللون على (كتاب مشمع) مؤلف من ١٥ (صفحة) ،جمعت بجديلة ذهبيـة لقد كانت حواف (الكتاب) مصانة بالخشب المطعم بالعاج وعلى (الغلاف) كتب اسم سرغون الثاني ، أما النص بحـد ذاته فقد ضم بضعـة آلاف من السطور • في هذا القسم من القصر تم العثـور على مجموعـة من المصنوعات العاجيـة مثل رأس امرأة ظريفة سميت بالموناليزا الآشورية وهي بمقاييس ١٦×١٣٫٣سم ويرجع العلماء تاريخها الى عـام ٧٠٠ قبل الميلاد •

وفيما بعد عثر الانكليز هناك على اسطوانتين من العاج حيث صورت عليها لبوة ثائرة تمزق افريقياً ، يبلغ ارتفاع كل من هاتين الاسطوانتين ١٠ سم وقد طليت بالذهب وطعمتا بألوان أخرى •

وفي القصر الشمالي الغربي عثر أيضاً على الأرشيف الملكي ، ومعبد الاله نابو ومعبد الاله نينورتا وعلى رصيف نهري ودور سكنيـة عديدة •

كما عثرت البعثة الانكليزية هنا عن آوان برونزية وسلاح وعلى مخزن للوحات الفخارية ، حيث جمع الاحتياطي منها وكذلك عثرت البعثة على مخزن الملك الأشوري سلمنصر الثالث الذي كان يحوي السلاح والعربات والغنائم الحربية .

لقد سمى الآثاريون المخزن المكتشف بـ « طابية سلمنصر »،فقد كان على شكل مستطيل بأبعاد ٣٠٠×٢٠٠ مترا . بالاضافة لذلك فقد تم العثور في هذا القصر على صالة العرش وقد بني فيها مدرج للعرش المحاط بلوحات حجرية بصور لشعوب سورية وبابل وهم يقدمون الأتاوة .

وفي الصالة المجاورة عثر العلماء على لوحات مرسومة على النصف السفلي للجدار وعليها شخصية الملك الاشوري وفوق هذه الشخصية رسمت صفيحة دائرية مجنحة . كما عثرت البعثة الانكليزية على آلاف من الاسطوانات التي زينت برسوم بارزة ومحفورة لحيوانات وأناس وغير ذلك وكان الكثير منها بحاجة للترميم لذلك رممت بضع مئات منها مباشرة .

نينوى (الموصل ـ حاليا)

والآن نعيد النظر مجدداً الى مصور بلاد الرافدين . اكانت مدينة نينوى تقع على الضفة اليسرى المقابلة لمدينة الموصل الحالية لنهر دجلة . لقد أصبحت عاصمة للامبراطورية الآشورية إبان حكم الملك سرغون الثاني . وكالعادة في مثل هذه الأحوال تبدأ أعمال بناء القصور والمعابد والأبراج الزيقورات ودور السكن وأسوار المدينة الدفاعية من جديد . فقد أحيطت المدينة بحصن ضخم منيع وأقيم على جوانب الأسوار ردم عال وحفرت من الجهة الشرقية للسور خنادق عميقة .

ويقع تل كوينجوك الذي يضم القصر الملكي في الجهة الغربية للمدينة وقريب من النهر .

والى الجنوب من هذا المكان وبحدود كيلو مترين تقريباً يقع التل الآخر حيث يقع مخزن القوات الآشورية ويسمى هذا التل باسم تل نبي يونس الوارد ذكره في التوراة على أنه زار مدينة نينوى في زمانه .

لقد عثر المنقبون الأثريون هنا على عدة بوابات بما فيها بوابة الإله نيرغال وشمش اللتين رممتا الآن لاستقبال السياح .

وأثناء عمل بعثة غ. ليبارد سنة ١٨٤٧ م تمكن من اكتشاف قصر سنحريب إلا أنه كان مخرباً جدا نتيجة الحريق الذي ألم بـه إبان سقوط نينوى سنة ٦١٢ ق.م .وكم كانت فرحة هذا العالم الباحث كبيرة عندما تأكد أن الكثير من موجودات هذا القصر لم يصبه الخراب. فمثلا عثر في الصالة رقم ٧١ على الكثير من التماثيل وحصل على أكثر من ألفي لوح فني ولقي كميـة كبيرة جدا من (الكتب الفخارية) الموجودة في مكتبة الملك الآشوري سنحريب .

لقد حدد ليبارد حفرياته في تل كوينجوك وبـدأ الحفر في تل نبي يونس وعثر العمال فيه على لوحات تحمل تواقيع الملوك الآشوريين أداد نيراري وسنحريب وأسرحدون .

ومن بعده عثر خ. رسام في تل كوينجوك على القصر الشمالي الغربي لآشور بانيبعل وتماثيل تصور (صيد الأسود) ، والأهم من ذلك تمكن من تنقيب النصف الثاني لمكتبة سنحريب (النصف الأول لها كان يقع في تل نبي يونس وقـد سميت باسم جامعها آشور بانيبعل).

لقد كانت هذه الاكتشافات هي اكتشافات العصر . والتي تعتبر بسعية مقاطع النص عن طوفان العالم والـذي اكتشفه ج. سميث

زينة المجموعات الأثرية التي اكتشفها علماء القرن التاسع الميلادي.

دور شاروكين (خورس آباد ـ حاليا)

لقد كان لاكتشاف المكتبة في مدينة نينوى أهمية عظيمة للعلوم إذ عثر في هذه المكتبة على آلاف (الكتب الفخارية) في مختلف مجالات العلوم (الرياضيات والفلك والطب والجغرافية وغيرها) كما وجدت موسوعات ومعاجم باللغات الاشورية البابلية والسومرية . إن هذه المعاجم المعكوسة وحدها مكّنت العلماء من فهم اللغةالسومرية وتذوق أدبها الواسع .

كذلك يبقى هذا الاكتشاف ثميناً لأنه يحوي على تلك المبادىء في فهرسة المكاتب ، التي أصبحت أساساً لفهرسة وتبويب المكاتب الحديثة حتى في أيامنا المعاصرة في العالم أجمع عدى مبدأ أقسام العلوم ثم تسميات المؤلف .

لم يهدأ الملك الآشوري سرغون الثاني الذي عاش في مدينة كلخو ولم يركن له بال من عظمة وانتصارات أسلافه ، لذلك فكر ببناء عاصمة ثانية هي مدينة نينوى ، لكنه لم يكن ليتوقف عند ذلك بل قرر نقل مقره الى مكان يبعد ٢٠ كيلو متراً شمال شرقي نينوى وذو تسمية شاعرية « وادي الربيعين » ، إلا أنه عاش في هذا المكان أناس غيره ، لكن سرغون الثاني راح يتصرف بالأرض معوضاً إياهم بشكل يرضيهم وفرزت لهم أراض ليقطنوها ، لقد أراد من ذلك الثواب للالهة كي تحرس له عاصمته من الأعداء الى الأبد. وقد سمى العاصمة الجديدة بالحصن أو قلعة سرغون (دور شاروكين) أي قلعة الملك الحقيقي.

لقد أحيط مقر سرغون الثاني بسور عرضه ٢٥ مترا مبني من قوالب الطوب . لقد كان للمدينة سبع بوابات مزينة بتماثيل لهياكل

نيران وأسود مجنحة ولهياكل آلهة وشخصية العملاق الآشوري غلغاميش ، وكانت هذه البوابات مجوفة تضم غرفاً مخصصة لاستراحة حراس المدينة ، وبالقرب من مركز السور الشمالي الشرقي كانت تقع قاعدة ضخمة بنيت من قوالب الطوب (الكربيج) وبلغ ارتفاعها ١٥ مترا . لقد بني على هذه القاعدة ـ الأساس قصر الملك وثلاث معابد صغيرة وزيقوروت كبير . وقد حصل أن سرغون الثاني لم يشاهد نهاية أعمال البناء في مدينته ، فقضى نحبه تاركاً استكمال أعمال البناء لخلفائه . إلا أن وريثه سنحريب لم يرفض متابعة هذا العمل فحسب بل وقرر إعادة عاصمة الدولة الآشورية الى المدينة القديمة نينوى مرة ثانية .

وفي ٢٥ أيار سنة ١٨٤٢ م وصل المنقب الفرنسي ب.بوتا الى الموصل وكان يعتبر أن مدينة نينوى تقع على تل كيونجيك ـ إلا أنه لم يعثر عليها لأن الحفريات التي أجراها لم تكن عميقة واستمرت الأعمال حتى ربيع ١٩٤٣ م .

وفي هذه الأثناء يصل إليه أحد الفلاحين المحليين الذي علم بأعمال التنقيب فراح يقص على ب.بوتا بأنه بالقرب من قرية خورساباد حيث يقطن مع عائلته مع باقي أهل القرية يشاهدون باستمرار أحجاراً غريبة الشكل مخططة بالكتابة المسمارية . فما كان على بوتا إلا أن يذهب مع الفلاح الى خورساباد الواقعة على مسافة ٢٠ كم الى الشمال من الموصل ، وما أن غرس معول المنقبين في التراب الذي أشار إليه الفلاح حتى استبان لوح من المرمر وكلما تعمق في الحفر كلما خرجت له ألواح جديدة ثم استدعى عمال ، من كوينجيك وقام بحفريات واسعة النطاق في خورساباد . فالآن تأكد أنه اكتشف نينوى عاصمة الدولة الآشورية . وفيما بعد كتب بوتا خمس كتب عن

اكتشافاته حيث يؤكد فيهاأن المدينة التي اكتشفها هي نينوى وهكذا سمي كتابه (النصب التذكارية في نينوى ، اكتشاف ووصف بوتا)٠

وفي الواقع أنـه اكتشف عاصمة أخرى لبلاد أشور وهي دور شاروكين التي بناها الملك الاشوري سرغون الثاني • وهناك في دور شاروكين ، اكتشف بوتا أسوداً وثيراناً مجنحة ذات مقاييس ضخمة قرر إرسالها الى متحف اللوفر في باريس ، لكن التماثيل العملاقة المنشورة الى أجزاء غرقت في مياه دجلـة الجارفة ولا زالت حتى الآن راسية في قاع النهر •

ويكتب العالم الألماني إ•تسيرين من برلين الغربية في كتـابه (التلال التوراتية) ما يلي : (ففي عام ١٨٥٢ كلفت الحكومة الفرنسية مواطنها فيكتور بلاس بمتابعة أعمال التنقيب في خورساباد • إلا أنـه أثناء نقل تماثيل عملاقة صخريـة عبر نهر دجلة حصلت مأساة أخرى• إذ أنه في نهاية الطريق وعند المرفأ الأخير تقريباً تعرضت القوارب لهجوم من قبل جماعات معاديـة من البدو وأغرقت في النهر والآن لا زالت حمولاتها راسيـة في الطمي عند مصب النهر • لقد تمكن قاربان فقط من التخلص من الهجوم ، وبذلك تكون قد وصلت الى باريس في عام ١٩٥٦ م كمية ضئيلة من اللقى الأثرية النادرة) •

وفي عام ١٩٢٨ م باشرت البعثة الأمريكية برئاسـة كل من كيير ولاود متابعة الحفريات في خورساباد • وبخصوص المكتشفات في دور شاروكين يلاحظ إ• تسيرين بأن : (المجمع العظيم للقصور والمعابد التي تضم أكثر من ٢٠٠ غرفة و ٣٠ قصرا قـد ارتفع على مدرج اصطناعي معمول بشكل متعامد مع سور المدينة وبمقدار ١٤ مترا أعلى من مدينة الملوك الآشوريين ومدينة الجنود والحرفيين • لقد توج كل هذا المجمع برج رباعي ضخم ذو قبب بسبع درجـات وجدران مزينة

بقوالب مغطاة بالميناء بسبع ألوان كذلك ، ولا زالت هذه الألوان موجودة على حطام هـذه القوالب حتى الآن وكانت درجات البرج السبعـة ملونة على التوالي : بالأبيض والأسودوالأحمر والبرتقالي والفضي والأحمر الذهبي• لقد بلغت أعماق أساس البرج من كل جانب ٤٣ متراً وبلغ ارتفاع كل درجة ٦ أمتار والارتفاع الكلي للبرج ٤٢ متراً •

لقد كان السلم العريض والمزدوج ومداخل المواكب تقود إلى مقر الملك مباشرة • وكانت البوابات الكبيرة تقوم مقام المدخل الوحيد للبرج ، حيث ارتفعت على جانبيها أبراج رباعية ووقفت أمامهـا تماثيل ثيران ضخمة عملاقة برؤوس بشرية تحـدق بثبات الى كل من يدخل مقبرة فيه تأثيرات سحرية معينة ، وأمام كل برج حراسة كان يقف تمثال إنسان يقبض بيده اليسرى أسداً • كما كان يلي هذين التمثالين نصبان لثورين برأسين بشريين • وبالقرب من البوابة الأولى كانت تقع مباني خـدم الحاشية الملكية والحراسة • لقـد عثر العلمـاء الأمريكيون هناك سنة ١٩٣٢ ــ ١٩٣٣ على قائمة بأسمـاء الملوك الآشوريين تحوي على أسماء ١٠٧ ملوك مع الاشارة لمدة حكم كل منهم •

إن هذه القائمة الملكية تمتد منذ نشوء الدولـة الآشورية وحتى القرن الثامن قبل الميلاد • وبغض النظر عن أن هـذه القائمة لاتحمل تواريخا (مشابهـة لما هو لدينا الآن) فإنهـا تحمل أهميـة كبرى لدراسة تاريخ بلاد الرافدين •

وفي القسم الأول من البوابـة الاحتفالية كانت تقع مجموعة المعابد ذات المذابح الثلاث • وأحد هذه المذابح كان مكرساً لإله القمر (سين) ، حيث كان منجله القمري (هلاله) يشبه قرن الثور

ومن هنا اقتبس تصور الثيران ذات الأجنحة الضخمة . أمـا الرأس البشري فيشهد على أن رب الثيران لذلك الوقت كان قد اتخذ لنفسه صورة إنسان .

أما المذبح الثاني فكان مخصصاً للالهة نيتغال (عقيلة) إله القمر، حيث مثلوها في المدفن السماوي بنجمة الصباح التي سماهـا الاغريق والرومان باسم فينوس (أفرودويت)(★).

والمعبد الثالث كان مخصصاً لإله الشمس « شامش » وكان المذبح هنا يضم مذابح أصغر حجماً مخصصة لأرباب مختلفة .

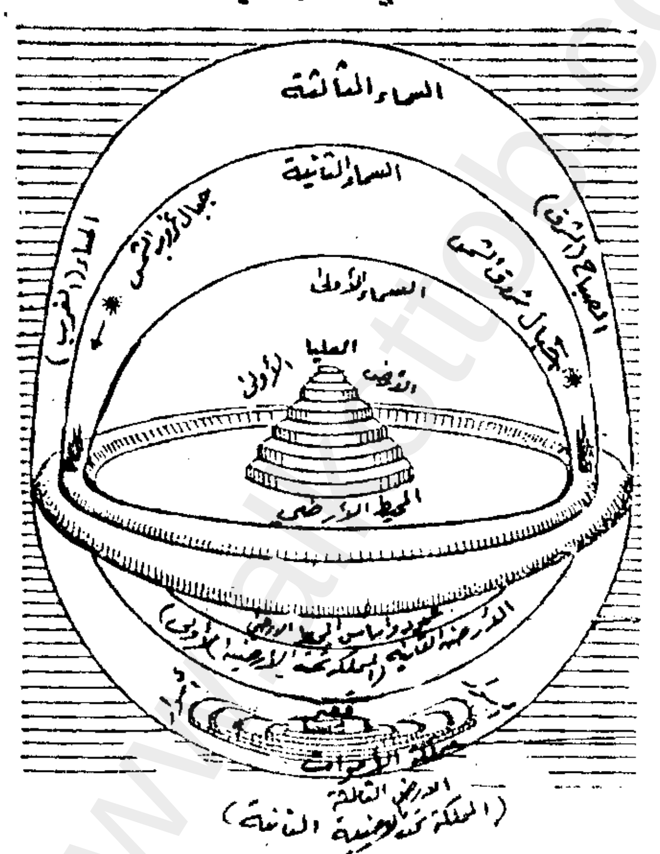
وكان للمعابـد الرئيسة لاله القمر والزهرة والشمس ـ هذه الآلهة الأكثر اعتبارا من بين آلهة مذهب ألوهيـة الـكون لدى الآشوريين ـ البابليين القدامى الذي يعتبر أن القمر ظهر أولا على شكل الأب والشمس على صورة الابن وكوكب الزهرة على صورة الزوجة أو الابنة ـ ردهات واسعة تقع بعدها غرف كبيرة حفرت فيها فجوات عالية كانت تحوي ـ على ما يبدو ـ على تماثيل رائعة للالهة وخلف البوابة الاحتفالية وبين مجموعـة المعابد هذه كان قد توضع القصر الملكي ، حيث كانت تؤدي اليه بوابة مزدانة بالنقوش الثرية . وكانت قد مسـت الزاوية الشمالية الغربية للقصر بناية خاصة ،كانت على الأغلب تقوم مقام صالة العرش المخصصة للاستقبالات .

لقد عثر العلماء في دور شاروكين على ٦ آلاف مترا مربعاً من ألواح المرمر لو وضعت على خط مستقيم ـ كما حسبها العلمـاء ـ لبلغ طوله ٢كم تماماً .

لقد بدا القصر الملكي فخماً جدا ، حيث طليت جدرانه بدهانات

(★) فينوس ـ تعني باليونانية كوكب الزهرة ـ المترجم .

المحيط السماوي



خزفية ملونة بالأزرق والأخضر والأصفر • وكثير من الكربيج كان منقوش عليه صور لحيوانات وطيور وأشجار ، وكانت هذه رموز عبادة في الديانة الآشورية ـ البابلية وكانت القاعات التي كان الملك يستقبل الدبلوماسيين والوزراء والشخصيات الرسمية والضيوف كبيرة المقاييس عالية وواسعة • وكان يقع في القصر مخزن للأسلحة ومستودع للباس والأغذية كما كانت أغلب القاعات تضم مكتبات فيها كتب حول مختلف أنواع المعرفة •

حكام اتجاهات العالم الاربع

بعد أن تعلم الباحثون قراءة « الرقيمات الفخارية » ، راحوا يدرسون اللغة والأدب والتاريخ ويهتمون بمعرفة الوطن الأول للاشوريين الذين ينسبون الى العائلة السامية •

ويبقى السؤال عن الوطن الأول للآشوريين مفتوحاً في العلوم التاريخية • فبعضهم يعتبر بأن الوطن الأول لهم هو شمال أفريقيا وبعضهم الآخر يشير الى شبه الجزيرة العربية •

ويصر مؤيدو المقولة الأولى بأنه منذ عشرة آلاف سنة تقريبا تغير إتجاه الرياح القادمة من المحيط الأطلنطي والمحملة بمياه الأمطار الغزيرة الى مناطق أفريقيا الشمالية ، وبدأ يذبل تدريجياً الغطاء النباتي والغابات وتزول الأنهار والمراعي الضرورية لتربية الماشية •

هذا مما اضطرهم أن يهجروا أماكن إقامتهم منذ القدم بحثاً عن الكلأ والمرعى ويعبروا عبر برزخ يجمع ـ كما يعتقد ـ قارتي أفريقيا وآسيا الى شبه الجزيرة العربية •

لقد تغير المناخ هنا أيضاً ولم تعد المراعي تفي بحاجة القطعان مما جعل العوائل السامية الرعوية تغادر هذه الأماكن الى الشمال في الصحراء السورية ومنها الى بلاد مابين الرافدين •

لقد قطنوا هذه البلاد الممتدة من مناطق نيبور والى الشمال حتى مدينة سامراء الحالية • كانت هذه المنطقــة تدعى آنذاك « ببلاد أكاد » وبذلك سمي كل الساميين الــذين استوطنوا هــذه المنطقة بالأكاديين ، نسبة للمدينة الرئيسة والعاصمة أكاد •

إلا أن الساميين لم يستقروا في بلاد أكاد فقط بل هاجر منهم الى جنوب وشمال بلاد الرافدين • ففي الشمال وفي المنطقة المحصورة بين نهري دجلة والزاب الأدنى من جهة وجبال زاغروس من جهة أخرى أسسو ممالكهم وبنوا مدنهم وكانت مدينة آشور أكبر مدنهم • لقد جلب الآشوريون معهم من بلاد أكاد الى أشور كثيرا من المآثر والأساطير والعادات والتقاليد •

وكانت إحدى هذه العادات والتقاليد هو أن الملوك الآشوريين سموا أنفسهم حكام الجهات الأربعة للعالم (الشمال ، الجنوب ، الشرق ، الغرب) وهذا ما فعلــه سرغون الأول(الأكادي)•

ومن الممكن تماماً أنه في هذه الأزمنة تأكدت ونالت تطوراً لاحقاً موضوعة السيادة على العالم والتي ولدت على أرضية تفكير الحكم المطلق ، « الخارج عن نطاق شعب واحــد وبلاد واحدة والمبنى على توجهات شمولية عامة » هذا ما كتبه طورايف عن ذلك •

وفي نهاية الألف الثالث وبداية الألف الثاني قبل الميلاد بــدأ حكام بلاد أشور يستلمون السلطة بالوراثة واهتموا بشكل أساسي بمسائل الدين • لقــد كانت سلطتهم السياسية ضعيفة وكان مجلس الشيوخ هو الــذي يقود البلاد عملياً ، فكان كل عضو فيه يقود البلاد سنة كاملــة ثم يليه في السنة القادمة عضو آخر ••• وهكذا•

إلا أن الحكام الورثة ــعيش أقومي ــ أبوا الخنوع لدورهم الضعيف في أمور الدولــة فاستأثروا بالسلطة واغتصبوها تدريجياً • وراح

حكام بلاد أشور يشنون الحملات الحربية على جنوب بلاد الرافدين وشمالها وغربها . ولكن وصول حمورابي الى السلطة في بابل وضع نهايــة لهذه الحملات العدوانية لدى الآشوريين . وأكثر من ذلك وقعت بلاد أشور في المرحلة اللاحقة تحت سلطــة بابل والحيثين والكاسيين .

وعززت بلاد أشور مواقفها إبان حكم الملك أشور أو باليت (القرن الخامس عشر قبل الميلاد) ومن بعده سمى خلفاؤه أنفسهم بحكام أشور . ففي القرن الثالث عشر قبل الميلاد بدأ الملك الآشوري سلمنصر الأول الحرب ضد الميتانيين والحيثين ، تلك الشعوب القاطنة أراضي تركيــا الحالية ، ووصل غرباً الى شواطىء البحر الأبيض المتوسط واحتل القسم الشمالي لبلاد فينيقيا .

ولكن حملات الملوك الآشوريين الاحتلالية توقفت إثر ظهور قبائل الآراميين الرعوية القادمة من شبه الجزيرة العربية ، والتي قطنت ســورية وبلاد الرافدين وراحت تغزو الآشوريين وتنهب مدنهم وقراهم ، موقعة بهم سلسلة من الخسائر الفادحة . إلا أن الآراميين لم يتمكنوا من القضاء على الدولــة الآشورية كلياً بل راحت هذه الأخيرة تستعيد قوتها ثانية في أواسط القرن العاشر قبل الميلادوأسست أحد أقوى الجيوش وأكثرها تسليحاً حيث وصل تعداده في القرن التاسع عشر قبل الميلاد الى ١٢٠ ألف محارب . وقد كتب العالم السوفيتي د . ريدر عن القوة العسكرية لبلاد أشور مايلي : « بالاضافة للعربات الحربية راح الآشوريون يستخدمون ســلاح الفرسان الذين لا يمكن الاستغناء عنهم في مطاردة العدو المكسور . لقد كان الانتقال الى السلاح الحديدي في بلاد أشور (في بداية الألف الأول قبل الميلاد) أسرع بكثير عما كان في البلاد المجاورة لها . كما كان لديهم قــوات

خاصة بمد الجسور المؤقتة عبر الأقنية والأنهار ، تلك الجسور المصنوعة من ألواح الخشب الممدودة على القراب المنفوخة بالهواء • كما نال الاشوريون كذلك شهرة واسعة في محاصرة قلاع العدو وتدميرها ، حيث كانوا يدمرون الحصن والأبراج بكبوشهم (*) التي كانوا يسوقونها الى الأسوار تحت غطاء من التروس كما أن الآشوريين هم أول من استخدم في التاريخ البشري اسلحة دك الأسوار والقذف (والتي سماها الاغريق فيما بعد بالمنجنيق الباليستي) • وعلى اعتبار أن المواد المتفجرة لم تكن معروفة آنذاك ، فقد كانت النواة الحجرية ذات الثقوب المملوءة بالاسفلت المغلي تقذف بواسطة عتلات تحرك بقوة أحزمة جالدية تلتف (بزم) وتنفك بشكل سريع •

ومما كان يبعث الدهشة العميقة لدى الشعوب القديمة هو التنظيم الدقيق والمدروس للفصائل الحربية في القوات الآشورية • كما كان تقيد المحاربين الآشوريين بالديسيلين العسكري لايضاهى إطلاقاً » •

بمثل هذا الجيش استطاع الملوك الآشوريون من إعادة احتلال الأراضي التي فقدت فيما مضى ، فقد احتلوا مجمل شمال بلاد الرافدين وبعد ذلك بدأوا حملاتهم ضد سورية وفينيقيا ومناطق أخرى • وقد أبدت مملكة دمشق وعاصمتها دمشق مقاومة متميزة في وجه الآشوريين حيث أن دمشق دعت دولاً أخرى للتحالف معها ، واشترك جميعهم في مقاومة طويلة الأمد للملك الآشوري سلمنصر الثالث (٨٥٩ ـ ٨٢٤ ق•م) •

(*) الكبوش ــ آلات حربية قديمة تستخدم لصدم ولدك القلاع وكان الآشوريون أول من ابتدعها ــ المترجم

إلا أن الدبلوماسية الآشورية تمكنت من شق صفوف التجمع المعادي للآشوريين وإخضاع الدول الداخلة فيه منفردة كل على حدة • وبعد الانتصار على مملكة دمشق وحلفائها وجه سلمنصر الثالث السلاح ضد بابل والشعوب القاطنة خلف جبال زاغروس وفي إيران والى الشمال في أورارتو •

لقد حصلت سياسة الغزو العسكري على نفحة قوة جديدة إباز حكم الملك الآشوري تقلت بالاصار الثالث الذي وصل الى السلطة نتيجة انقلاب حكومي • فقد قام تقلت بالاصار الثالث (٧٤٥ — ٧٢٧ ق•م) • بمجموعة من الاصلاحات العسكرية والاقتصادية والادارية ، وجعل الجهاز الحكومي طيعاً وجمع كل السلطات بيده •

لقد بنى تقلت بالاصار الثالث دولة أشور قوية ، ليقوم بمجموعة حملات عسكرية ناجحة ضد أورارتو مضعفاً بذلك الجارة الشمالية لبلاد أشور • كما ألحق سلسلة من الخسائر الماحقة بالدويلات الأرامية في سورية ، وأقر السيادة الآشورية على فينيقيا وفلسطين ، هذا مما جعل تقلت بالاصار أن يشرف على شواطىء البحر الأبيض المتوسط ويخضع له ملك دجلة وأمير بيبل وملك إسرائيل • لقد اعترف اليهود وأهل غزة في فلسطين بالتبعية الاقطاعية الكاملة لسلطة الملك الآشوري •

وفيما بعد أي في عام ٧٣٢ ق•م يحتل دمشق ويلحق بسلطته مجمل القسم الجنوبي لبلاد مابين النهرين حتى الخليج الفارسي « البحر السفلي » • ويكتب عن ذلك تقلت بالاصار بنفسه في مدوناته العسكرية :

« لقد أخضعت لسلطتي بلاد كاردونياش الواسعة (بابل الكاسيين) كلها وحتى أبعد الحدود وأصبحت أسيطر عليها ••• وميروداخ —

بالإذعان ابن ياكينا ملك بلاد البحر الذي لم يحضر أمام اسلافي الملوك ولم يقبّل أقدامهم ، انتابه الهلع من القوة الرهيبة للملك أشور ، لقد وصل الى مدينة سابيا وبوجوده أمامي قبل قدمي الذهب زادعن الجبال بكميات كبيرة ، فقد استلمت مصنوعات وحلياً ذهبية وأحجاراً كريمة وألبسة مبرقشة وأعشاباً مختلفة وأبقاراً وماشية كجزية منهم» •

وفي عام ٧٢٩ ق•م احتل تقلتبالاصار مدينة بابل عاصمة الدولة البابلية وبعد ذلك وجه أنظاره الى الشمال الغربي نحو جبال عمان من ثم وصل الى شرقي بلاد الميديين •

إلا أن الشعوب المقهورة لم تستكين لمصيرها ذلك بل انتفضت غير مرة ضد المحتل مخلّين بالاستقرار في الدولة الآشورية •

وينسب ظهور أسطورة التوراة عن النبي يونس الذي وجد في أحشاء الحوت الى زمن حكم تقلتبالاصار • انعكس في هذه الأسطورة تشابك النضال في الدولة الآشورية ، حيث المشاغبات وتظاهرات العبيد والجماهير الشعبية الواسعة المضطهدة • كما كان تعداد العبيد من القبائل الأخرى في نينوى عاصمة بلاد أشور عهد ظهور أسطورة النبي يونس كبير جداً وتكلموا بلغات مختلفة ولم يفهم أحدهم الآخر ، وقد سمى النبي عدم الفهم هذا بعدم تميز اليد اليمنى عن اليسرى •

إن قصة النبي يونس التي تقدمها التوراة كحقيقة مطلقة ليست إلا حكاية مستعارة أعاد نسجها واضعوا التوراة ضمن أحداث ذلك الزمن الغابر • وتقول الأسطورة : أن النبي يونس سمع في منامه بأن الله دعاه لزيارة نينوى عاصمة الدولة الآشورية حيث كان عليه أن يبشر بكلمة الله • وقرر يونس الابحار عبر مدينة فرسيس الى نينوى وفي الطريق صادفته عاصفة هوجاء •

لقد أصاب الرعب كل من كان على متن القارب باستثناء يونس الذي لم يهتز لآثارها قط ، بل هبط الى عنبر السفينة وغفا بهدوء • ولكن البحارة يعتبرون أن يونس هو المذنب في هذه العاصفة وعليه وحده تقع المسؤولية بكاملها ، فيقررون رمي يونس في البحر كي تهدأ العاصفة ويقومون بذلك بعد أخذ موافقته •

وحالما وصل يونس الى البحر بدأت العاصفة تهدأ وسرعان ما هدأت كلياً •

ولما وقع يونس في البحر أمر الله حوتاً كبيراً أن يهجم عليه ويبلعه فبلعه الحوت وبقي يونس في أحشاء الحوت ثلاثة أيام وثلاثة ليال•

فتوجه هذا المسكين الى الأعلى وطلب من ربّه الرحمة والشفقة عليه والخلاص ، ولما سمع الرب صلاته ، شاء للحوت أن ينطقه وكان ذلك • فظهر يونس على الشاطىء ومنه توجه الى عاصمة المملكة الآشورية • لقد كانت هذه العاصمة لتلك الأزمنة مدينة كبيرة جداً ذات تعداد سكاني ينوف عن ١٢٠ الف نسمة • وراح يونس يسير حول نينوى المدينة متنبئاً بدمار نينوى نتيجةلخطاياها خلال ٤٠ يوماً• وحين سمع السكان بذلك قرروا أن ينقذوا أنفسهم بإعلانهم الصوم ولما بدؤوا الصوم لبسوا أسمالا مهترئة ، أما الملك وفق عادات بلاده فجلس في الرماد لابساً العباءة عليه •

وعندما سمع الله دعاء أهل نينوى وكيف هم يصومون ترأف بهم وسامحهم •

لقد بحث العلماء طويلا عن المثيلة التاريخية لهذه الأسطورة وتوصلوا الى استنتاج مفاده بأ نهذه الأسطورة ظهرت تقريباً فيعام ٨٠٠ ق•م • قبل تتويج تقلت بالاصار الثالث ، عندما بدا أن انتفاضات الشعوب ضد بلاد أشور بإمكانها أن تهدم نينوى •

إلا أن الملك الآشوري تمكن من التنكيل بالمنتفضين ويقول النبي يونس بأن الله العظيم ساعد أهل نينوى بذلك • وتقول الأسيريولوج الروسية ز•راكوزينا التي بحثت بالمثيلة التاريخية والأدبية لأسطورة النبي يونس في كتابها « تاريخ بلاد أشور » • ووصلت الى فكرة أن الحكاية عن كيفية وقوع النبي يونس في أحشاء الحوت يمكن تفسيرها بأن كلمة « نينوى » هي مشتقة من كلمة «السمكة» ـ « نونه » (بالاشورية ـ البابلية) •

هكذا وأن رمز المدينة تمثل باشارة سمكة في شبكة • وتشير الميثولوجية الآشورية ـ البابلية بأن السمك مخلوق مقدس وأن القداسة فيه هي من أولى صفاته • ومن هنا الحوت العجيب الذي بلع يونس لم يكن إلا مدينة نينوى بحد ذاتها ـ تقول راكوزينا ـ حيث أحاطت بالنبي جملة من المخاطر جعلت من الطبيعي أن ينطلق من صدره دعاء بالخلاص » •

وفي أسطورة النبي يونس توجد مجموعة من العقد • فقد كتب الناقد التوراتي الفرنسي ل•تاكسيل بأن النبي يونس ولد على بعد أكثر من ٦٠٠ كم من نينوى ولم يكن يعرف اللغة الآشورية كما لم يكن بإمكانه التبشير في العاصمة الآشورية باللغة العبرية وغير ذلك فان مسيرة النبي يونس الى نينوى هي غير واقعية ، فبدلا من السير براً بشكل مستقيم ، اتجه بطريق معقوفة بحراً الى فرسيس (في اسبانيا) • وأخيراً إن الحكاية عن الحوت بحد ذاتها ـ ومن رأي تاكسيل ـ تذكرنا بشكل حي بالأساطير الاغريقية القديمة فقد كتب : بأن « هوميروس في كتابه العشرين يتكلم عن مخلوق بحري يهاجم هيرقليس ، وقضى هيرقليس ثلاثة أيام وثلاثة ليالي في أحشاء هذا المخلوق آكلاً من كبده الذي كان يشويه ويأكله حتى خرج

بعد ٣ أيام من سجنه منتصراً • إن هذه الأسطورة عن هيرقليس ليست أسوأ من قصة النبي يونس أبداً •

كما توجد في الميثولوجية الوثنية حكاية شبيهه عن أريون الذي يرمى في البحر من قبل البحارة وينقذه دلفين حاملا إياه على ظهره حتى ليسبوس •

ولابد من الاشارة الى استعارة فكرة الصوم من الألواح الحجرية زمن حكم تقلت بالاصار الثالث ، فهو الذي أصدر أوامره حينذاك لجميع حكام البلاد والمناطق المحتلة بتطبيق الصوم على جميع المملكة، ومن الممكن تماماً أنه عرف عن ذلك في مملكة اسرائيل في النصف الثاني من القرن الثامن قبل الميلاد في مرحلة ظهور شخصية النبي يونس ، ثم استخدموا هذه الفكرة في صياغة تلك الأسطورة •

إلا أن كتاب النبي يونس كان لا يمكن ان يظهر ـ كما يعتقد العلماء ـ قبل القرن السادس قبل الميلاد ولا بعد عام ٢٠٠ق٠م • وفيما بعد استغل واضعوا الانجيل فكرة وجود يونس في أحشاء الحوت ثلاثة أيام وليالي في خدمة ظهور يسوع المسيح • ففي إنجيل متى ، يتنبأ يسوع المسيح بموته وانبعاثه في اليوم الثالث • وهكذا تناقلت الشعوب هذه الأساطير والخرافات والحكايا من شعب لآخر كل حسب إيديولوجيته ، مستخدمة إياها بشكل خاص ـ على سبيل المثال الذي نحن بصدده ـ في وصف رحلة النبي يونس وحياة وموت السيد المسيح •

ومن هنا جاءت فكرة « الثالوث المقدس » في الديانة المسيحية، والتي ترجع في أصولها الى تاريخ شعوب بلاد الرافدين القديمة ، ومن بعدها انتقلت الى التوراة ومن ثم الى مسيحي العالم كله • وكذلك نرى أنه من الممكن تماماً بأن فكرة الصوم الذي عم نينوى آنذاك

قد دخلت فيما بعد الى الطقوس الدينية لدى الآشوريين المعاصرين أجمع .

وتلاحظ البروفيسورة راكوزينا بأنه : « .... في السنوات العجاف ، أيام النكبات والمصائب الاجتماعية ، وجدت لدى الآشوريين والبابليين عادة إعلان صوم شعبي عام مع دعوات التوبة والابتهال كما كانت في مثل هذه الأحوال تنشد في المعابد الأناشيد المعروفة لنا باسم « أناشيد التوبة » .

واستمر إبان حكم سلمنصر الخامس ٧٢٧ — ٧٢٢ ق.م نجل تقلت بالاصار الثالث تعزيز مركزية السلطة الملكية مما أجج مقاومة طبقة الأعيان التي فقدت كل امتيازاتها . ونتيجة لخيانة داخلية تم خلع سلمنصر الخامس وتنصّب مكانه سرغون الثاني .

لقد تابع هذا الأخير سياسة أسلافه الاحتلالية ففتح سورية وفلسطين غرباً وقاد عدة حملات ضد أورارتو في الشمال . كما قام سنحريب (٧٠٥ — ٦٨١ ق.م) ابن وخليفة سرغون الثاني بمجموعة حملات ضد البلاد البابلية وفي عام (٦٨٩ ق.م) احتل مدينة بابل ودمرها .

ولما وصل أسرحدون (٦٨٠ — ٦٦٩ ق.م) الى السلطة بدلا عن سنحريب قام بإعادة بناء بابل المدمرة رغبة منه في تطرية العلاقات بين سكان مدينة أشور وسكان بابل وكذلك كسب ود البابليين الى جانبه . لقد شن كل من هذين الملكين حرباً شعواء على بلاد مصر ، إلا أن أسرحدون وحده تمكن (عام ٦٧١ ق.م) من قهرها وإخضاعها لنفوذه .

ومنذ ذلك الوقت أصبحت أشور أقوى دولة عظمى في العالم القديم . لقد وصلت حدودها في الشرق الى جبال زاغروس وفي الغرب

حتى البحر الأبيض المتوسط بما في ذلك بلاد مصر ، وفي الجنوب انتشرت أملاك الدولة الآشورية حتى البحر الجنوبي (الخليج الفارسي) ، وفي الشمال حتى القفقاس تقريباً • لذلك سمى الملوك الآشوريين أنفسهم بـ « زعماء جهات الدنيا الأربع » ومن بينهم تميز آشور بنبعل « ٦٦٩ ــ ٦٣٠ ق•م » من سلالة سرغون الثاني •

كان الوحيد الذي يجيد القراءة والكتابة ويلم جيداً بالعلوم والآداب والفن ويعتبر دبلوماسياً ماهراً وقائداً عسكرياً ومتذوقاً للموسيقى ومقدراً لها •

ولكن الحروب المستمرة أعاقته من ممارسة العلوم والفنون لأنه قادها دون انقطاع ضد الشعوب التي لم ترغب بالاستكانة للاحتلال الأجنبي ، حتى أن أخاه الأصيل شمش شوموكين حاكم بلاد بابل أراد الانفصال عنه وغالباً ما انتفض ضد أخيه في سبيل استقلال هذه البلاد ، مما جعل أشور بنبعل يتخذ قراراً بإنهاء عصيان بلاد بابل، فحاصر هذا الملك بابل بجيشه واحتلها • ولم يرغب شمش شوموكين بالاستسلام والوقوع في الأسر فقفز من أعلى السور الى القصر الملتهب بالنيران وانتحر • وألهم عصيان بلاد بابل الشعوب المضطهدة الأخرى ، فبدأت الانتفاضات تشتعل تارة هنا وتارة هناك وبعث موت أشور بنبعل آمالاً جديدة لدى الشعوب الخاضعة لبلاد أشور وهبت للنضال التحرري •

فانتفضت شعوب سورية وفينيقيا وفلسطين ومصر وعيلام وغيرها من البلاد ، واتجه الملوك الآشوريون في مثل هذه الحال الى الحفاظ فقط على العرش المهتز • وتعرف المرحلة الأخيرة من وجود الدولة الاشورية بانفصال بابل وتربع حاكم الشواطىء البابلية السابق نابوبالاصار (٦٢٦ ــ ٦٠٥ ق•م) على العرش البابلي•

كان نابو بالاصار كلداني الأصل ولكي يحقق النصر الأكيد على أشور عقد تحالفاً مع الملك الميدي قياقسار وعزز هذا التحالف بزواج نبوخذنصر ابن نابوبالاصار على أميدا ابنة الملك قياقسار .

وبتحريض من البابليين ورغبة في الحيازة على ممتلكات الدولة الاشورية قام الميديون بقيادة ملكهم فراورت إبان حياة الملك أشور بانيعل بمحاولات فرض الحصار على العاصمة الآشورية نينوى واحتلالها وبهذا الصدد كتب هيرودوت : « بالرغم من ابتعاد جميع الحلفاء عن الآشوريين وتركهم وحيدين إلا أن الآشوريين كانوا ــ بشكل عام ــ في وضع جيد ، ففي زمن شن الحملات عليهم قتل فراورت الذي دام حكمه اثنين وعشرين عاماً وكذلك فني قسم كبير من جيشه » .

ففي هذه المرة ردت المدينة جميع الهجمات ومحاولات الحصار ، كما صمدت تحصيناتها . لقد كانت مدينة نينوى قلعة منيعة بنيت على شكل مستطيل منتظم ، وبلغ طول سورها ١٥٠ ستادي وعرضه ٩٠ ستادي وسماكته كبيرة بحيث كان يمكن أن تسير عليه ثلاث عربات حربية دفعة واحدة . كما كان قد بني على المحيط الخارجي للسور ١٥٠٠ برجاً ارتفاع كل منها ٧ أمتار .

لقد كانت حامية المدينة مسلحة بشكل جيد وكان تعدادسكانها كبير (١٢٠ ألف نسمة) مما يمكنها من ابداء المقاومة للمعتدين . فقد قهر الميديون وهزموا وقتل ملكهم فراورت في إحدى المعارك . وتفيد الأساطير بأن الصيام الذي أعلنه الملك لمدة مئة يوم هو الذي أنقذ نينوى أيام الحصار .

أما المحاولة التالية لاحتلال بلاد أشور قام بها بنجاح قياقسار ابن فراورت . وكتب هيرودوت حول ذلك : « كان أشد بأساً من

أسلافه وهو أول من أشرك الشعوب الآسيوية الخاضعة له في تأسيس فصائل عسكرية خاصة ، فقد نظمهم حسب نوعية السلاح في فصائل رمي الرماح والنبالة والخيالة وقبل ذلك كانت مختلطة مع بعضها دون تميز . كما أنه وحد تحت قيادته آسيا الدنيا باتجاه نهر غاليس ، ثم جمع كل الشعوب الخاضعة له وذهب للحرب ضد نين (مدينة نينوى ــ المترجم) ، رغبة منه في الانتقام لأبيه واحتلال هذه المدينة » .

ولكنه ماكان باستطاعته لوحده قهر قوة آشور لو لم يفهم التحالف مع بابل ويفسر نجاح البابليين وفيما بعد حلفائهم الميديين في في الصراع ضد بلاد أشور ، قبل كل شيء ، بعد اكتراث الجماهير الاشورية الشعبية الواسعة ، والتي ذاقت الأمرين من ملوكها وكهنتها ومالكي العبيد فيها .

« لقد كانت جماهير الفلاحين في بلاد آشور ــ كتب البروفيسور دياكونوف ــ في وضع مزر تماماً وعانت الأمرين من الابتزاز والسخرة والتجنيد العسكري » .

بالاضافة لذلك يؤكد البروفيسور دياكونوف بأن هجوم بابل ، وميديا تلقى دعماً شعبياً واسعاً في بلاد أشور ، إذ أن الجماهير الشعبية الآشورية سعت نحو التحرر من الطغيان الملكي وبذلك تكون قد قدمت خدمة كبيرة للقوات البابلية والميدية .

لقد امتدت حروب البابليين والميديين والشعوب الأخرى التي لم ترغب بالبقاء تحت نير الدولة الآشورية أكثر من عشر سنوات ، وبانتصارات متبادلة . وأخيرا كان الانتصار النهائي الى جانب الشعوب التي قادت نضالا تحررياً .

وفي عام ٦٠٥ ق.م انتهى وجود بلاد أشور كدولة مستقلة ، واقتسم الحلفاء (الميديون والبابليون) أراضيها فيما بينهم إلا أن

الآشوريين لم ينتهوا بسقوط الدولـة الآشورية وهذا الشعب لم يباد . فقد اقتاد الميديون كثيراً من الحرفيين في نينوى والذين زينوا مدن بيرسيبوليس وإقباطان ، كما علم العبيـد الآشوريون الميديين فن الحفر على المطبوعات (النقش) .

وحول هذا الموضوع كتب المؤرخ الاغريقي القديم تيودور الصقلي في عمله « المكتبة التاريخية » بأن الملك الميدي لم يفن سكان مدينة نينوى ، بل وزعهم على القرى المجاورة . « ... وأعاد لكل منهم ممتلكاته .. »

ولاحظ الكاتب والمؤرخ الآشوري ب . أرسانيس بأنه بعد سقوط الدولة الاشورية « التجأ الاشوريون الى جبال أشور المنيعـة (كردستان ــ حالياً) حيث عثروا على مأوى لهم سنوات طويلة .. » .

وفي كتاب آخر له يرجع المؤلف الى ذلك ثانية ويدقق : « بعـد سقوط الدولـة الآشورية لم يباد الآشوريون ، بل فر قسم منهم الى جبال أشور في مقلوب وسنجار وخرج عشرة قادة مع كامل قواتهم باتجاه مدينة نصيبين ، وهناك في مكان مدينة أورفا الحالية أسسوا دولـة عسرايا الجديدة وفيما بعد سميت بدولـة عسرايينا » .

ويؤكد هذه الفكرة مؤرخ أشوري آخر هو أ . منشي حيث يلاحظ بأنه في زمن الحروب مع الأعداء اخترق قسـم من القوات الآشورية طوق حصار الأعداء وخرج الى مناطق أشور الجبلية ، حيث وجدت تحصينات منيعـة عديدة . مرت السنون وراح الآشوريون يرجعون الى مناطق سكناهم التاريخية .

وكتب المؤرخ والمنقب الانكليزي سيتون لويد بهـذا الصدد بأنه بعـد سنوات عديدة خلت سقوط نينوى أخذت بقايا سكانها ترجع الى ضفاف نهر دجلـة . ومع ذلك وبغض النظر عما وقع على

كاهل الشعب الآشوري من مآس فإنه تمكن من حفظ تراثه وثقافته .

ويؤيد وجهة النظر هذه مؤرخ انكليزي آخر وهو ويغرام الذي لاحظ بأن الشعب الآشوري القاطن في المناطق المجاورة لأطلال نينوى ما زال يحافظ على عاداته وتقاليده .

كل ذلك معاً أعطى الحق والأساس للبروفيسور دياكونوف لأن يكتب ، بأن « الابادة المفاجئة للشعب الآشوري ، الذي غالباً ماأدهش كثيرا من المؤرخين لا تمت للواقع بصلة بتاتاً ... » .

وفي الختام نود أن نضيف بأن سقوط المملكة الآشورية لم يؤد الى الابادة الجائرة للآشوريين ، فقد صمدوا ضد الامتزاج مع المحتلين المتعددين لبلاد ما بين النهرين وحافظوا على لغتهم وعاداتهم وتقاليدهم وفي نهاية المطاف على ثقافتهم ونمط معيشتهم .

توجهات تطور التجمع القومي الأشوري منذ سقوط الدولة الأشورية وحتى يومنا الحاضر

لقد استمر التكاتف العرقي للآشوريين في نطاق دولة واحدة على امتداد ألفي سنة تقريباً وطوال فترة ديمومته هذه قدم خزماً شديداً للعمليات التكاملية فيه وكما يفترض وضعت المقدمات الأساسية لاستمرار الاستقرار اللاحق للقومية الآشورية .

لقد تشكل التجمع العرقي الآشوري زمن مجتمع مالكي العبيد من العناصر الأساسية (الآشوريين والخوريين والصوباريين والآراميين) الذين امتزجوا تدريجياً وشكلوا عرقاً « إتنوس » جديداً ذو سيادة في الثقافة الآشورية الأقدم والأقوى من غيرها . وإبان سقوط الامبراطورية كان هذا التجمع القومي قد أضبح شعباً له علاقاته الطبقية الخاصة . فقد تميز بوحدة الأرض والخصائص الثقافية وبوحدة

كبيرة لذلك الزمان في اللغة والوعي العرقي الذاتي وبضعف دور روابط القربى الدموية وفي كثير من الأحيان بغيابها . ولذلك في عام ٦٠٥ ق.م عندما سقطت بلاد آشور تحت ضربات الميديين والبابليين لم يؤد ذلك إلى فناء الآشوريين أو امتزاجهم بالمحتلين.

وفيما بعد يرتبط تاريخ الآشوريين اللاحق ارتباطاً وثيقاً بمصائر الامبراطورية الرومانية أولا ومن ثم ببيزنطه وبالأخمينين، والبارفيانيين والساسانيين في إيران وبالخلافة العربية والامبراطورية العثمانية . وكون الآشوريين يدخلون كتجمع عرقي في نطاق التشكيلات السياسية الحكومية، يتخذون تدريجياً خصائص الأقلية القومية . ومع ذلك فقد تبين أنهم موضع أقلية مضطهدة عرقياً وفيما بعد دينياً أيضاً . تتعرض لا للاستغلال فحسب بل وللابادة الجسدية . لقد جعلتهم حالتهم المتميزة يبحثون عن أشكال وأساليب مقاومة المضطهِدين . وفي القرن الأول الميلادي أخذت الديانة المسيحية تنتشر في سورية وما بين النهرين وإيران وكان الآشوريون في عداد الشعوب الأوائل الذين اعتنقوا هذه الديانة .

وتتسم الخاصية المميزة لتكوين العرق الآشوري كأقلية قومية في هذه المرحلة بأن عامل الدولة لم يلعب دور عنصر التكوين العرقي فيه، بل لعب المنبر الديني (الكنيسة المسيحية) ذلك الدور . ودون أن يكون لدى الاشوريين سلطة القادة المدنيين، وجدوا أنفسهم في كنيسة واحدة وتحت قيادة روحية واحدة، وتشابكت أوجه التاريخ المدني للشعب الآشوري منذ تلك الفترة بتاريخ الكنيسة الآشورية. وهكذا كانت المسيحية عاملاً مساعداً في توطيد مستوى اللحمة القومية لدى الآشوريين .

إن تحول المسيحية في بداية القرن الرابع الى دين الدولة الرسمي

في بيزنطة التي ضمت الأراضي التي يسكنها الآشوريون لم يخفف الاضطهاد القومي والاجتماعي والاقتصادي عنهم • لذلك انصب عدم الرضى لديهم عن وضعهم في بوتقـة النضال ضـد الكنيسة البيزنطية الأرثذوكسية على شكل ردة نسطورية في القرن الخامس ووحدانية(*) (اليعاقبة) في القرن السادس ومارونية في القرن السابع الميلادي • وفي القرن السادس عشر تكونت بين الآشوريين الكنيسة الكلدانية التابعة للكنيسة البابوية الروميـة • وفيما بعد الكنيسة الكاثوليكية في البلدان التي يسكنها الآشوريون في الشرق الأوسط •

لقد كانت الدعاية للديانة المسيحية تقـدم باللهجة الغربية للغة الاشورية والواسعـة الانتشار في سورية ،وكان كل من يعتنق المسيحية آنذاك يدعى بالسريان أي المسيحيين السوريين ولا زال حتى الآن أشوريو العراق يطلقون مصطلح (سورايا) على كل مسيحي بشكل عـام •

وتعرف الروس لأول مرة على الاشوريين من خلال الأرمن ، وراحوا يدعونهم « بالأثوريين » ، إلا أن مصطلح « الآشوريين » يستعمل رسمياً في إحصائيات السكان في الاتحاد السوفياتي منذ عام ١٩٦٩م •

ويحاول الساسة البرجوازيون البرهـان على أن الآشوريين المعاصرين لا يملكون لا تاريخاً ولا فلسفة ولا أدباً ولا لغة خاصة بهم ، كما أنه لا يجمعهم جامع مع الاشوريين القدماء ، وأنهم فقط نسبوا لأنفسهم اسم ذلك الشعب العريق • إن هـدف مثل هذه

(*) الوحدانية (مونوفيزيائية) مذهب في الدين المسيحي يقـر بالطبيعة الالهية الواحـدة للمسيح وليس بطبيعتين : الهيـة ـ وبشرية ـ المترجم

الافتراءات يتلخص في محاولة تجريد الآشوريين من السلاح في نضالهم ضد التوسع الامبريالي وإفقادهم الثقة بقوتهم واركاعهم أمام الثقافة البرجوازية . إن الوقائع التاريخية تدحض بقوة كل هذه التخرصات المعادية .

ويعتبر مؤسس الأدب والفلسفة الاشورية في القرون الوسطى هو تاتيان الذي وضع المؤلف المشهور « دياتيسارون » .. وهو مجموعة مقالات عن مواضيع الانجيل وكذلك صاحب كتاب « خطاب للعلليين » ... إن التأثير الثقافي للآشوريين ـ وفق استنتاجات العالم السوفييتي س . أفيرنيتسف ـ تتلمس آثاره من إيرلندا وحتى الصين .

إن الآشوريين المعاصرين ورثة الثقافة العريقة يذكرون جيداً نضال أسلافهم في سبيل الحرية والتقدم . فلقد نهض الآشوريون مرات عديدة للنضال في سبيل الحرية والاستقلال ، وتشهد على ذلك الانتفاضات المتعددة التي قام بها الآشوريون في الزمن الحديث والمعاصر بما في ذلك الانتفاضة المعادية للعثمانيين سنة ١٩١٤ ـ ١٩١٨ والتي ذهب ضحيتها ما يقارب ٥٠٠ ألف إنسان أشوري .

لقد كان لأكتوبر العظيم تأثراً كبيراً على الحركة التحررية الاشورية التي استوحت منه فكرة النضال في سبيل حق الأمم في تقرير مصيرها . كما كان لانتصار الاتحاد السوفياتي في الحرب الوطنية العظمى تأثيرا واضحاً على حركات التحرر الوطني لشعوب العالم بما في ذلك الشعب الآشوري . إذ شارك الآشوريون عام ١٩٤٥ م بنشاط في مساندة حركة الأذربيجانيين والأكراد القاطنين في إيران للحصول على الحكم الذاتي . وقد جرت مشاركة الآشوريين الايرانيين في ذلك تحت شعارات المطالبة بحق التدريس في المدارس باللغة الاشورية

وإصدار الصحف والمجلات والكتب باللغة القومية .

إن التاريخ المرير للآشوريين يبين أكثر من مرة أن غدر الوحوش الامبرياليين بهم جعلهم في موضع الأناس المنبوذين في نظام الرأسمال العالمي .

إن مسخ شعب بأكمله ذو تاريخ وثقافة عريقين وتحويله الى شعب « زائد » في الشرقين الأدنى والأوسط سيبقى للابد صفحة سوداء في تاريخ الأوساط الشوفينية والاستعمار والاستعمار الجديد.

وأحد الأمثلة على حل المسألة القومية في الاتحاد السوفييتي هو وضع المواطنين السوفييت ـ الاشوريين. فالاشوريون في العائلة الواحدة لأمم وشعوب الاتحاد السوفييتي هم مواطنون متساوون مع الجميع ولهم كل إمكانيات الحفاظ على ثقافتهم وعاداتهم . وفي السنوات القاسية للحرب الوطنية العظمى حارب الاشوريون جنباً الى جنب مع جميع شعوب الاتحاد الأخرى ضد الفاشية الألمانية . فقد شارك في هذه الحرب ـ وفق الاحصائيات الرسمية ـ أكثر من ألفي شخص من أصل ٢٠ ألف إنسان أشوري قطن الاتحاد السوفييتي حينذاك وقد نال إثنان منهم لقب بطل الاتحاد السوفييتي وثالث لقب الحائز الأول على جميع أوسمة المجد .

وبفضل السياسة الوطنية اللينينية يعيش الاشوريون حياة متساوية في العائلة المتآلفة الشعوب السوفييتية من صغيرها لكبيرها .

عوضا عن الخاتمة

الارث الحضاري لبابل واشور

وأنا أتذكر عشتار ، حين لم يخطفها البابليون

منا بعد .. (جاك لندن) .

استقت الشعوب المسيحية خلال ألفي سنة تقريباً تصوراتها عن بابل وأشور والبابليين والآشوريين من التوراة فقط .

وقد كتب العالم الأسيريولوجي الروسي ن . نيكولسكي في كتابه (بابل العريقة) ما يلي : « إن المفاهيم التي نشأت لدى الأوروبيين عن بابل والملوك البابليين .

وعن أشور والملوك الاشوريين استندت كلياً الى أرضية الأحاديث التوراتية . فالاشوريون صوروا قساة دمويون يشربون الدماء البشرية ولم يبق إلا القليل وكادوا أن ينعتوا بآكلة اللحوم البشرية . أما البابليون والملوك البابليون فقد شبهوا بالأناس الفاجرين المخنثين المعتادين على الترف وإشباع الغرائز والرغبات . ولم تكن هناك حتى فكرة الاشارة الى أن هؤلاء القساة المسلطين على بني إسرائيل يمكن أن يكونوا شعوباً متمدنة ذات ثقافة عالية وحتى أساتذة الاغريق والرومان » .

بينما ، وعلى عكس هذه الافتراءات تلقى الاغريق القدامى ومن بعدهم الرومان تأثيرات الحضارة الاشورية البابلية في مجالات عدة منها العلوم والتكنيك والتاريخ والميثولوجية والأدب والعمل العسكري والطب والزراعة والرياضيات وغيرها .

يكتب ن. نيولسكي « لقد دخلت عناصر الثقافة الاشورية ـ البابلية في لحمنا ودمنا وتغيرت وتفاعلت لدرجة غير معقولة بحيث لم يراودنا الشك في منشئها زمناً طويلا . إلا أنها عديدة وتذكرنا

بنفسها يومياً . فنحن اعتدنا مثلا على الأيام السبعة للاسبوع لدرجة أنه لا تتصور أن نسأل أنفسنا من أين جاء هذا التعداد لأيام الأسبوع وكذلك ننظر للاثني عشر شهراً في السنة أو الى ٦٠ دقيقة في الساعة و ٦٠ ثانية في الدقيقة .

بينما إن هذه التقسيمات الأساسية الداخلة في لحمنا ودمنا ليست بمجملها منجزات أصيلة لحضارتنا بل إنها تأخذ منابعها من قديم الأزل من بلاد بابل العريقة . إن الانسان الافرنسي والانكليزي والألماني يلفظ تسمياته لأيام الأسبوع بشكل آلي دون أن يظن أبداً أن هذه التسميات هي ترجمة مبسطة لتسميات بابلية قديمة . يتعلم مئات الآلاف من الطلاب والطالبات في المدارس تقسيم الدائرة الى ٣٦٠ درجة ويقيسون الأقواس والزوايا بالدرجات ولا يرد ببال أحد منهم السؤال لماذا لم تقسم الدائرة الى مئة أو ألف درجة وفق النظام العشري ، كما لا يفكر أحد من علماء الرياضيات بضرورة إجراء مثل هذه الاصلاحات ، إذ أن مجمل علم الهندسة المبني على هذا التقسيم قد دخل في لحم ودم علماء الرياضيات والتخلي عنه صعب مثلما هو صعب التخلي عن تقسيم اليوم الى ٢٤ ساعة والساعة الى ٦٠ دقيقة . إنه يحمل مثل هذه العراقة المشرفة ويرجع في أصوله الى هتايك البلاد في بابل . نحن حتى هذا الوقت نتكلم عن الانسان المحظوظ بأنه ولد تحت « نجم سعيد » ، ويوجد بيننا حتى الآن عدد غير قليل من الناس الذين يؤمنون بحق بأنه يمكن قراءة المصير مسبقاً بواسطة التنجيم ، ولكن قبل ١٠٠ ـ ٢٠٠ سنة كان العلماء يعتبرون التنجيم فرعاً من فروع علم الفلك .

إن الموطن التاريخي لعلم الفلك هي بابل أيضاً وأن الفلكيين البابليين هم الذين وضعوا القواعد الأساسية لعلم الفلك . هناك

..امة نستعملها لكل دقيقة وهي مأخوذة من هنـاك أيضاً وهي كلمة « تالانت » (*) ـ إنها تسمية بابلية لوحدة وزن وهي أعلى وحـدة نقدية بابلية ، كذلك تأتي من بابل كلمة « خيروقيم » (**) التي تستعمل كثيراً في التوراة وتراتيل الكنيسة وعندما نقول ـ مزاحاً ـ أن العدد سبعة هو رقم مقدس فإننا نكرر دون وعي أو إدراك أبداً ذلك الاعتقاد الراسخ بذلك في بابل آنذاك . ويمكن العثور على عدد كبير من الكلمات ذات الصفة البابلية في التوراة وبعض الطقوس الدينية . ومعروفة لنا جميعاً منذ نعومة أظفارنا روايات عن خلق الكون ـ شجرة الحياة وعن الطوفان وبلبلة بابل ، كل هذه الروايات ظهرت أولا في بابل وأن مؤلف الكتب التوراتية غير فيها وفق مشيئته وجعلها تتناسب مع الايمان بالإله الواحـد . ويمكننا العثور في أماكن كثيرة من التوراة وحتى في العهد الجديد على كلمات كبيرة وصغيرة ذات صبغة بابلية » .

ولتوسيع المعرفة عن الإرث الحضاري لبلاد آشور وبابل نأخذ مثالاً واحداً عن أحد المعارض الذي افتتح مؤخراً في موسكو سنـة ١٩٨٤ في قاعة « بيت العلماء» والمخصص لفن التطريز . فقد أكد الباحثون أن هذا الفن هو أحد اقدم الفنون على الأرض وأنه عثر على اللوحات الحجرية الآشورية على عناصر الزينة في الألبسة معمولة وفق تقنيـة فن التطريز . بالاضافة لذلك إن الاقحوان المنتشر في العالم أجمع انطلق في رحلته هذه من الحدائق المعلقة في بابل ، كذلك انطلقت

(*) بالروسية تعني المهارات ـ المترجم

(**) وهي احدى المراتب العليا للملائكة في ملكوت السمـوات وتصورهم وهم بست اجنحة وعدد كثير من العيون ـ المترجم ـ

وردة الجوري من بابل عبر الاغريق والرومان الى أوروبا •

وهناك اكتشاف آخر في تاريخ الموسيقى ، حيث تكلم عنه أساتذة جامعة كاليفورنيا سنة ١٩٧٥ م ، إذ أنهم بعثوا الحياة في رومانس أشوري مكتوب على لوح حجري بعمر يقترب من ٣٤٠٠ سنة ، كما أنهم أعادوا صنع القيثارة الآشورية ـ البابلية وتم أداء هذا الرومانس عليها • وكان يعتبر سابقاً بأن الموسيقيين القدامى استنبطوا نوطة واحدة فقط في المرة الواحدة ، أما الآن فقد تم البرهان على أن الموسيقيين الآشوريين ـ البابليين استنبطوا نوطتين في كل مرة ، واستخدموا المدرج الموسيقي السباعي الغربي وليس الشرقي الخماسي ، إذ أن علماء الموسيقى كانوا يعتقدون قبل هذا الاكتشاف أن المدرج السباعي وضعه الاغريق سنة ٤٠٠ ق•م •

وهناك نص كامل لأغنية لم يتمكن من إحيائها ، إلا أنه يلاحظ فيها تكرار كلمة « الحب » و « القلب » مما قدم التبرير لاعتبارها رومانسياً عاطفياً •

والاختراع الآخر لدى الآشوريين والبابليين والذي لا زال يستعمل على نطاق واسع في العالم حتى يومنا الحاضر هو الساعات الشمسية والمائية والتي شاهدها حتى هيرودوت • فقد عرف العلماء عن الساعة الشمسية المخترعة في بلاد الرافدين من نص مكتوب على لوح غضاري يرجع لعام ٧٠٠ ق•م فقد حوى هذا اللوح إرشادات عن استخدام الساعة الشمسية (غنومونا) • وقد أثبت العالم البلجيكي الأسيريولوج ف • كيومون بأن الاغريق اقتبسوا الغنومونا أثناء إقامة العلاقات التجارية الشرق الآسيوية والمدن اليونانية •

واستعمل الآشوريون والبابليون الساعات الشمسية النصف دائرية لأغراض الرصد الفلكي • فقد صنعت من الأسلاك المعدنية

كرة بحجم يسمح لها التدحرج بسهولة حول ميناء الساعة الذي كان له شكل الفنجان • وكانت الكرة محزمة بإطار كبير يعكس دائرة الأبراج وقد رسمت علامات الأبراج على هذا الاطار مع مراعاةالمسافات الزاوية لها • ولمعرفة في أي مكان من فلك الأبراج تقع الشمس ،كان من السهل تحديد ذلك على إطار الميناء •

أما الشكل الآخر من الساعات التي استخدمها الآشوريون والبابليون في الأزمنة الغابرة كانت الساعات المائية • فقد تألفت هذه الساعات من أنابيب اسطوانية الشكل • وقد تم فرز أناس خصصياً لخدمة هذه الساعات • فقد اكانوا يملؤون الأنابيب بالماء عند بزوغ الشمس وعندما كانت تفرغ من الماء كان الشخص المراقب ينبه عن ذلك • وكان يجري ذلك من ٥ ــ ٦ مرات يومياً •

إن الأسبوع السباعي الأيام هو منإ رث الاشوريين او البابليين ويرجع الى آلهة الفلك السبعة ، الذين سجد لهم أهل بابل وأشور القدامى وهم : شمس (الشمس) ، سين (القمر) ، مردوخ (المشتري) نيرغال (المريخ) عشتار (الزهرة) • نابو (عطارد) نينورتا (زحل)• وقد حفظت هذه الأسماء في تسميات الأيام باللغات الألمانية والفرنسية والانكليزية ولغات أخرى •

لقد تركت الاعتقادات الدينية الآشورية ــ البابلية آثاراً كبيرة على مضامين كتب العهد القديم والعهد الحديث • ففي مثال الشجرة التوراتية للخير والشر تتعرف بيسر على الأسطورة الآشورية ــالبابلية عن «الخطيئة الأصلية » ، والتي يحكى فيها بأن البشر عاشوا في بستان كان يحوي على شجرتين (شجرة اللباس وشجرة ــ نبات) وشجرة ــ نبات كانت توهب الحياة • إلا أن البشر أكلوا من ثمار شجرة اللباس أولا، وأرادوا أن يأكلوا من ثمار شجرة ــ نبات كان

ذلك تماماً يمكن أن يجعلهم خالدين أزليين كما هي الآلهة ،إلا أن الآلهة لم تشأ بأن يصبح البشر على صورتهم ومثالهم لذلك أبعدوا البشر من هذا البستان •

كذلك نقلت الأسطورة البابلو ـ أشورية عن الإله تموّز ـ الذي يموت وينبعث ـ الى الديانة المسيحية • « وفقاً للاسطورة عن الإله بيل ـ مردوخ ـ يروي الأكاديمي ف • ستروفه ـ يعتقل هذا الإله عند مدخل المملكة التحت أرضية ويعذب ويحقق معه ثم أخذونه الى أعماق الجبال • وفي الوقت نفسه كان الى جانبه مجرم ما • يسبب غياب بيل ـ مردوخ حزناً عميقاً لدى الشعب فينهض للمعركة وتهبط زوجة الإله لتلحق بهم الى المملكة التحت أرضيةوتنقذه وتخرجه للحرية » •

« ••• وبهذا الشكل يوجد في هذه الأسطورة البابلية ، التي حفظت بشكل سيء للاسف وأصبحت معروفة لنا فقط في عام ١٩١٧م أحد مصادر تكوين الانجيل دون شك • إن مثل هذه العلاقة بين حياة السيد المسيح وشخصية الإله الذي يموت وينبعث قد شهد بها أحد آباء الكنيسة الكاثوليكية وهو الأب يرونيم الذي عاش في القرن الرابع الميلادي »•

كذلك تركت ملحمة غلغاميش أثراً عميقاً في الأدب العالمي•ويمكن تقصي ذلك ـ على سبيل المثال ـ في قصيدة هوميروس «الأوديسا» حيث يتفق كثيراً من مقاطعها مع الملحمة •

عن الذي شاهد كل شيء ،حتى آخر الدنيا
لقد قرأ جملة كل ما هو مكتوب
عمق الحنكة لدى قاريء الكتب
رآه مخفياً وعرفه مستوراً

وجاب الأخبار عن أيام ما قبل الطوفان

لقد ذهب بعيداً ــ تعب هو ثم عاد

عندما نبدأ بدراسة الهندسة لا بد لنا أن نتعلم نظرية فيثاغورس إنه اقتبسها أثناء زيارته لبابل . أما الرياضيون الآشوريون ــ البابليون فقد عرفوها قبل ذلك الوقت بألف سنة،كما عرفوا استخراج الجذر التربيعي والتكعيبي ووضعوا مبادىء الجبر . ويكتب الأكاديمي ستروفه : « إن مصور النجوم الذي يمكن رسمه دون استخدام التلسكوب وضع في بابل وعبر الحيثيين وصل الى غربي البحر الأبيض المتوسط . لقد وصل الفلك في بابل الى درجة عالية جداً بحيث كان له تأثير واضح على المعارف الفلكية في بلاد الاغريق فيما بعد » .

وفي بلاد ما بين النهرين تم وضع أول تقويم قمري لا زال يستخدم حتى الآن ، لقد تمكن علماء هذه البلاد من إيجاد العلاقة بين الشمس وإشارات الأبراج الفلكية في يوم الاعتدال الربيعي ــ كان بإمكانهم التنبؤ بالكسوف والخسوف .

لقد جمع العلماء الاشوريون والبابليون النباتات واصطفوها ، وصنفوها ووضعوا قوائماً بالحيوانات المحلية والمجلوبة ، وكذلك بالمعادن كما أجروا تجارب في الزراعة والري . لقد حول سكان بلاد الرافدين أوطانهم الى مركز ضخم في الزراعة وقد اشتهروا بزراعة العنب وصناعة الخمور منه .

كما أسست في بابل أول حديقة للحيوان . فقد اكتب عن ذلك الباحث الطبيعي الشهير ج. داريل : « لقد كان عند الآشوريين العديد من الحدائق بما في ذلك لدى أولئك المشاهير مثل سميرأميدا (فقد أحبت الفهود كثيراً) وابنها نينوس (وكان يفضل الأسود) والملك أشور بنبعل المختص بالأسود والجمال » .

ولابد في الختام من الاشارة الى أن النحت في أشور وبابل كان يتميز بخصوصية في الشكل والموضوع وكان له أثراً واضحاً على النحت الأوروبي بالاجمال ومن خلال بيزنطة على الروس أيضاً . ويكتب الأكاديمي شوسيف بهذا الصدد : « أخذت المدرسة الفنية في بيزنطة بدايتها من المدرسة الاغريقية القديمة وتلك ارتشفت لنفسها منجزات الفن والثقافة الشرقيتين . إن الفن الشرقي فاقع وبهي، ذلك البهاء الذي يأخذ بدايته من الفن في بابل وبلاد فارس ونقل عبر بيزنطة الى روسيا » .

لقد ألهمت الاكتشافات العظيمة للحضارات القديمة في بلاد ما بين النهرين علماء الآثار والجيولوجيين والمؤرخين والعاملين بفك الرموز وفي المتاحف . لقد دخلت شخصيات وأسماء الأبطال الأسطوريين والواقعيين وتسميات بابل وأشور ونينوى آداب وثقافات الغرب والشرق على السواء ، كما كتب حول المواضيع التاريخية للحضارات القديمة القصائد والدراما والروايات .

* * *